د. هـ. لورانس

الخاطئ

رواية



ترجمة: د. فاضل السعدوني
مراجعة: محيي الدين إسماعيل

د. هـ. لورنس

الخاطئ

رواية

ترجمة: د. فاضل السعدوني
مراجعة: محي الدين إسماعيل

• د. هـ. لورنس
• الخاطئ
• ترجمة: د. فاضل السعدوني

• الطبعة الأولى 2011
• الناشـــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 5141441
• الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
• الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
• التوزيـــــــــع: دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

كلمة في التمهيد

هو ابن الفاجعة، ابن الكارثة، وهو ابن كل العصور الحضارية، وهو الثائر على ذاته وعلى كل العصور التي انتهت بهذا العصر الأليم الذي مزق الإنسان وما هو موجود داخل الإنسان، إنه هو الذي صعقته ضربة قوس قزح الكوني فارتد يلوذ بظلمة الرحم... بدلاً من أن ينقذه قوس قزح!

ذلك هو د. هـ. لورنس الذي آلمته جميع الآلهة المزيفة داخل الإنسان وخارجه، فاستخدم في وجهها كل الأسلحة... كل الأسلحة حتى الأسلحة البذيئة منها، ذلك أن الآلهة المزيفة لم تعد، كما كانت في عصور النور تسكن القمم، بل تعوي مصابة بالكراهية والبغض وتعيش في الحضيض.

وهذه الرواية (الخاطئ) هي إحدى الارتدادات التي اعتصرها لورنس من ذاته في وجه الخطايا القاتلة المميتة التي يقترفها الإنسان في أوكار الضعف الإنساني، إزاء عصر الانحطاط، عصر اللاتوازن بين الجسد والروح.

هذه الرواية ترجمها إلى العربية الصديق الأديب المترجم الفاضل الدكتور فاضل السعدوني، وأظن أن اختياره قد وقع عليها، لأن فيها كثيراً من عناصر رواياته الكبيرة الأخرى، وفيها الشيء الكثير من عناصر فلسفة لورنس، لاسيما عنصر «البتر» الذي يتمثل بانتحار البطل. فهي صرخة الفشل في الخلاص!

ورواية (الخاطئ) التي اختلف النقاد كثيراً في تقويمها وفي مكانتها بين آثار لورنس الكبرى تظل إحدى لوحاته الخلابة، فلورنس قبل كل شيء، وبعد كل شيء فنانٌ من فرع رأسه إلى أخمص قدميه، فنان يهبنا الكثير بسخاء، ويشدنا إليه ويصور لنا العفة المبتورة. ومع كل هذا الإطار الذي يؤطر رواية (الخاطئ) لا تستطيع أن تبتسم، بل البسمة تستحيل إلى إشفاق، إلى تطلع مجنون داخل الذات.

تلك هي رواية (الخاطئ) التي قهر لغتها النقية الصافية الصديق الدكتور فاضل السعدوني وهو ينقلها إلى العربية بلغةٍ بسيطة نقية صافية. وأنا اعلم أي جهد يبذله من يقدم على ترجمة لورنس هذا الفنان الكبير ذي الأسلوب «السهل الممتنع».

يقول لورنس في روايته (عشيق الليدي شاترلي): إن اللحظة الأشد خطراً هي تلك اللحظة التي يلبس فيها المرء رداءه...

وفي رواية (الخاطئ) يلبس لورنس رداءه الأصيل، ويجمل لنا كثيراً من نظراته الفلسفية فاعتصر ذاته، وأحرق فكره، واستنزف كثيراً من قدراته ليمنع واقع «البتر». بيد أن الكارثة كانت أكبر وأعمق... فالحل مستحيل، وإعادة التوازن وراء المستحيل.

ولقد أحسن الصديق الدكتور فاضل السعدوني صنعاً بترجمة هذا الأثر الفني الخلاب، ففيه من الفكر ومن البهاء والرواء والجمال ما يفوق الجهد الذي بذله المترجم الصديق.

محي الدين إسماعيل

الفصل الأول

هتفت لويزا وهي تنتزع أصابعها من مفاتيح البيانو، مستديرة على نحوٍ مفاجئ إلى عازفة الكمان:

«اخلعي خافض الصوت من كمانك، هيا افعلي!».

نظرت إليها هيلينا ببطءٍ وهي مازالت ممسكة بكمانها وقالت:

«سيكون الصوت عالياً على نحوٍ لا يطاق يا عزيزتي لويزا».

ثم همت واقفة وهي تضرب تنورتها البيضاء بقوس كمانها بنوع من التجمل الحزين. بينما صرخت لويزا وهي تثب عن كرسيها، بمبالغة امرئٍ ساخط على من يحب:

«وأخيراً وافقت على إخفات صوت كمانك. لقد كنت ترفضين ذلك من قبل دون مناقشة، فماذا دهاك؟».

فأجابتها هيلينا التي بدت مرهقة منشدهة، بيد أنها مازالت حساسة:

«لقد استسلمت مؤخراً للعديد من الأشياء».

خفضت لويزا من تحديها الجاف، وقالت وهي توبخها بنبرات نابعة من الحب:

«على أية حال، أنا لا أحب ذلك».

وأشارت هيلينا بقوس كمانها إلى مكانٍ على أوراق معزوفات لويزا من سونيتات موزارت قائلة:

«هيا أكملي من اليكرو».

وبإذعان سحبت لويزا الأوتار واستمرت الموسيقى.

وهناك شاب كان يستلقي على كرسي من كراسي الخيزران الموضوعة قرب موقد النار استدار بارتياح بعيدا عن الفتاتين كي يرقب ذبالة النار، وهي تتأرجح وترقص مع الموسيقى. كان من الواضح أنه مرتاح في جلسته رغم أنه بدا غريباً في الغرفة.

كان المكان غرفة المعيشة في بيت متواضع ينتصب في صفٍ مع مئات أخرى من البيوت المتشابهة، على امتداد شارع عريض في ضاحيةٍ جنوب لندن. وبين حين وآخر، كانت مركبات الترام تمرُّ مهمهمةً، لكن غرفة هيلينا تلك، كانت بعيدة عن مركبات الترام وعن ضوضاء المرور في لندن، كانت الجدران ذات لون أخضر كامد، بلون نباتات آب، وتبدو السجادة الخضراء بحافاتها اللامعة مثل مربع من العشب على أرضيةٍ ترابية سوداء. كان السقف أبيض صقيلاً وكذلك الإفريز والموقد، ولم يكن ثمة لون آخر في الجوار. بينما كان لجميع الأثاث ـ باستثناء البيانو ـ مظهر لا يثبت في الذهن، حيث وضع كرسيان من الخيزران قرب النار، والمشجبان الواهيان من الخشب الأسود اللامع والكرسيان المتداعيان وخزانة الكتب القابعة في الكوة كلها متناثرة غير مستقرة كما لو أنها قد أزيحت لتبقي الغرفة فارغة بأرضيتها وجدرانها الخضر، وحافة سقفها البيضاء اللامعة.

على رف الموقد وضع تمثال صغير لبوذا من الحجر الصيني كان يشع منه بريق أبيض. كان بوذا رمادي اللون، مجرداً من العاطفة، مستغرقاً في تأملاته وإلى جانب التمثال، ثمة لوحان من الحجر شبه الشفاف تغشيهما سحابات جميلة من الورد والدم،

محفورة برموزٍ صينية، وهنالك أكوام من التذكارات وبلورات الصخر والأصداف وفتات الأعشاب البحرية.

عندما دخل الشاب الغريب الغرفة أحس بالارتباك. نظر إلى الفراغات العارية على الجدران ذات اللون الأخضر الغامق والأثاث الهزيل وتأكد من أنه غير مرحب به. كانت مواد التعاطف الوحيدة في الغرفة هو ذلك المصباح الأبيض الذي كان يتوهج على حاملٍ قرب الجدران، ونبات السرخس الكبير الجميل ذا الأوراق الضيقة التي تطوق سحابتها الخضراء فجوة الشباك. هذه الأشياء فضلاً عن النار، بدت ودودة فقط.

كانت الشموع الثلاث الموضوعة على البيانو الأسود تشتعل ببطء، والموسيقى تتذبذب بفتور كفراشاتٍ مخدّرة على نحو غبي. كانت هيلينا تعزف على نحوٍ آلي، وتكسر الموسيقى تحت قوسها، فتخرج ميتةً مؤذية للسمع. قطب الشاب وجهه واستغرق متأملاً، واستدار مرة أخرى بانزعاج صوب العازفتين.

كانت عازفة الكمان فتاة في الثامنة والعشرين، وكان ثوبها الأبيض ذو الخصر العالي يتأرجح كلما عزفت اللحن، ويهتز بإصرار كما لو أن جسدها بندول أبيض. غشى الوجوم وجه الشاب واستمر في مراقبتها. كانت الفتاة وفيرة الجسم ممتلئة بالحيوية، رقبتها بيضاء نقية مقوسة ترتفع من ذلك الفراغ الرقيق بين كتفيها، وحينما كانت تمسك بالكمان، كان حرير كمها الأبيض يتأرجح طافياً ملاحقاً قوس الكمان.

لم يستطع بيرن رؤية أكثر من قوس خدها المكتمل من وجهها، ولكنه تأمل شعرها الذي كان يبدو من الخلف بلون الدمية المصنوعة من الحجر الصابوني تقريباً. كانت تتشرب ضوء الشمعة الذي يتحرر حياً أمامها. فيتلألأ فوق جبينها.

توقفت هيلينا عن العزف فجأة، وأسقطت ذراعيها في استسلام نزقٍ، فنظرت لويزا وهي جالسة إلى البيانو من حولها مندهشة وصرخت بها:

«لماذا توقفت؟ ألم يكن ذلك على ما يرام؟».

ضحكت هيلينا بضجر، وأجابتها وهي تضع كمانها برقة كي يرتاح.

«كان العزف خطأ كله».

فقالت لويزا وهي تشعر بالغضب، فقد كانت تحب هيلينا بحنان مفرطٍ:

«آسفة، فقد عزفت بطريقةٍ رديئة».

«إنك لم تعزفي برداءة على الإطلاق، بل أنا؟».

بعد أن أغلقت غطاء حقيبة كمانها السوداء، وقفت هيلينا للحظة، كما لو أنها كانت في حيرة من أمرها، بينما نظرت إليها لويزا بعينين مفعمتين بالعاطفة وكأنها كلب لا يجرؤ على الذهاب إلى صاحبه، ولأنها لم تتلق أي استجابةٍ، انحنت فوق البيانو مرةً أخرى، فنظرت إليها هيلينا لفترةٍ طويلة، ثم أغلقت عينيها ببطء، وارتسمت على وجهها ابتسامة باهتةً، وقالت لها، كما لو أنها تلاطف طفلاً:

«اعزفي لنا شيئاً من شوبان، يا لويزا».

فرددت الكبرى بحزن:

«سأعزف ذلك على نحوٍ رديء أيضاً، كأي شيء آخر».

كانت لويزا في الخامسة والثلاثين، ولقد تعرفت على هيلينا منذ عدة سنوات. فأعادت هيلينا بهدوء:

«اعزفي المازوراك(*)».

ابتدأت لويزا تنقب بين صفحات المعزوفات، بينما أطفأت هيلينا شمعة كمانها، وجاءت لتجلس جنب النار مقابل بيرن. عزفت

(*) موسيقى بولندية راقصة.

الموسيقى، وضغطت هيلينا ذراعيها بكفيها وهي مستغرقة في التفكير، فقال الشاب:

«إنهما مازالتا ملتهبتين».

رفعت إليه بصرها على نحوٍ مفاجئ، وأضاءت عيناها الزرقاوان المتعبتان المهمومتان بابتسامة صغيرة:

«نعم».

ورفعت أكمامها، كاشفةً عن ذراعٍ رقيقةٍ متينة قرمزية اللون من مقدم الكتف حتى الرسغ كفاكهةٍ حمراء طويلة محترقة، وأسندت الفتاة خدها على اللحم البض الناعم قائلة:

«الجو حار».

ثم ابتسمت وابتدأت تلاطف ذراعها التي لوحتها الشمس بمتعة خاصة.

قال الشاب مقطباً:

«من الطريف أن يرى المرء حرقاً للشمس كهذا في منتصف الشتاء، ولا أعرف لماذا بقي طوال هذه الشهور، ألا تضعين شيئاً كي يشفى؟». ابتسمت له مرة أخرى، برثاءٍ تقريباً، ثم وضعت فمها بحنانٍ على الحرق، وقالت بهدوء وبمتعة غريبة:

«إنه يعاود الظهور كل مساء على هذا النحو».

«لقد تعرضت للشمس في آب ونحن الآن في شباط. لابد أنه يرجع إلى حالتك النفسية. إنك تستحضرين الألم».

نظرت إليه ببرودٍ وعلى نحوٍ مفاجئ، وأجابت باختصار وفي نوع من السخرية:

«أنا لا أفكر فيه مطلقاً».

امتقع وجه الشاب بسبب نبرتها اللاذعة، ولكن أذاه كان جسدياً وحسب، إذ سرعان ما ابتسم لها برقة وردد:

«مطلقاً».

ران الصمت بينهما لبضع لحظاتٍ، بينما استمرت لويزا بالعزف، وفي النهاية هتفت:

«اللعنة!».

ثم انتفضت واقفةً عن كرسيها، فنظر الاثنان إليها، وقال لها بيرن ضاحكاً:

«لقد كنت تعزفين جيداً، ما خطبك؟».

فصرخت لويزا وهي تسقط ذراعيها على تنورتها:

«أنتما!، أواه، لا أستطيع العزف لفترة أطول».

وضحكت هيلينا في الحال، فدافعت لويزا عن نفسها:

«أوه، لا أستطيع يا هيلينا».

فأجابتها هيلينا وهي تضحك قليلاً:

«أنت لست مجبرة على الإطلاق».

وبأناةٍ صغيرة من شخص يستسلم لنزوة تناقض احترامه لنفسه، أسقطت لويزا نفسها على ساقي هيلينا، واضعةً ذراعيها ورأسها حول ركبتي صديقتها بتراخٍ ولم تبد الأخيرة أي رد فعل، بل استمرت بالتحديق إلى النار، أما بيرن الذي كان على الجانب الآخر من الموقد، فقد تمدد في كرسيه يدخن سيكارةً وهو يتأمل.

كانت الغرفة هادئة جداً، بينما كانت حركة المرور مستمرة في الخارج، والأقدام تمور على الأرصفة، ولكن عاصفة الحياة المبتذلة هذه ظلت خارج غرفة هيلينا التي بقيت خرساء كأنها كنيسةٍ. إذ كانت الشمعتان تحترقان على نحوٍ باهت، كما لو أنهما فوق مذبح الكنيسة، يتلألأ ضوؤهما الأصفر على البيانو الأسود، بينما كان المصباح مطفأ، وفقدت النار في الموقد لهيبها وتحولت إلى كسارة حمراء اللون، ما لبثت أن تضاءلت، بحيث أخذ لهب

الشموع الأصفر ينعكس حتى على الجمرات، ولم ينبس أحدهم ببنت شفةٍ. وفي النهاية ارتجفت هيلينا قليلاً في كرسيها، بيد أنها لم تغير من جلستها، بل ظلت جالسة بلا حِراك وغمغمت:

«هل ستصنعين لنا القهوة يا لويزا؟».

رفعت لويزا نفسها ونظرت إلى صديقتها، ثم تمطت قليلاً وهي تتأوه بنهم:

«أوه، إن هذا لوضع مريح جداً!».

فردت هيلينا وهي تحاول أن تنطلق:

«إذن لا تزعجي نفسك بالنهوض، سأذهب أنا».

مددت لويزا يدها ووضعتها على رسغ هيلينا، وهمهمت متأوهة بإغراء وبحب ظاهر:

«سأذهب أنا».

وبينما كانت هيلينا ما تزال تجهد نفسها ببعض الحركات كي تنهض. لكن المرأة الكبرى نهضت ببطء. وقد رمت بكل ثقلها على صديقتها، وسألتها، متصنعةً الخمول:

«أين القهوة؟».

فقد كانت مليئة بأحاسيس التكلف والتصنع الصغيرة التي تستنفدها بحبٍ متقلب لا يستقر على حال.

«أعتقد أنها في مكانها المعتاد يا عزيزتي».

تثاءبت لويزا وجرجرت نفسها إلى الخارج:

«أووه...!».

كانت الاثنتان صديقتين لعدة سنوات، ولقد نامتا ومرحتا وعاشتا معاً. أما الآن فإن صداقتهما تقترب من نهايتها.

وعندما أغلق الباب قال بيرن:

«على أية حال، إذا كنت حيةً، فيجب عليك أن تعيشي».

فانفجرت هيلينا في نوبة من المرح عند سماعها هذه الملاحظة المفاجئة، ثم سألته بتسامح.

«لماذا؟».

فأجابها مبتسماً:

«لأن شيئاً اسمه الوجود السلبي غير موجود».

فزمت شفتيها في تدليلٍ مسر من هذا الشاب وقالت:

«أنا لا أتبين الأمر إطلاقاً».

فرد محتجاً:

«لن تستطيعي ذلك. فأنت كشجرةٍ لابد أن تبرعم في نيسان إذا كانت حية، فهي لا تستطيع منع نفسها، والأمر ينطبق عليك أيضاً».

فقالت بنبرةٍ ساخرة:

«إذا كنت لا أستطيع منع نفسي، فما المشكلة يا صديقي؟».

«أعتقد لأني لا أستطيع منع نفسي، فإذا كان الأمر يزعجني فإني لا أستطيع كتمان ذلك، فكما ترين... فأنا نيسان!».

أصغت إليه بأقل ما يمكن من الاهتمام، ولكنها أجابته بنبرةٍ معدنية باردةٍ غريبة جعلت أعصابه ترتعش:

«ولكني لست شجرة عارية، فكل أوراقي الميتة مازالت معلقة بي وترقص رقصة الموت».

فقال بسرعة:

«ولكنك تبرعمين من الداخل مثل شجرة الزان».

«أحقاً ما تقول يا صديقي؟ أنا تعبة جداً كي أبرعم».

ورد عليها محتجاً:

«لا... لا».

عقد حاجبيه الكثين وتأملها بقلق. لقد تعرضت لفجيعةٍ كبرى في آب الماضي، وهي ما تزال مشدوهة، ووجها أبيض ومهموم مثل قناع ثم ما لبثت أن حملقت في النار، وقد لاح على وجهها تقطيب، ناسيةً إياه تماماً.

«أنت تحتاجين لآذار لكي يمزق أوراقك القديمة، والمفروض أن أكون آذار». وضحك مما قاله، وقد بدا قلقاً عليها إلى أبعد الحدود. أهملته مرة ثانية بسبب افتراضاته، فانتظر فترة قصيرة. ثم ما لبث أن انفجر مرة أخرى:

«يجب أن تبدئي مرةُ ثانية. أنت تجففين أوراقك الحمر في الصيف العاصف، ولكنك لست ميتة حتى لو أردت ذلك، وحتى لو كان ذلك مراً كي يقال، لكن يجب أن تقوليه: أنت لست ميتة...»

استدارت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مؤلمة غريبة ـ كما لو أنه قد نكأ جرحها ـ كي تحملق في صورةٍ معلقة فوق البيانو. كانت صورة جانبية لرجلٍ وسيم في مطلع شبابه، وهو ينحني إلى الأمام قليلاً، كما لو أنه ينوء تحت عبء الحياة، أو أن القدر يشده. كان يبدو مسروراً، ولا توجد علائم تمرد في تقاطيعه المنتظمة، فشعره الناعم الغزير ممشط إلى الخلف بعيداً عن حاجبيه الرقيقين، وأنفه صغير جميل التكوين، وذقنه مدورة وفلعتها محببة. حملق بيرن في الصورة، فغشت نظراته الكآبة واليأس.

«لا يمكنك القول إنك ميتة مع سيغموند». صرخ بها في قسوة. ارتجفت وشدت ذراعيها المحترقين على صدرها وحملقت في النار، «أنت لست ميتة مع سيغموند» ألح مرة أخرى، «لذلك لا تستطيعين القول إنك تعيشين معه. يمكنك أن تعيشي مع ذكراه، ولكن سيغموند ميت ولا تعني ذكراه الأمر نفسه»، أصدر إشارة

عنيفة تدل على نفاد الصبر. «سيغموند الآن، ليس ذكرى، وليس أوراقك الحمر الميتة، بل هو سيغموند الميت، وأنت لا تعرفينه لأنك حية مثلي، ولذلك، فسيغموند الميت غريب بالنسبة إليك».

جثمت مثل حيوانٍ عابس، وقد حنت رأسها إلى الأمام، ونظرت إليه من تحت حاجبيها، فحملق بضراوةٍ فيها، ولكنه ما لبث أن انكمش تحت تأثير حملقتها الثابتة المحدقة، واستدار بعيداً عنها، وهتف فيها:

«أنت تمدين يدك على نحوٍ أعمى باتجاه الأموات، ولا تلتفتين إلى الخلف، بل إنك لا تمسين شيئاً مطلقاً».

فجاء صوتها مثل مواء قطةٍ:

«إن ذراعي لويزا حول عنقي دائماً».

وضعت يديها على حنجرتها، كما لو أن عليها أن تخفف ألماً، ورأى شفتها ترتفع في ازدراء، كرد فعل ضد الحياة. لقد كانت مريضة جداً بعد المأساة التي تعرضت لها، وقُطب وجه الشاب واتسعت عيناه:

«البشر طيبون ولكنك لم تنظري إليهم مطلقاً. فأنت تفضلين التسكع لساعات فوق الأعشاب البحرية، مهملة الناس... إن البشر أفضل من حديقةٍ مليئة بالبراعم».

راقبته مرة ثانية. كان هناك جمالٌ مميز في نبرة حديثه، وأثارتها طريقته الحنون في وقت لا تريد فيه أن تثار، فقد كان الخروج من سباتها مؤلماً. وفي النهاية قالت له:

«إنك قاسٍ لا ترحم. أتعرف ذلك؟».

فاحتج بيرن وهو يطوّح يده باتجاهها:

«وسأكون كذلك دائماً».

فضحكت بنعومة وضجر.

ران الصمت لفترة من الزمن، حدقت خلالها مرة أخرى في الصورة الموضوعة فوق البيانو، ونسيت الحاضر بأكمله. أما بيرن فقد قضى وقته مشغولاً، يحاول اصطياد بعض مسرات الحياة ليعطيها. ولقد أهمل أبسطها ـ تلك المتعلقة بالحب ـ لأنه كان أكثر إخلاصاً منها لذكرى سيغموند، وأشد عمئ مما يجب إذا تعلق الأمر بقلبه.

قالت بهدوء ولكن بلهفة شديدة:

«أتمنى لو عندي كمان سيغموند».

ألقى عليها بيرن نظرة ثم أشاح بوجهه، ودق قلبه تعبيراً عن الإحساس بالإهانة وتهاوت روحه العاشقة المتفائلة وتراخت تحت عبء ازدرائها. لقد أحس بالصدمة أيضاً وسمع النشاز، إذ جعلته يرتعد من رعبها الخاص، وانتظر ممتلئاً بالكراهية وطعم الرماد في فمه ـ وصول لويزا مع القهوة.

الفصل الثاني

يقبع كمان سيغموند الذي تريده هيلينا في حقيبة سفر سيغموند الهزيلة المطمورة تحت الغبار الأبيض في غرفة كئيبة في هاي كيت. كان يساوي عشرين باونداً، ولكن بياترس لم تقرر بيعه لحد الآن، بل أبقت الحقيبة السوداء بعيدة عن الأنظار.

يقبع كمان سيغموند في الظلام، مطروحاً هناك كما كان قد وضعه آخر مرة بيديه الأليفتين المتسرعتين في كفنه الحريري الأحمر. وبعد شهرين عقيمين انقطع الوتر الأول بحدة ضارباً جسد الكمان الحساس، وانقطع الوتر الثاني عند اقتراب عيد الميلاد، ولكن أحداً لم يسمع العويل الخافت لرحيله. واستقر الكمان أخرس في الظلام، وزحفت رائحة عفن خفيفة فوق الخشب الصقيل الناعم، وتكومت أوتاره الملتوية الذابلة متجعدة من ألم القطع خرساء تحت الطيات الحريرية. وتحولت رائحة سيغموند التي كان الكمان يعبق بها تدريجياً إلى رائحة عفن.

مات سيغموند حتى بالنسبة لكمانه. نفخ فيه من روحه حتى أصبحت أوتاره مثل نسيج لحمه. كان يبدو، وهو يمسك بكمانه، كأنما يضع أصابعه على أوتار قلبه وقلب هيلينا. لقد كان محبوبه الصغير الذي شرّبه وجوده وحوّله إلى موسيقى. أما الآن فقد مات سيغموند، ولم تبق منه إلا رائحة عفن في كمانه.

يستقر ملفوفاً بالحرير منتظراً في الظلام. قبل ستة شهور كان يتوق إلى الراحة. ففي الليالي الأخيرة من الموسم، وعندما كانت أصابع سيغموند تضغطه بشده، وكان حنان سيغموند ومتعته وخوفه تؤلم الجسد الهش لمحبوبه الصغير، كان الكمان يتوق إلى الراحة. وفي الليلة الأخيرة من الأوبرا، ومن غير أسىً، عزف سيغموند المقاطع الأخيرة بقسوةٍ ناتجة من نفاد صبره، وبهياج صادر عن الترقب.

أسدلت الستارة وانحنى المغنون العظام، وأحس سيغموند بالهدير المتناثر للتصفيق الذي أدى إلى تسارع نبضه. كان التصفيق أجش، متوحشاً روّع روحه الملتهبة، وجعله يرتجف من الترقب كما لو أن شيئاً ما قد مسح عريه الساخن. وبسرعةٍ، وبيدين ممتلئتين بحنانٍ غريزي، أبعد عنه الكمان.

كان رواد المسرح متعبين، وانسحبت الحياة بسرعة من دار الأوبرا، ونهض أعضاء الفرقة الموسيقية يضحكون، مازجين تعبهم مع تمنياتهم بعطلة طيبة بتحذيرات ماكرة ونصائح غير لائقة، وهم يضغطون أيدي بعضهم البعض بدفء قبل أن يتفرقوا. في السنوات الماضية، كان سيغموند يتريث غير راغب في التوديع الممل من قبل زملائه في الفرقة. وكان يغادر دار الأوبرا بشيء من الأسف المؤلم، أما الآن، فقد ضحك معهم، وأمسك أيدي رفاقه وحياهم تحية الوداع. قام بكل ذلك مشدوهاً، نافد الصبر. وكان المسرح الآن رهيبا في فراغه، فغادر مرحاً مسرعاً، كلهب يمد لسانه على الريح.

أسرع سيغموند في الشارع حاملاً حقيبة كمانه السوداء، ثم توقف لكي يرثي للأزهار التي كانت متكومة شاحبة تحت الضوء الغازي في السوق. غداً سيفتح البحر وضوء الشمس مساحات

واسعة أمامه. كان القمر بدراً فوق النهر، فنظر إليه نظرة مشدوهة ثم توقف تماماً، إذ لا فائدة من استعجال القطار الذي سيسافر فيه. كانت حركة المرور تتأرجح أمامه، مسبقاً، فقد كان وجهه ذهبياً يشابه القمر، والنهر في بريقه الذهبي الرمادي المرتجف الهش بين طيات ظلاله يسقط منبسطاً مثل قطعة قماش أمامه، فيظهر تلألؤ القمر الأبيض البراق مثل لحم حي. اتخذ مقعده في القطار متلفعاً على نحو آلي بضوء القمر ومراقباً حركة الأشياء. كان يعبره نوع من الغيبوبة، فقد كان وعيه على ما يبدو معلقاً، وانزلق القطار بين الأماكن المظلمة والمضاءة، وراقب سيغموند تلك الحركة اللانهائية مدهوشاً.

كانت تلك إحدى أزمات حياته، فقد كبت روحه لسنين عديدة في نوعٍ من اليأس الآلي، مؤدياً واجبه ومتحملاً الباقي، ولكن روحه أفلتت بنعومةٍ من أسارها. أما الآن، فسوف يتحرر كلياً كي يحصل، على الأقل، على بضعة أيام خالصةٍ لمتعته الخاصة. إن هذا بالنسبة إلى رجل في مثل استقامته يعني كسر الروابط وقطع روابط الدم، فهو نوع من الولادة الجديدة. وتحت إثارة ليلته الأخيرة هذه، خرجت حياته عن طوعه. وبينما جلس في شباك العربة ساكناً، يراقب الأشياء وهي تمر من أمامه.

أحس في داخله بحيويةٍ لا يستطيع منعها، وبالتدريج ابتدأ جسد ماضيه والرحم الذي غذاه بطريقةٍ مستمرة لعدة سنين، يلفظه إلى الأمام. لقد كان يرتجف في كل كيانه رغم عدم معرفته السبب، وكان جل ما يستطيع فعله الآن، هو أن يراقب الأضواء التي تمرق أمامه، وأن يدع تحول نفسه يستمر. وفي النهاية، وعندما سار القطار في الليل المضيء المكتمل، ورأى سيغموند المروج عميقة في ضوء القمر، ارتجف بنوع من التوقع الكئيب. وكانت ظلال أشجار الدردار العظيمة الرمادية تبدو وكأنها تتلكأ متلفعة

بعباءاتها عبر الحقول الشاحبة. إنه لم يرها بمثل هذه الصورة من قبل. كان العالم يتغير!

توقف القطار، وبجهد قليل نهض كي يذهب إلى البيت. كان هواء الليل بارداً عذباً، فشربه بعطش. وفي الطريق رفع رأسه إلى القمر مرة أخرى. كان يبدو أنه يساعده، ففي بريقه وسط السموات الشقر كان يتجاوز النكد، مثلما سيواجه هو الأمواج الفضية المندفعة إلى الشاطئ، بينما تنتظره هيلينا على الساحل، وسوف يرفعها بيدين بيضاوين. وبمتعةٍ مفاجئةٍ ضحك وأسرع القمر يضحك معه عبر كتل الأشجار السود.

نسي أنه ذاهب الليلة إلى بيته، ولكن الرطوبة الباردة لبوابة حديقته البيضاء الصغيرة ذكرته بذلك، فظهرت تقطيبة على وجهه. وحالما أغلق الباب، ووجد نفسه في ظلام الردهة، عاوده الإحساس بالتعب. كان الذهاب إلى الفراش يتطلب جهداً، ومع ذلك، ذهب بهدوء إلى غرفة الجلوس حيث يتسلل ضوء القمر إلى هناك، وتخيل أن بياضه هو هيلينا، فأمسك أنفاسه وتصلب ثم تنفس مرة أخرى. «غداً» فكر مع نفسه، بينما كان يضع حقيبة كمانه على أذرع كرسي الخيزران، ولكن كان لديه إحساس طبيعي بوجود هيلينا. كان يبدو شاعراً بوجودها على كتفيه، وبسرعة استدار نحو ضوء القمر رافعاً ذراعيه وهتف بهدوء «غداً». ثم ما لبث أن غادر الغرفة خلسة خائفاً مترقباً أن يزعج الأطفال.

في ظلام المطبخ، احترق برعم ضوء أزرق، وبسرعة تحول الغاز إلى لهب أصفر عريض، وجلس إلى المائدة. كان تعباً ومهتاجاً ومغتاظاً بالشك. وبينما استقر في كرسيه كان ينظر إلى كل شيء من حوله بازدراء.

كانت المائدة مغطاة بقطعة ملابس قذرة ذات بقع كبيرة بنية

اللون تدلل على أثر الأطفال، وأمامه ثمة كوب وصحن وإناء صغير عليه سكين، بينما كان الجبن في إناء آخر ملفوف بقطعة ملابس ذات حافة حمراء كي تبعد الذباب، الذي كان، مع ذلك، يحتشد من حولها على السكر والخبز وعلى علبة الكاكاو. نظر سيغموند إلى كوبه المثلم ورأى عليه بقعاً مثل علامة فم قذر، ثم شرب كوباً من الماء.

كانت الغرفة كئيبة موحشة، وثمة قطعة مشمع محشورة في ثقب قرب الباب، بينما تنتشر أحذية ذات حجوم مختلفة فوق الأرضية، في حين تغطت الأريكة بملابس الأطفال. وفي الفرن الأسود كان الرماد يقبع ميتاً، وفي الموقد هناك قطع من الخشب والجرائد ونفايات الورق وكسرات الخبز والمربى. وبينما كان سيغموند يمشي عبر الأرضية، داس على قطعتين من الحلوى تحت قدميه. كان عليه أن يتلمس تحت الأريكة والخزانة كي يجد نعليه وهو مرتد ملابسه المسائية. وسوف يكون الأمر هكذا طالما بقيت بياترس نفسها وبقي سيغموند زوجها. أكل الخبز والجبن بطريقةٍ آلية متسائلاً عن أسباب تعاسته، ولماذا لا ينتظر الغد بمتعة، وبينما كان يأكل أغمض عينيه نصف متمنٍ لو أنه لم يعِدْ هيلينا بالرحلة، نصف متمنٍ لو أن غداً لن يأتي.

أحس بشيء ما في طريقه بينما كان يتراجع إلى الخلف في كرسيه واكتشف أنها دمية دب صغير وكسرة مشط أبيض. ابتسم لنفسه، فقد كانت هذه الأشياء تمثل خلاصة حياته العائلية: مشط خشن مكسور وطفل يبكي لأن شعره مشعث؛ وزوجة تركت شعر طفلها بهذا الشكل، لتمشطه عندما يتعكر مزاجها، ومن ثم، الدب الدمية الذي يمد أنفه الصوفي الأسود ويرفع ذراعيه السخيفين باتجاهه.

تساءل عن سبب ذهاب كوين إلى سريرها من دون دميتها المفضلة إذ أنها كانت متعلقة بتلك الدمية التافهة. ثم طغى عليه إحساس جياش بالحنان تجاه أطفاله متصارعاً مع شيء آخر. غطس في كرسيه، وابتدأت ذاكرته المشوشة تصطبغ بلون أسود. جلس وقد تغلب عليه الانشداه والمشاكل يحملق ضائعاً في الفراغ، وأحس بالاختناق، فتيقظ محاولاً تعديل كتفه. أخذ نفساً عميقاً ثم استرخى مرة أخرى، وبعد فترة، نهض حاملاً الدمية، وذهب ببطء إلى السرير.

تنام كوين ومارجوري اللتان تبلغان التاسعة والحادية عشرة من العمر معاً في غرفة صغيرة جيدة الإضاءة. رأى ابنته المفضلة نائمة وقد انحسر عنها الغطاء، وأرجعت رأسها المتصلب إلى الخلف، بينما كان فمها مفتوحاً إلى النصف، وشعرها الأسود منثوراً على الوسادة. أما مارجوري فقد كانت متدثرة بالأغطية، فوضع الدمية بين الفتاتين.

بينما كان يراقبهما، كره أطفاله لأنهم عزيزين عليه إلى هذا الحد. فإما أن ينحدر إلى الدرك الأسفل ويستمر بسحب وجودٍ يكرهه، أو أن عليهم أن يعانوا، ولكنه وافق على أن يقضي هذه العطلة مع هيلينا، وقد صمم على أن يفعل ذلك. وعندما استدار رأى نفسه منعكساً مثل شبح في المرآة. استدار إلى الخلف، وحملق في نفسه، كان شعره مايزال كثاً أسود، ولم يستطع رؤية الشيب عند الصدغ. كانت عيناه غامقتين وحنونتين، وفمه تحت الشارب الأسود ممتلئاً بالشباب.

ألقى نظرة أخرى على الأطفال وقطب وجهه، ثم اتجه إلى غرفته الصغيرة، وأحس بالفرح لأنه اختبأ أخيراً في مقصورته المظلمة الصغيرة.

في الخارج كان العالم يلقي شحوباً فاتناً، ويسقط من حوله ظلالاً تجعل الحقل والأشجار والبنايات تبدو مثل كائنات حية. وتلألأ ذلك الشحوب نفسه طوال الليل على هيلينا التي كانت تستلقي متكومة ساحرة، مثل القمر، على البحر، الذي كان يتأرجح جيئة وذهاباً مهدهداً جزيرتها بينما هي نائمة. كانت هادئة جداً وواثقة من نفسها، ولقد كان يريحه جداً أن يكون معها. فلا شيء يهم سوى الحب وجمال الأشياء. أحس بالجوع والجفاف، ولديها الراحة والحب مثل الماء والمن بالنسبة له. كانت قوية في امتلاكها لنفسها، وفي حبها للأشياء الجميلة والأحلام.

دقت الساعة في الطابق الأسفل دقتين فهمس لنفسه:

«يجب أن أنام».

سحب حقيبة سفره من تحت السرير وبدأ يجهزها. وحين أكمل ذلك في النهاية، أغلقها بفرقعة مفاجئة، وبدا صوت إغلاقها نهائياً له، ثم وقف وتمطى متنهداً وقال لنفسه:

«أنا تعب جداً».

ولكن ذلك كان مجرد محاولة إقناع للنفس. وعندما خلع ملابسه، جلس على السرير بعض الوقت مرتدياً منامته، وهو يضرب ركبته بأصابع يديه بسرعة، وهو يهمهم:

«أنا في الثامنة والثلاثين الآن، ومازلت بائساً مثل طفل!». ثم ابتدأ يفكر في الغد.

عندما بدا وكأنه سيستغرق في النوم، استيقظ ليجد الأفكار تثقل عقله متجمعة مثل النحل على الخلية. كانت الذكريات والأفكار تنساب بسرعةٍ وهبطت عليه مثلما يهبط الإوز البري ويستولي على بركةٍ، وترددت في ذهنه مقاطع من الأوبرا، فعزف إيقاعها بكل

دمه، وبينما كان يتقلب في عذابه، تنهد وتذكر مقطوعة (كونشيرتو دي بيريوت) التي عزفتها هيلينا في درسها الأخير، ووجد نفسه يراقبها كما كان يفعل دائماً. وشعر مرة أخرى بنفاد صبر فطري انتابه عندما عزفتها خطأ، ثم ابتدأت مرة ثانية، وعند ارتفاع وانخفاض قوس كمانها، أدرك أين تتسلل أفكاره. لقد كانت تخطئ في العزف، بينما كان نافد الصبر، وأحس بعينيها الزرقاوين تنظران إليه باهتمام.

جفل كلاهما عندما دخلت ابنته فيرا فجأة. كانت فتاة جميلة في التاسعة عشرة من عمرها. عبرت الغرفة، وألقت نظرة عابرة على هيلينا كما لو أنها قطعة أثاث في طريقها. ثم سألت والدها سؤالاً بنبرة قاسية مهينة، وخرجت مرة ثانية كما لو أن هيلينا لم تكن هناك في الغرفة إطلاقاً.

وقفت هيلينا تعزف موسيقى بيلياس، وعندما خرجت فيرا، سألته بنبرة غريبة جعلته يرتجف:

«لماذا تعتبر موسيقى بيلياس باردة؟».

تلعثم سيغموند في الإجابة ثم تجاوزا كل شيء، ولم يذكرا أي شيء، مهملين كل ما يشين، وبالنسبة لها كان هناك الكثير مما يشين.

كانت تتردد على بيت سيغموند كطالبة موسيقى منذ عدة سنين، باعتبارها صديقة للأسرة في البداية، ثم ابتدأت هي ولويزا تذهبان بين فترة وأخرى إلى أية قاعة أو مسرح يعزف فيه سيغموند ضمن الأوركسترا، وهكذا اعتاد الثلاثة بعد فترة قصيرة، أن يعودوا إلى البيت معاً. ثم دعت هيلينا سيغموند إلى بيتها، وذهب الثلاثة في جولات معاً، ثم ذهب الاثنان لوحدهما في جولات، بينما كانت لويزا تتستر عليهما.

لقد استطاعت هيلينا فهم وحدته وأحست بإذلال قدره له، كما أحس بعينيها الزرقاوين المهمومتين تحدقان إلى روحه باستمرار، فأضاع نفسه فيهما.

وفي ذلك اليوم، وقبل نهاية الموسم الموسيقي بثلاثة أسابيع، وعندما أهانتها فيرا بتلك الطريقة، قالت له هيلينا، وهي ترتدي سترتها وتنظر إليه طوال الوقت بعينين زرقاوين مهمومتين:

«أعتقد يا سيغموند أني لن أستطيع المجيء إلى هنا بعد، فبيتك لم يعد مفتوحاً لي».

تلعثم بسبب إحساسه بالارتباك والخزي، بينما كانت هي تضغط على يده بشدة ولفترة طويلة، ثم قالت له وهي تغادره:

«سأكتب لك».

مقت سيغموند حياته في ذلك اليوم، وسرعان ما كتبت، وعندما تمدد ورأسه في حضنها بعد أسبوع، في متنزه ريجموند، قالت له:

«أنت تعب جداً يا سيغموند».

لاطفت وجهه وقبلته برقة، بينما غرق سيغموند في الانبهار الذائب للحب، لكن هيلينا كانت ـ إذا أردنا ألا نحط من قدر الكلمة ـ طاهرة عفيفة: عفاف ثابت قاس وقبيح بالنسبة لسيغموند.

«أنت تعب جداً يا عزيزي. يجب أن تأتي معي لتستريح خلال الأسبوع الأول من آب».

تدفق دمه عند سماعه ذلك، وبغض النظر عن الاعتراضات التي قدمها، مثل عدم امتلاكه النقود، سمح لنفسه أن تتغلب عليه، وسوف يذهب إلى هيلينا، إلى جزيرة وايت غداً.

هيلينا بعينيها الزرقاوين الممتلئتين بالعاصفة مثل البحر، والتي تشبه البحر أيضاً في اكتفائها بنفسها باستمرار، وفي توحدها، بحنجرتها الغليظة البيضاء التي تعد أكثر الأشياء جمالاً وقوة على الأرض، ويداها الصغيرتان البراقتان مثل زهور الريح، ستكون له غداً مع البحر والفجر، فتمسك باللهب الحاد الذي أغرقه.

ولكن تلك الفكرة سرعان ما تلاشت، وفكر بالعودة إلى لندن، وإلى بياترس والأطفال. ولكن كيف سيكون الأمر؟ وتراءت له بياترس بعينيها الغامقتين العابستين، وشعرها الأسود المعقود، إلى الخلف، كما كانت يوم أمس، وهي تتفجر غضباً عندما أخبرها «سأذهب غداً في عطلة لبضعة أيام». استفسرت عن بعض التفاصيل فأعطاها بعضاً منها، ولكنها انقضّت عليه غير مقتنعة، متفجرة في شكها وسبابها واحتقارها، في حين وقف طفلان بعيون كبيرة مفتوحة يصغيان. كره سيغموند زوجته لإثارتها عليه نظرات الاتهام الباردة من أطفاله.

قال شيئاً ما كان له أثره الكبير في بياترس. إذ كانت تنحدر من أسرة طيبة، ولقد نشأت كسيدة نبيلة، وتثقفت في مدرسة للراهبات في فرنسا. لقد أثار فيها كبرياءها القديم، فسحبت نفسها بترفع، واقتادت الأطفال بعيداً عنه، وتساءل مع نفسه، إن كان يستطيع تحمل إعادة هذه الإهانة مرة ثانية، فقد استنزفت منه شجاعته واحترامه لنفسه.

في الصباح، أزعج بياترس صوت المزلاج الحاد في باب الردهة، فاستيقظت في الحال. وسمعت خطواته الثابتة المسرعة وهي تسير على عجل على الممر المغطى بالحصى. غمرها إحساس بالعجز وبقيت للحظة ما متيبسة بالمرارة ومهملة مثل سقط المتاع، وهمهمت مع نفسها وقد اضطجعت متخشبة لفترة من الزمن:

«أنا لا شيء، أنا لا شيء».

لم يكن هناك صوت في أي مكان، وتسربت أشعة الشمس الصباحية مزهوة خلال فتحات ستارة النافذة. تمددت بياترس وهي تختلج وتتنفس بصعوبة وتغرس أظافر أصابعها في راحة يدها. ثم جاء صوت القطار وهو يخفف سرعته في المحطة، وتبعه مباشرة صوت (شف ـ شف ـ شف) السريع الدال على توقف. وتخيلت بياترس ضوء الشمس وهو يسقط على نفث البخار والعاشقين، زوجها وهيلينا، وهما يسرعان خلال شروق الشمس، فقالت بصوت عالٍ ونبرة مكتئبة:

«ليسقطها الله ميتة!».

لقد كرهت هيلينا من أعماق قلبها.

ثم ما لبثت أن استيقظت كوين التي كانت نائمة إلى جانب أمها وابتدأت تسألها.

الفصل الثالث

خلال شروق شمس الصباح، تبددت ظلال سيغموند وأطفاله وبياترس وحزنه مثل الضباب، وابتهج مثل شاب يافع يستعد للسفر، وعندما اجتاز مدينة بورتسموث اختفى كل شيء عدا عالم الحب القديم الجميل، وضحك بينما كان ينظر من شباك العربة.

في الأسفل، وعبر الشارع، كانت تمر فرقة موسيقى عسكرية مبهرجة. وطغى صوت عال فضحك مرة أخرى. لقد أحب نبرة العزف وبهرجة الفرقة وحركة الجنود ذوي الزي القرمزي. كان الناس ينسابون بسعادة من الكنيسة. كيف يمكن أن يكون اليوم هو يوم أحد؟! إنه ليس يوماً عادياً. بل هو الحب والعودة إلى تريستان(•).

كانت هناك نسوة مثل أزهار الزعفران في الأبيض والأزرق والخزامي يتحركن بابتهاج. وفي كل مكان ترفرف أعلام العطلة. لقد رقص كل مخلوق بابتهاج تحت شروق الشمس.

(•) تريستان: بطل أسطورة من القرون الوسطى في أوروبا، وتاتي أقدم نصوص الأسطورة من اسكتلندا، رغم أن أكثر النصوص شيوعاً هي من القرن الثاني عشر وذات أصل فرنسي، إلا أن صياغتها أعيدت على قصص من بلاد الكلت. حيث يرافق تريستان الآنسة إيزولت (إيزوولد) من (بريتاني) إلى كورنويل لكي تتزوج من الملك (مارك) ولكنها تشرب معه بشكل غير متعمد شراب الحب ويرتبطان بعلاقة غرامية تؤدي إلى موتهما في النهاية. ولقد استخدم الكثير من الكتاب الإنكليز والألمان القصة في أعمالهم كما استخدمها فاغنر في إحدى أوبراته عام 1865.

وما وراء كل ذلك، كانت هناك تلال الجزيرة الصامتة وهيلينا، وأنه لأمر مدهش أن يكون صبوراً إلى هذا الحد. إنها ستكون مرتدية لوناً أبيض كلياً، وحنجرتها الغليظة الباردة العارية مكشوفة للنسيم، ووجهها متألق، وهي تبتسم بينما تخفض رأسها بسبب الشمس التي تشرق على شعرها المكشوف.

تنفس بعمق متأملاً الفكرة ولكن صبره لم ينفد. توقف القطار في المدينة حيث الجنود ذوو الملابس القرمزية والبحارة الذين يثيرون الضحك بأزيائهم الزرق، وكل النساء المتألقات الخارجات تواً من الكنيسة، حيث يتسرب الجميع إلى الشارع مثل المشكال(*). تحرك القطار ببطء. قرب البحر الذي انتظر سيغموند ظهوره متقطع الأنفاس. فكان مثل هيلينا أزرق اللون جميلاً قوياً في تكتمه.

بعد لحظةٍ، أصبح في المحطة القذرة وأشرق عندئذ النهار، وانتشى سيغموند بالمتعة. أحس بالبحر يتنهد من تحته. نظر من حوله، كان البحر أزرق اللون مثل وردة القضاب(**)، بينما تضيء الأشرعة الذهبية والبيض والحمر بلون الدم هنا وهناك فوق تلك الزرقة، وبينما كان واقفاً على الدكة أسلم نفسه للنسيم، وأحس أنه أحد تلك الأشرعة المتوردة، كما لو أنه كان جزءاً من كل ذلك. كان جسده يشع وسط قمر البحر الرائع الكبير كقطعة ملونة.

بدأت السفينة الصغيرة تنبض وترتجف بيضاء بنعومة البراعم، وارتفع الماء يزبد ويتأرجح بهدوء. وكانت السفن تصطف مثل طيور فضولية. وهزت السفينة القديمة «فيكتوري»

(*) المشكال: أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون، ما أن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهائية من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان.

(**) القضاب نبات معرش أزرق الأزهار.

أعلامها العديدة ذات الألوان الصفر والقرمزية، ومرّت البيوت القديمة المستقيمة على الرصيف.

وفي خارج الميناء، كانت السفن الحربية ـ مثل مخلوقات البحر الخرافية التي تأتي متوحشة إلى السطح لتلقي نظرةً ـ تثبت خطومها السود في الماء. سخر سيغموند منها، وأحس برغوة البحر على وجهه مثل الشرر، وشعر بالبحر الأزرق يتجمع من حوله، وإلى يساره، كانت القلعة الملونة المدورة تنتصب بشكل طريف، متوحدة بصلابة في مجرى الماء، وسط الطيران الصامت للزوارق المجنحة بالألوان الذهبية والقرمزية.

راقب سيغموند جسد الجزيرة المزرق، مثل امرأة أسطورية جميلة. لقد تلاشى حبه في ضبابها الأزرق، وبدت مستحيلة في عينيه. كان الزبد الأبيض الذي تتركه السفن خلفها متبوعاً بحشدٍ هائل من زهور الربيع. ومن الجهتين، كانت السفن البحرية الضارية الشريرة تراقب من تحت أنوفها الحادة، بينما كان الماء الأخضر الصافي يتأرجح ويتغضن تحته كما لو كان يضحك، وفي المقدمة كانت جزيرة سيغموند تقترب وتقترب زاحفة باتجاهه جالبة هيلينا له.

ظهرت الغابات والمروج، وتزاحمت البيوت محتشدة في رصيف الميناء كي تلتقي به. ها قد وصل الميناء وانتهت رحلته، وتحسر سيغموند عليها، ولكن هيلينا على الجزيرة التي كانت تطفو مثل سفينة مثبتة تحت حشد من السحاب الذي أطلق بينما كان سيغموند على الماء، وبينما كان يراقب نهاية الرصيف وهي ترتفع إلى الأعلى، أسقطت فوقه سحابات تشبه القطارات الثقيلة ظلال وزنها كله، فارتجف في الريح الباردة.

كانت رحلته بطيئة جداً، وسفن السماء الغامقة تقترب أكثر

فأكثر منه، كما لو أن كل السحب كانت تأوي إلى الميناء ساعتئذ. وفوق الأرض المنبسطة قرب نيوبورت، كانت الريح تعوي مثل مجموعة من الآلات الموسيقية، والسماء تبدو رمادية اللون تماماً. انتظر سيغموند باكتئاب في محطة نيوبورت التي كانت الريح الباردة تكنسها. وكان اليوم يوم أحد والمحطة والجزيرة مقفرتان.

تلفع سيغموند بمعطفه وجلس. لقد اختفى كل تألق بابتهاجه الذي أحس به في الصباح، رغم أنه مازال هناك أمل كبير يتوهج في داخله. ولم ينم إلا ساعتين فقط في الليل، ولقد كان حينئذ رجلاً فارغاً شرب المتعة، أما الآن، فإن الثمل ابتدأ يختفي.

كانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر عندما جلس وحيداً في عربة الدرجة الثالثة ينظر إلى الخارج. وسقطت بضع قطرات من المطر على اللوح الزجاجي، ثم ما لبث أن تحول الجمال الأخاذ للمطر المتقطع إلى انفجار من العواصف، أخفى التلال والقصب الذي كان يرتجف في المستنقعات. جلس سيغموند في سبات بارد يعد المحطات، وتحت سباته كان قلبه يتحرك بصوت مكتوم غشاه الاضطراب. ولقد فاجأه ذلك لأنه كان يحس بأن عقله ميت.

أبطأ القطار: يارموث!، محطة واحدة اخرى فقط! وراقب سيغموند المحطة متألقة تحت المطر تمرق من أمامه، وتحت السقف الرمادي الجاف، كان هناك مسافر أبيض ينتظر، وفجأة، قفز قلب سيغموند وهو يحاول أن ينتزع نفسه بعنف. اندفع ليفتح الباب ويمسك بهيلينا التي تباطأت وأصدرت صرخة مرتجفة بينما كان يسحبها إلى العربة وهو يصرخ بنبرة غربية:

«أأنت هنا؟!».

كانت ترتجف من البرد، وازرقت ذراعاها العاريتان فلم

تستطع الإجابة عن سؤال سيغموند، على أنها بعد ذلك تعلقت به وهي تعانقه، وتنفض الأجزاء الأخيرة من بردها بينما كان دفؤه يغمرها تدريجياً، ضحك من كل قلبه بينما كانت تستكين إليه وهمس لها:

«أهذا حلم يا عزيزتي؟».

عانقته هيلينا بشدة وهي ترتعد بسبب انتقال دفئه إليها، وفي الحال تقريباً سمعا أصوات فرامل القطار، فهتفت هيلينا:

«ها قد وصلنا!». ثم ما لبثت أن عادت إلى مزاجها العادي الطيب، ووضعت قبعتها بشكل معتدل، بينما جمع سيغموند حقائبه.

حتى حان وقت الشاي، كان هناك توقف في تقدم أحدهما تجاه الآخر. إذ كان سيغموند يستشعر وخزاً خفيفاً ممزوجاً بحيوية مدهشة، كما لو أنه تناول نوعاً نادراً من المنشطات، ودهش من نفسه كما لو أن كل نسيج في جسده قد فوجئ بالمتعة، كما تهمهم كل شجرة في الغابة عند الفجر بصرخات مدهشة من الفرح.

عندما عادت هيلينا، جلست قبالته لكي تراه، كان مظهر المتعة الساذجة على وجهه محبباً لها، وكانت عيناه زرقاوين عميقتين تظهر أوردتهما مثل وردة ذات عروق بنفسجية عند الشفق. وبطريقةٍ ما؛ غامضة، كانت المتعة ترتجف على ما يبدو في البؤبؤ. تأملته هيلينا، خصلة فخصلة، لقد أحبت جبينه الواسع وشعره الأسود الغزير وفمه الممتلئ وذقنه. أحبت يديه اللتين كانتا صغيرتين ولكنهما قويتان مشدودتا العصب جداً، وأحبت صدره الذي كان يتنفس بهدوء وقوة، وذراعيه وفخذيه وركبتيه.

كانت هيلينا، بالنسبة إليه، وجوداً. فقد كانت كامنة ومنصهرة

في هالة حبه. رأى فقط أنها كانت بيضاء وقوية ومثمرة على نحو مكتمل، وكان يدرك أن عينيها الزرقاوين ترعبانه.

في الخارج، كان ضباب البحر يسافر ويزداد سمكه باتجاه اليابسة. ولم يكن مسكنهما بعيداً عن الخليج. وعندما جلسا لشرب الشاي، اتسعت عينا سيغموند ونظر مقطباً إليها، وسألها بعدم ارتياح:

«ما الأمر؟».

رفعت هيلينا رأسها ونظرت إليه بينما كانت تسكب الشاي. لقد سرتها نظرته الصغيرة المتلهفة الدالة على الكآبة.

«أتعني الضوضاء؟ إنها مجرد إنذار لتحذير السفن من الضباب يا عزيزي وليس غضب واتن أو تنين سيغفريد ...(*)».

كان الضباب أبيض في الخارج بينما جلسا ينتظران. وبعد بضع ثوانٍ جاء الصوت خفيضاً متضخماً كعواء حيوان بحري كبير وحيد، آخر الوحوش! أطلق الضباب الصوت كله ثانية أو اثنتين، ثم تلاشى في الصمت الكثيف. ونظر سيغموند وهيلينا إلى بعضيهما. كانت عيناه ممتلئتين بالقلق، ولقد أراحها أن ترى رجلاً قوياً وكبيراً متلهف العينين مثل طفلٍ بسبب صوت غريب، ولكنه كان متعباً، فضحكت قائلة:

«أؤكد لك أنه إنذار الضباب فقط!».

«بالطبع، ولكنه نوع كئيب من الأصوات».

وردت بفضول:

«هل هو كذلك؟ لماذا؟ ولكن بلى. اعتقد أني أستطيع أن أتخيل

(*) شخصيتان من إحدى أوبرات فاغنر.

أنه كذلك بالنسبة لبعض الناس، إنه مثل صوت تحذير إلى تريستان عبر البحر».

ودندنت بهدوء، ثم أعادت صوت الإنذار ثلاث مرات، بينما جلس سيغموند بوجهه الجامد مثل قناع يحملق في الضباب. هدرت صفارة الإنذار مرة أخرى، وكان الصوت بالنسبة إليه منذراً بالمصائب. انتظرت هيلينا اختفاء الضوضاء وعادت للغناء مرة أخرى، ثم قالت مبتهجة على نحوٍ ملفتٍ للنظر:

«ومع ذلك فإنه يشبه كثيراً صوت إنذار الضباب».

فقال لها:

«ماذا سيحدث في مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم يا هيلينا؟».

وفجأة بدت مهمومة، وتمطت لكي تمسك بيده التي كانت تستقر على المائدة، وقالت:

«سأنادي عليك من كورنويل».

لم يجبها. ولم تكن تفهم قصده في الغالب، ولكنها تركته وحيداً بإحساسه بالمأساة، فلم تكن لديها فكرة عن الكيفية التي انتُزعت فيها حياته من جذورها، وعندما حاول إخبارها أحبطت مسعاه، تاركة إياه هادئاً وحيداً من الداخل، وأعلنت بفرح عظيم:

«لن يكون هناك أسبوع قادم، بل الحاضر فقط».

وفي الوقت نفسه نهضت واقتربت منه شابكة ذراعها حول عنقه، ثم ضمت رأسه إلى صدرها، وابتدأت تضغطه إليها، وتسللت يدها خلال شعره، فانضغطت مناخره وفمه على صدرها، واستنشق حرير ثوبها، فاستغرق في رائحة جسدها المخدرة وعيناه مغلقتان. أقنع نفسه، بأنها عمياء في حبه، ولكن نفسه الأخرى دفعته بفرح، فبغض النظر عن كونها عمياء، غير أنها

ضغطت وجهها على رأسه، ومسدت وجعدت شعره وضغطت رأسه على صدرها، كما لو أنها لن تحرره مرة أخرى، ثم انحنت لتقبل جبينه فأخذها بين ذراعيه، وبقيا كذلك لفترة من الزمن. أراد أن يخفي نفسه معها، أن يفجر كل ماضيه ومستقبله في نوع من العاطفة الذي يستحق سنين الحياة كلها.

بعد الشاي، استرخيا قرب النار، وابتدأت تقص عليه كل الأشياء المسرة التي صادفتها. كان عندها حب نسوي فضولي للتفاصيل، حب المرأة الغريب لبعض التفاصيل الدقيقة، وأصغى إليها مبتسماً منتعشاً بفرحها ناسياً نفسه. لقد أراحته مثل شروق شمس وملأته بالمتعة، ولكنه نادراً ما كان يصغي إليها، ثم ختمت قولها:

«هل نخرج أم أنك تعب جداً؟ لا، إنك تعب، تعبٌ جداً»، ثم وقفت قرب الكرسي تنظر بحنانٍ إليه.

علا الإشراق وجهه وأجابها مبتسماً:

«لا» وأردف وهو يمط أطرافه الوسيمة في ارتياح «لا، لست تعباً على الإطلاق».

استمرت هيلينا بمراقبته بنوعٍ من الحنان الهادئ الخفي، ولكنها ذبلت أمام النظرة المتسائلة البراقة لعينيه، وقالت وهي تشيح بوجهها، مجعدة شعره الأسود الناعم:

«يجب أن تذهب إلى الفراش مبكراً الليلة».

تمدد قليلاً، مصالباً ذراعيه وابتسم لها من دون أن يجيب. لقد كانت متعة حميمة أن يكون معها وتحت تصرفها.

نهض وهو يدعوها أن تلف نفسها لتتقي الضباب، فكررت السؤال:

«هل أنت متأكد أنك لست تعباً؟».

في الخارج كان ضباب البحر أبيض يشبه الصوف. خرجا يداً بيد، وإذ كان الجو بارداً فقد دفعت يدها ويده في جيب معطفه بينما كان يتمشيان معاً، وقال لها وهو يضغط يدها في جيبه:

«أنا أحب الضباب».

فأجابت منكمشة مقتربة منه:

«أنا لا اكرهه».

«إنه يغلفنا لوحدنا معاً».

تهادت في السير حانية الرأس صامتة، ولم يشغله صمتها بل أضاف قائلاً:

«لن نحصل على شيء أفضل من هذا الضباب!»، فضحكت بفضول وبصوت ممتلئ بالدموع تقريباً.

«لماذا؟»، سألت بمزيج من الرقة والمرارة.

«ليس لدي من شيء آخر سواك، كما أنه ليس هناك شيء آخر عندك غيري! أنظري!».

كانا واقفين على التلال لوحدهما، بحيث أن هيلينا وجدت نفسها لوحدها تماماً مع الرجل في عالم من الضباب. وفجأة اندفعت مجهشة بالبكاء على صدره، فضمها بحنان غير عارف سبب كل هذا. ولكنه كان سعيداً ولم يكن خائفاً.

في مكان ما أجوف، بدأت صفارة الإنذار تجأر بصوتٍ عالٍ في أذنيهما. ما أحس سيغموند وهيلينا بأن عاطفتهما ابتدأت تشتد، فحاولا تغيير الموضوع، وسألته هيلينا:

«ما طبقة نغم صوت الإنذار؟».

فأجابها سيغموند:

«أتعنين عندما تكون أفقية؟ إنها تتسلق السلم الموسيقي الملون».

«نعم، ولكن أقصد الطبقة المستقرة، هل هي حول طبقة (إي)(*)؟».

«(إي)» هتف سيغموند وأضاف: «إنها أقرب إلى (اف)(**)».

وردت هيلينا:

«لا. اصغ».

لبثا صامتين منتظرين حتى جاء صوت إنذار الضباب الطويل، فهتف سيغموند محاكياً نغمة الصوت:

«اسمعي. هذا ليس من طبقة (إي) وأعاد الصوت مرة أخرى إنه من طبقة (اف)»

فأصرت هيلينا:

«إنه (إي) بالتأكيد».

ورافق سيغموند الصوت مدندناً اللحن:

«بل (اف) حاد».

ضحكت وطلبت منه أن يصعد في السلم الموسيقي فقال لها:

«ولكنك توافقين؟».

فأجابته:

«أنا لا أوافق».

كان الضباب بارداً وكأنه يسلبهما شجاعتهما في الحديث. وبذلت هيلينا جهداً كي تسأله:

(*) النوطة الثالثة من السلم الدياتونيكي من السي ميجور.
(**) النوطة الرابعة من السلم الدياتونيكي من السي ميجور.

«ما هي طبقة النغم في موسيقى تريستان؟».

فأجابها:

«إنها أمر مختلف».

«نعم يا عزيزي، إنها ليست الشيء نفسه».

أجابت بنبرة مطمئنة واطئة، وجفل من ملاطفتها، فوضعت ذراعها حوله، وحاولت الوصول إلى وجهه، وهي تتوق لقبلة، ونسي أنهما واقفان في ممرٍ عام وفي وضح النهار حتى سحبت نفسها عنه بسرعة عندما سمعت أصوات أقدام في الضباب.

عندما تسلقا الممر، ابتدأ الضباب بالانقشاع متحولاً إلى ضباب رمادي رقيق عند القمة. كانت هناك حافة معشوشبة من الأرض، والسماء صافية فوق رأسيهما، وتحتهما يهمهم البحر بصوت أجش لنفسه.

سحبته هيلينا قليلاً من حافة الجرف، واعتصر يدها وسحبها قليلاً إلى الخلف، ولكن سرَّها أن تشعر بقبضته وهي تشتد على يدها. وقفا على الحافة مباشرة لكي يشاهدا منحدر الجرف الناعم وهو يتلاشى في الضباب، حيث كان البحر تحته يضطرب مصدراً ضوضاء محببة. وقال سيغموند وهو يحدق في الأسفل.

«هل سنستمر في المشي؟».

توقف قلب هيلينا لحظة عندما مرت الفكرة ببالها، وابتدأ قلبها ينبض مهموماً. كيف يستطيع أن يمزح بفكرة الموت والأيام الخمسة العظيمة مازالت أمامهما. ثم تلبسها الذعر منه في تلك اللحظة وتوسلت إليه قائلة:

«ابتعد عن الجرف يا عزيزي».

لو حدث شيء عندها لن يكمل معها الأيام القليلة المتبقية،

وأحست بالمرارة بسبب تفكيرها بهذه الطريقة، وأعادت القول وهي تسحبه ببطء إلى الممر:

«ابتعد يا عزيزي».

«هل أنت خائفة؟».

«لا...» وكان لصوتها تلك النوعية المزمارية الخشنة التي جعلته يرتجف، ورد عليها بطريقة هجائية:

«إنه لمخرج سهل...» لكنها لم تفهم قصده ووبخته قائلة:

«وأمامنا خمسة أيام ملكنا الخالص يا سيغموند».

«الضباب هو نهر النسيان، وسيكفينا هذا لو استمر خمسة أيام».

ثم ضحك وأخذها بين ذراعيه وقبلها وهو مشدود إليها، وتمشيا معاً ممتلئين سعادةً وهما يغلقان خلفهما أبواب النسيان.

عندما غربت الشمس، تبدد الضباب قليلاً ورحلت كتل ممزقة منه محلقةً من جرف لآخر. وفي الأفق، وراء الجرف، كانت السماء تمتد مذهبةً. تجول العاشقان على غير هدى فوق ملاعب الغولف، حيث ألمحت المروج الخضر والمنحدرات المعشوشبة لهيلينا أنها تعبة وتريد الجلوس. جلسا قبالة الفجوات المضيئة في الغرب، حيث كانت الشمس، خلف ستائر الضباب الذهبية الممزقة المعتمة، تغادر بأبهةٍ.

جلس سيغموند ساكناً تماماً يراقب غروب الشمس. كان الغروب يشبه موسيقى زفاف رائعة ملتهبة تقترب من هيلينا. وتساءل عن الكيفية التي يستطيع أن يعبّر بها عن ذلك، وعن الطريقة التي تحمّل بها رجال آخرون مثل هذا الجلال. وفجأة سألها:

«ما موسيقى الغروب؟».

نظرت إليه، كانت رموش عينيه نصف مغلقة، وفمه مفتوحاً قليلاً، كما لو أنه في حالةٍ من الانفعال العاطفي الساحر.

«أية موسيقى يا عزيزي؟».

«ما هي برأيك أفضل موسيقى تعبر عن غروب الشمس؟».

كان جلده ذهبياً، ومزاجه الحقيقي عاطفياً جداً، ولقد بجلته للحظةٍ، وردت بهدوء:

«لا أعرف». ثم أسندت رأسها على كتفه وهي تنظر صوب الغرب. كانت ثمة مساحة من الصمت بينهما، وكان سيغموند يحلم، ثم ابتدأ يشرح لها.

«سيمفونية بتهوفن ـ تلك التي...».

لم تكن مقتنعة ولكنها اتكأت عليه، جاعلة إياه خيارها. وتسمر الغروب ثابتاً، فقد كان من الصعب عليها أن تعي أي تغيّرٍ، ثم قررت:

«موسيقى الكأس المقدسة في لوهنغرن».

ورد سيغموند موافقاً:

«نعم»، ولقد وجد ذلك شيئاً مختلفاً، ولكنه لم يزعج نفسه بجدالها، لقد حلم لوحده ولم يسرّها هذا. لقد أرادته لها، فكيف يمكن أن يتركها وحيدة ويراقب السماء؟ وكادت أن تضع يدها فوق عينيه تقريباً.

الفصل الرابع

مرت قافلة الغروب الذهبية مسرعة، وأنزلت ستائر الضباب الممزقة، وسرعان ما أحيط سيغموند وهيلينا وحدهما بالضباب الممتد الكثيف. ارتجفت من البرد والرطوبة، فأخذها بين ذراعيه حيث اضطجعت ملتصقة به، وأمسك بها عن قرب ثم انحنى إلى الأمام، إلى شفتيها مباشرة. كان شاربه مبللاً بالبرد والضباب، بحيث أنها ارتجفت قليلاً عندما قبلها، ثم ارتجفت مرة ثانية، ولم يعرف سبب الرعشة القوية التي مرت خلالها، إذ ظن أنها من الخوف والبرد، ففتح معطفه وسحبها قريباً من صدره، وغطاها بأفضل ما يستطيع. أحست في تلك اللحظة بأنها موزعة بين المتعة والخجل. ثم وضع وجهه على كتفها، وأمسكها قريباً جداً منه حتى أصبح وجهه حاراً فدفنه فوق حنجرتها القوية الناعمة، فهمست بحزن وقد أمسكت أنفاسها من الخوف:

«إنك كبير جداً إلى حد أني لا أستطيع الإمساك بك».

ثم مدت يديها الصغيرتين على عرض كتفيه من دون جدوى، فهمهم قائلاً:

«ستبردين، ضعي يديك تحت معطفي».

وضعها داخل معطفه وسترته، فالتصقت بصدره الدافئ بانغماس عنيف من المتعة والخوف، وحاولت أن تشبك يديها في دفء كتفيه، وأرادت أن تحضنه، ولكنها قالت:

«انظر، لا أستطيع ذلك».

ضحك قليلاً وسحبها قريباً منه، فدست رأسها في صدره، مخفية وجهها، مخلوعة الفؤاد ودفعت يديها في جانبيه وهي تضغطهما بنعومة لكي تحدد خطوط جسده، وبرقة زحفت يدها تحت سترته الحريرية، وكلما تحركت، كان دمه يتأجج بالنار أكثر فأكثر حتى أصبح كل سيغموند دماً حاراً، وتحول صدره إلى كتلة هائلة واحدة من الشوق.

شدها إليه واعتصرها فوق الشوق المتأجج في صدره، وأصبحت عضلاته متصلبة قاسية. وفي تلك اللحظة، أصبح جسداً من اللحم المشدود المفعم بالحيوية من دون عقل. وكان دمه واعياً حياً ينثال باتجاهها. بقي ساكناً تماماً مقفلاً حول هيلينا واعياً بها غير شاعر بأي شيء آخر.

كانت متألمة ومنسحقة ولكنه كان ألماً لذيذاً. كان أمراً رائعاً أن تشعر بقوته، وأن تحتفظ بتلك القبضة التي تشبه الفولاذ على جسدها. ولقد أغمي عليها في نوع من السعادة الكثيفة.

وفي النهاية، وجدت نفسها وقد تحررت منه، فأخذت نفساً عميقاً، بينما كان سيغموند يحرك شفتيه فوق حنجرتها ويستنشقها مثل كلب ولكن بشفتيه. قفز قلبها في ردة فعل مفاجئة، فقد أدهشها شاربه بشكل غريب. كانت شفتاه تمسحها وتضغط حنجرتها تحت الأذن، وأنفاسه الدافئة تهب بإيقاع عليها، فتركت جسدها يتذبذب بأكمله مثل كمان تحت القوس. ولقد أثيرت تحت فمه، وارتجفت من شاربه، وكان قلبها مثل النار في صدرها.

وفجأة، تمطت إلى أبعد حد بجنون صوبه، وأرجعت رأسها إلى الخلف، ثم وضعت شفتيها على شفتيه، متقاربتين، حتى بدا في النهاية، وكأنهما ذابا واتحدا معاً. لقد كانت القبلة الأطول

والأسمى، عندما يتحول الرجل والمرأة إلى كائن مفرد، اثنان في ـ واحد. الخنثى الوحيدة!

حين سحبت هيلينا شفتيها كانت قد استهلكت تماماً، فهي من نمط تلك المجموعة من النساء الحالمات اللواتي يستنفد الحب عندهن نفسه في الفم. لقد اكتملت رغبتها في قبلة حقيقية. أما النار، بلهيبها الثقيل، فقد انصبت من خلالها إلى سيغموند ومن سيغموند إليها. لقد همدت وأحست بنفسها تذوي، إذ ليس لديها تألق الرجل ولا حيوية دمه. اضطجعت فوق صدره، تحلم كم هو جميل أن تنام، أن تفقد وعيها هناك على ذلك السرير النادر. اضطجعت ساكنة على صدر سيغموند تصغي إلى قلبه الذي كان ينبض مهموماً.

كان الحلم لديها دائماً أكبر من الواقع. وكان حلمها بسيغموند أكبر من سيغموند نفسه، وقد يكون أقل من حلمها، وربما هو كذلك، ولكنها مع ذلك، كانت قاسية كامرأة، بالنسبة لأي رجل حقيقي.

سحبها قريباً منه، كان حلمه ذائباً في دمه، ودمه يركض متألقاً إليها، كانت أحلامه أزهار دمه، أما أحلامها، فقد كانت أكثر انفصالاً ولا إنسانية. ولقرون، كان هناك نمط معين من النساء، ممن يرفضن الحيوان في الإنسانية. وحتى الآن، بقيت أحلامها مثالية، مليئة بالخيال، ودمها يجري وقد كبلته العبودية، ورقتها مليئة بالقسوة.

اضطجعت هيلينا ضعيفة واهنة فوق صدر سيغموند فسحبها بالقرب منه، وكان فمه ونَفَسه دافئين على رقبتها، لكنها خمدت وغدت سلبية بعيدة عن ملاطفته، وانسحبت منه برقة. بدا حساساً جداً على نحو لا يفوته ذلك، وكان الأمر أكثر مما يطاق بالنسبة

لرجل لا تستجيب له امرأة، وغاص قلبه وتكدر دمه، وبقي ممسكاً بها. بقي الاثنان ساكنين صامتين بعض الوقت.

أحست على نحوٍ مؤلم أن قدمها التي كانت تغوص في العشب النديِ ابتدأت تؤلمها من البرد فقالت له برقة ونبل ـ كما لو أنه كان طفلاً ينبغي أن ترشده وتقوده:

«أعتقد أننا يجب أن نعود إلى البيت يا سيغموند».

أصدر صوتاً صغيراً قد يعني أي شيء، ولكنه لم يتحرك ولم يحررها، وبقي فمه حيثما كان، ساكناً على حنجرتها واستمر يلاطفها، وقالت له بإصرار:

«الجو بارد ورطب يا عزيزي ويجب أن نعود».

فرد بجفاف:

«حالاً».

انتظرت لحظة، ثم قالت بنبرة رقيقة جداً، كما لو أنها مشمئزة من سلبه متعته:

«سيغموند، الجو بارد».

كانت هناك نبرة توبيخ في كلامها أثارت غضبه فهتف بها:

«بارد؟ ولكنك دافئة معي».

«ولكن قدمي المكشوفتين على العشب يا حبيبي، إنهما مثل الحصى البليل».

فقال لها:

«أوه يا حبيبتي، لماذا لا تعطينهما لي لكي أبعث فيهما الدفء؟».

ثم انحنى إلى الأمام ووضع يده على حذائها قائلاً:

«إنهما باردتان جداً، يجب أن نسرع وندفئهما».

عندما نهضت، كانت قدمها خدرة بحيث لم يعد بوسعها الوقوف، فالتصقت بسيغموند ضاحكة، وقال لها:

«كنت أتمنى لو أنك أخبرتني من قبل، كان المفروض أن أعرف».

وضع ذراعه حولها، مغتاظاً من نفسه، وعادا إلى البيت معاً.

الفصل الخامس

وجدا النار متقدة متلألئة في غرفتهما. كان الشخص الوحيد الآخر في بيتها الصغير الجميل المؤثث إلى حد الاختناق، صاحبة المسكن، التي كانت عجوزاً لطيفة أجّرت لهما غرفة المعيشة هذه للتغيير واكتساب زوار جدد أكثر من رغبتها في الربح.

قدمت هيلينا سيغموند قائلة: «إنه صديقي». وابتسمت له السيدة العجوز، فقد كان ضخماً ووسيماً ومحرجاً. وتذكرت السيدة أن لها ابناً منذ عدة سنوات... وكان الاثنان عاشقين، وتمنت لو يعودا إلى بيتها لقضاء شهر عسلهما.

جلس سيغموند على الكرسي الكبير المنسوج من شعر الحصان قرب النار، بينما قامت هيلينا بتحضير المصباح، وهي تنظر إليه من فوق الزجاجة المتوهجة، وجدته وهو يرقبها بابتسامة صغيرة غريبة هي مزيج من التهكم والغضب والحيرة. لقد غدا وكأنه قد تغير تماماً، لذلك ارتجفت يدها، وبات من الصعب عليها أن تنظم الفتيلة.

غادرت هيلينا الغرفة كي تغير ثوبها قائلة:

«سأعود قبل أن تجلب السيدة كيرتس صينية العشاء. هناك كتاب عن نيتشه جلبته...».

لم يجبها بل اكتفى بمراقبتها وهي تغادر. وعندما أصبح وحده، جلس وذراعاه على ركبته ساكناً تماماً. كان قلبه ينبض

مهموماً، وأحس بكل كيانه متجهماً متحفزاً، مروعاً مثل حيوان سجين. وانهمرت الأفكار في ذهنه مثل الفقاعات تتذبذب جزافاً من دون هدف. وفي لهيب دمه المروع، سرت الحرارة في عروقه وابتسم لنفسه.

عندما دخلت هيلينا الغرفة، صوب إليها عينيه برشاقة، كما يشعل الشرر الصوفان، ولكن عينيها كانتا رطبتين بالحنان، فتغيرت نظرته في الحال، ودهشت لكونه صامتاً وغريباً. اقتربت منه بطريقتها النسوية المباشرة. كانت في السادسة والعشرين قياساً إلى سنّيه الثماني والثلاثين. وقفت أمامه، ممسكة بكلتا يديه، تنظر إليه بحنان كئيب. كانت ترتدي ثوباً أبيض، كشف حنجرتها التي تشبه نافورة من الزبد يتوازن عليها رأسها. وكان باستطاعته رؤية الذراع الممتلئ الأبيض يمر صافياً خلال زبد الثوب المعطر باتجاه مرتفع نهديها، ولكن عينيها انحنتا عليه بنظرة حنون، بحيث لم يعد يجرؤ على إظهار الهوى الذي يتحرق في داخله. لم يستطع أن ينظر إليها، فحاول بأسى أن يكون حزيناً ومتحفظاً معها ولكنه لم يستطع أن يكشف عن ناره. أمسكت بكلتا يديه بقوة، ضاغطة إياهما في التماس من أجل حلم حبها، فنظر إليها بأسى، ثم استدار، فانتظرته إذ أرادت ملاطفته وحنانه غير أنه لم يعرها التفاتاً فسألته:

«هل تريد العشاء الآن يا عزيزي؟» وكانت تنظر إلى حيث ينتهي الشعر الغامق وتتصل رقبته الناعمة، تحت ياقته، حيث تلتقي بمحيط كتفيه القويين.

انتظرت واقفة، ولكنه مع ذلك لم يلتفت إليها. اعتقدت أن هناك شيئاً ما يزعجه فقد كان غريباً بالنسبة إليها، وقالت في نبرة عميقة مستسلمة:

«سأنشر الغسيل إذن».

ضغطت يديه بقوة وتركتهما تسقطان، ولكنه لم يُلقِ بالاً بل بقي ساكناً وذراعاه على ركبتيه وهو يحملق في النار.

في التألق الذهبي لضوء المصباح، رتبت أوان صغيرة من ورود الجلبان الأبيض والأرجواني والبليحاء العطرية على المائدة المدورة. راقبها وهي تتحرك، ورأى اهتزاز كتفيها البيضاوين المنحدرين تحت ثوبها وتجويفهما الصلب كالرخام وارتفاع حقويها ثم انحدارهما وهي تمشي. وأحس كما لو أن صدره يحترق. لقد سبب ذلك ألماً جسدياً له.

كان العشاء هادئاً جداً، وظلت هيلينا صامتة حزينة. كانت هناك نظرة مبهمة غريبة في عينيه هي مزيج من المعاناة والتهكم والحب. لقد كان عنيداً ولكنه لم يتساهل معها، بل بقي هناك متحفظاً، وكان تعباً أيضاً، وبدت مظاهر المعاناة والتعب واضحة من خلال غرابة تصرفه وقد بكت في قلبها.

في النهاية قرعت الجرس كي يرفع العشاء. وأثناء ذلك عزفت، وهي قلقة، قطعة من فاغنر على البيانو، وسألتها صاحبة المنزل العجوز:

«هل تريدين أي شيء آخر؟».

فردت هيلينا مقررة:

«لا شيء على الإطلاق. شكراً لك».

«إذن سآوي إلى الفراش بعد أن أغسل الأطباق. هل ستطفئين المصباح يا عزيزتي».

فابتسمت لها هيلينا قائلة:

«أنا معتادة على المصباح، فنحن نستعمله في البيت دائماً».

كان أمامها يوم واحد لا غير قبل وصول سيغموند لكي تكسب

خلاله ثقة السيدة كيرتس، ولقد نجحت في ذلك، وعندما رفعت العجوز الصينية قالت لهما:

«ليلة سعيدة يا عزيزتي، ليلة سعيدة يا سيدي. سأترككما الآن. هل ستبقيان فترة طويلة يا عزيزتي؟».

«لا، لن نبقى فترة طويلة، إن السيد ماكنير تعب جداً كما هو واضح».

«نعم، نعم، إنها مُتعِبة جداً، لندن هذه».

عندما أغلق الباب وقفت هيلينا للحظة حائرة تنظر إلى سيغموند. كان يضطجع في الكرسي بطريقة كئيبة وهو يراقب النار. وعندما حدقت إليه بعينين حزينتين حدث أن نظر إليها بتلك العينين الخائبتين الغامقتين الباحثتين بفضول، فسألته بمرارة:

«هل اقرأ لك؟».

أجابها:

«إذا رغبت».

بدا غير مهتم، ومنعت نفسها بالكاد من البكاء. ذهبت ووقفت أمامه، ونظرت إليه مثقلة بالهم وسألته:

«ما الأمر يا عزيزي؟».

أجابها بتكشيرة صغيرة:

«أنت».

«لماذا أنا؟».

ابتسم لها بسخرية ثم أغلق عينيه. انزلقت بين ذراعيه بمواء خفيض، فأجلسها على ركبته، حيث تكومت كقطة بيضاء ثقيلة، فتركته يلاطفها بفمه، ولم تتحرك بل اضطجعت جاثمة وهادئة ودافئة على نحو غريب.

قبّل شعرها الذي كان معطراً بطبيعته. ومرة بعد أخرى، كان يسحب بين شفتيه خصلة رائعة طويلة، كما لو أنه ينسل بفمه اضطراب شعرها الحي. كان جيشان هواه كلهيب ناعم يلحسها بشهوانية.

بعد فترة سمعا صوت خطوات المرأة العجوز تصعد. سكنت هيلينا، وبدت كما لو أنها تتقلص، كما تردد سيغموند في مطارحتها الغرام. كان كل شيء هادئاً جداً، وبإمكانهما سماع تنفس البحر الواهن، ومن ثم، نهضت القطة التي كانت تنام على أحد الكراسي واتجهت صوب الباب، فقال سيغموند:

«هل أخرجها؟».

فقالت هيلينا وهي تنزلق من على ركبته:

«افعل».

«إنها تخرج عندما تكون الليالي جميلة».

نهض سيغموند كي يحرر القطة «لعتابي» وعند سماعها صوت الباب وهو يفتح، صاحت السيدة كيرتس من الطابق العلوي:

«أهذه أنت يا عزيزتي؟».

فرد سيغموند:

«لقد أخرجت كيتي الآن».

«آه، شكراً لك. ليلة سعيدة!».

سمع السيدة العجوز تغلق باب غرفة نومها، وكانت هيلينا تجثم أمام الموقد، فأغلق سيغموند الباب بهدوء، ثم انتظر للحظة راح قلبه ينبض بسرعة، وسألها بشكل عابر:

«هل نجلس قرب النار؟».

أجابت ببطء شديد، كما لو أن الأمر ضد إرادتها:

«نعم، إذا أردت».

أنزل فتيلة المصباح بهدوء ثم أطفأ النور، وكان جسده كله يجيش ويحترق بالرغبة.

أصبحت الغرفة ذات لون أحمر وأسود بسبب انعكاس ضوء النار، واصطبغت هيلينا بلون أحمر، وهي تجثو جسداً، منحنياً، متألقاً، مليئاً باللهب، وبين فترة وأخرى، تقفز أشرطة حمراء من ضوء النار على الجدران، وخرج سيغموند، ووجهه متورد، من الظلال.

جلس على الكرسي إلى جانبها، منحنياً إلى الأمام، ويداه متدليتان مثل وردتين قرمزيتين كسولتين في توهج النار. بينما هي تركع قرب الموقد، ورأسها منحن إلى الأمام استيقظت إحدى الأزهار، وامتدت نحوها، وسألت عنها. كانت مفتونة غير قادرة على الحركة، فناشدها بهمس:

«تعالي».

التفتت إليه، رفعت يديها نحوه، وسقط ثوبها إلى الخلف، فتألقت ذراعاها العاريتان حد الكتفين بلون وردي. ورأى نهديها يرتفعان نحوه، ووجهها منحن بين ذراعيها، بينما كانت تنظر إليه خائفة، مضاءة بوهج النار في ثوبها الملتصق الأبيض متكوراً بين ذراعيها المرفوعتين. بدت وكأنها تعرض نفسها عليه للتضحية.

وخلال لحظة، كان يجثو في حين كانت تضطجع على كتفيه مهجورة. لقد كان هنالك مقدار كبير من الأسى يسكن متعته.

كانت الساعة الحادية عشرة عندما تحررت هيلينا من ذراعي سيغموند ونهضت عن الكرسي حيث تضطجع إلى جانبه. لقد كانت محمومة وقلقة جداً وتشعر بحر شديد، إذ استقر ساكناً مدة نصف

ساعة، وذراعاه الثقيلتان تلتفان حولها مما جعلها ساخنة. ولو لم تر عينيه الزرقاوين الغامقتين لاعتقدت أنه كان نائماً. ربتت بقلق على صدره، وقالت له كي تجعله يتكلم:

«هل أنا مضطربة؟».

فابتسم لها بلطف وقال:

«إن من الرائع أن يكون المرء ساكناً على هذه الحال».

اضطجعت معه هادئة بضع لحظات. كان ثمة شيء مقدس في سكونه وسلامه بالنسبة لها. دهشت منه، فهو مختلف الآن عما كان عليه قبل ساعة مضت. كيف يمكن أن يكون نفسه؟ إنه الآن مثل البحر، أزرق وغائم في الصباح ومستغرق مع نفسه. أما من قبل فقد كان محرقاً وبركانياً كما لو أنه سيدمرها.

لقد منحته هذا الجمال الجديد الناعم، وكانت تمثل الأرض التي نمت فيها أزهاره الغريبة. وهي نفسها دهشت من الأزهار التي أنبتتها. لقد كان غريباً عليها، مختلفاً تماماً عنها. ما هو الشيء الآخر الذي سيطلبه منها. أي برعم جديد ستربيه فيها يبدو وكأنه يزهر وينمو على نحو لاإرادي، وما هي إلا مجرد تربة ساعدت في إنتاجه.

لم تستطع هيلينا أن تبقى ساكنة. كان جسدها ممتلئاً بأحاسيس غريبة وبارتدادات لا إرادية نتجت عن الصدمة. لقد كانت تعبة ولكنها قلقة. وطوال الوقت الذي كان فيه سيغموند مضطجعاً وذراعه الحارة من حولها، بعينيه الزرقاوين المبهمتين المفتوحتين، ابتدأت أنفاسها تتقطع ولم تعد تطيق نفسها.

في النهاية، رفعت ذراعها وسحبت نفسها خارجة من الكرسي. نظر إليها سيغموند وهو ساكن. رفعت الشعر الرطب من على

جبهتها وتنفست بعمق. كانت تلهث تقريباً، ومن ثم، نظرت سارحة إلى وجهها المتوهج في المرآة. استدارت بفعل التصور نفسه من أجل أن تنظر إلى الليل، نادى عليها اليم المائي المظلم، فدفعت الستائر جانباً.

راح القمر يخوض بلذة عبر السحابة البيضاء. وخلف الأشجار والبيوت القليلة يقبع الظلام الهائل والبحر وضوء القمر. لقد كان القمر هناك ليضع يد الغفران الباردة على حاجبها. وسألته مشاكسة:

«هل نخرج للحظة يا سيغموند؟».

فأجابها:

«نعم إن أردت ذلك».

كلاهما كان راغباً في الخروج، وهو ممتلئ بلا مبالاة تستجيب لكل رغباتها.

خرجا بتؤدة، وتجولا بصمت صوب الخليج، ثم وقفا عند نهاية الطريق حيث يشرف القمر الحي الأبيض، ويهمس الماء عند نافذة الأرض بإغراء. قال سيغموند:

«إنها أجمل ليلة رأيتها».

وفجأة اغرورقت عينا هيلينا بالدموع بسبب بساطة فرحه وقالت له:

«أحب انعكاس القمر على الماء».

فأجابها ببساطة:

«يصعب علي تمييز أحدهما من الآخر». ثم أضاف:

«يبدو البحر وكأنه ينسكب من القمر ليتأرجح بين يدي

الشاطئ، كلاهما مثل عينيك ويديك وحديثك. لا يمكن فصل كل ذلك عنك».

وأجابته مبهورة:

«نعم». هذا هو سيغموند أحلامها، وقد خلقته، ومع ذلك، ما تزال تشعر بارتعاش من الألم. لقد كان أبعد منها الآن، وهو في غنى عنها.

«أشعر كأني في البيت هنا. كما لو أني عدت إلى البيت الذي ولدت فيه».

ضغطت يده بقوة ملتصقة به، فأضاف:

«إننا نسلك طريقاً طويلاً يا هيلينا لمجرد أننا على ما يرام». ثم ضحك بفرح وقال: «لقد تخيلت نفسي منبوذاً، كيف يمكن للمرء أن يكون منبوذاً في ليلته، والقمر عار من أجلنا، والسماء ترتدي أسمالها معظم الوقت، ما الذي نريد أكثر؟». لم تعرف هيلينا ذلك، كما أنها لم تفهم قصده، ولكنها أحست بنوع من الإيقاع في كلامه، واستمر قائلاً: «بغض النظر عما حصلت عليه أو عما لم أحصل عليه من الحاضر، فإن الظلام أم والقمر أخت أما النجوم فهي أطفال. في بعض الأحيان يكون البحر أخاً. وهم أسرة في بيت واحد، أترين؟».

فقالت بنعومة وقد أصغت إليه بكل جدية ونظرت إليه برثاء:

«وأنا يا سيغموند؟».

ورأى دموعها التي تشبه الفضة على وجهها العاجي المضاء بضوء القمر، ففاض صدره بالحنان وضحك، ثم انحنى ليقبلها قائلاً:

«أنت مفتاح القلعة».

ثم وضع وجهه على وجهها فأحس بلذع دموعها على خده، وقال بارتياح:

«كل ما قلته مبالغ فيه جداً ولكنه يناسب الليلة».

فأعلنت موافقة:

«ما قلته صحيح دائماً».

فرد عليها:

«إنه سرمدي قدر تعلق الأمر بهذه الليلة».

بقي، ورطوبة خدها تلذع خده، ينظر من تحت حاجبيه إلى حركة الماء الأبيض تحت القمر، بينما وقفا متعانقين معاً، يحملقان في قلب الظلام.

الفصل السادس

استيقظ سيغموند مشدوهاً في الصباح، وفكر مع نفسه عندما عرف مكانه، «إن الأمر يبدو مثل قصص الخيال، وانتقلت إلى حياة جديدة كي أميز حلمي! لعل القصص الخيالية صحيحة بعد كل شيء».

لقد نام بعمق شديد، بحيث أحس أنه قد تجدد على نحوٍ غريب. وانبعث بمتعة من ظلام النوم إلى شروق الشمس. مد يده باحثاً عن ساعته. كانت الساعة تقارب السابعة، وتألقت طراوة الليل المشبع بالنوم أمام عينيه، عندها ضحك ونسي الليل.

كان النبات المعرّش ينقر على الشباك كلما هبت ريح خفيفة تحت شروق الشمس. مد سيغموند يديه لفرح الصباح المنتشر. وكانت هيلينا في الغرفة الأخرى التي أبقتها محرمة لاستخدامها الخاص. كانت العصافير على النبات المعرّش تهز ظلال الأوراق في شروق الشمس، وهناك سحب تشبه قارباً بلون الحليب تتقدم بشجاعة عبر السماء البراقة، والبحر يوشك أن يبرعم بريقاً نبياً تحت شروق الشمس.

نهض سيغموند كي ينظر من حوله، وكانت الدنيا كذلك، والبيوت أيضاً مثل قطيع أبيض وأحمر وأسود تتجول في الخليج. وضباب شروق الشمس بينه وبينها. اتكأ بيديه على حافة الشباك ينظر من خارج النافذة، بعثر النسيم شعره، وهب على صدره عبر طية سترة منامته. ضحك وارتدى ملابسه بسرعة وخرج.

لم تكن هناك علامة على وجود هيلينا. ابتدأ يذرع المكان ويغني لنفسه، وهو يدير منشفته بإيقاع. قاده ممر صغير عبر حقل، وعلى طريق متعرج إلى الأسفل قرب الجرف الصخرية، كانت هنالك بعض الزوايا المحمية من الريح، والمدفّأة بشروق الشمس، والمعطرة برائحة نباتات صريمة الجدي(*) والزعتر. قطع أملوداً من صريمة الجدي ملوناً بلون القشطة والزبدة، وبلل العشب حذاءه البني وسرواله الصوفي. ومرة أخرى وضع النسيم الطري عطر البحر في شعره المكشوف. كان الجرف شبكة من الزهور من فوق وتحت، والريح تهب على الخشخاش النامي على الحافة مثل لهب أحمر، ونبات شيخ الربيع يحدق بفضول وهو ينظر نحو الأسفل، والهارو ذو الزهر الأبيض والبنفسجي الجميل في كل مكان.

وقف سيغموند في منعطف حيث كانت التربة تبرعم بليلك أشعث، وأشعة الشمس تتسرب من دون ريح. ورأى الخليج الأزرق ينثني على رأس الأرض البعيدة. وثمة بضعة طيور، بيض وصغيرة، تحلق في شكل دائري، ثم تغطس نحو حافة الماء المزبدة الضحلة، وهناك بعض السفن تبحر صامتة، وبضعة أنفار صغار سود أو بيض، عراة يتحركون تحت الطيور الدائرة. اختار مكاناً ليسبح فيه، حيث يغطي المد القادم حد المنتصف امتدادَ الرمل البراق الجميل المرصع بصخور تشبه مذبحاً مربعاً مجوفاً من القمة. رمى ملابسه على صخرة عالية، وأحس بالمتعة عندما شعر بأصابع الريح الناعمة الطرية وهي تدغدغه وتتجول بخوف فوق عريه. ركض ضاحكاً فوق رمال البحر، ثم خاض في البحر وهو يدفع رجليه بصخب خلال الماء الأخضر الثقيل.

اختار مكاناً بارداً فتقلص جسده، وللحظة وجد نفسه، والماء إلى مستوى حوضه، يراقب الانسلال الأفقي لباخرة خلال ترقرق

(*) صريمة الجدي: شجيرة أزهارها غنية بالرحيق.

الماء خائفة أن تغطس. ثم غطس ضاحكاً تحت الماء الأخضر الصافي.

كان سباحاً رديئاً. إذ كانت موجة مفاجئة تغمره في بعض الأحيان. فينهض لاهثاً، طارداً الماء من عينيه ومنخريه، وهو يعلو ويغطس مع اهتزاز الموج الذي يداعب صدره، ثم ينحني مرة أخرى كي يبدأ من جديد لعبته مع البحر. من الرائع أن تلهو، حتى إذا كنت في منتصف العمر، وإن البحر لشريك رائع.

أراد أن يحملق، وعيناه بمستوى الماء البراق، عبر البحر، وأن يلقى نظرة أخيرة على الجرف وهو يواجه الصباح. أحب أن يرى البواخر تقف على سطح البحر البراق والطيور وهي تهبط نحو الأسفل.

ولكن أثناء لعبه، انحرف نحو حافة صخرة، فاصطدم حوضه بينما هو يسبح، بنهاية صخرة غاطسة حادة. عبس من الألم، ومن القسوة المفاجئة للبحر، ثم لم يعد يفكر في الأمر بعد ذلك، وعكر الماء عندما شق طريقه عائداً إلى الماء الصافي حيث أكملَ مستغرقاً في لعبته.

عندما ركض خارجاً من الماء على الرمل الرائع، كان قلبه وعقله وجسده في حالة من الاضطراب، وبدأ يلهث مالئاً صدره بالهواء الذي كان له تألق البحر ومذاقه، وبينما كان يرتجف قليلاً، سره الوجيب العنيد لجسده، كما لو أن الطيور تصفق بأجنحتها فوقه. عرّض جسده للصباح، متوهجاً بانفعال البحر، استكانت الريح إليه، وتسرب شعاع الشمس على كتفيه مثل نفس دافئ. كان مسروراً بنفسه.

كانت الصخرة التي أمامه، مثله، بيضاء ورطبة، وفيها بركة صغيرة من الماء الصافي، وتحتوي على أصداف وزهرة شقائق واحدة، وفكر مع نفسه:

«ستختلق هيلينا الكثير من الخيالات عن هذه البركة الصغيرة».

وبينما كان يبتسم، رأى على نحو باهت جداً ظله منعكساً على الماء. جعله ذلك، على وعي بذاته، وهو ينظر إليه. ألقى نظرة على نفسه، على نضجه الأبيض الوسيم، وبينما كان ينظر، أحس بالانسياب الغادر للدم على فخذه، الذي ظهر على شكل شريط أحمر طويل. راقب سيغموند الدم وهو يسافر فوق الجلد البراق. لقد كان يلف نفسه أحمراللون حول ارتفاع ركبته.

«ذلك الأحمر الزاحف أنا، وهذا البياض الذي أفاخر به هو أنا أيضاً، كما أن شعري الأسود وعيناي الزرقاوان هما أنا. إنه لأمر غريب أن تكون شخصاً. ما الذي يجعلني نفسي بين كل هذه الأشياء».

أحس بالبرد، فمسح نفسه بسرعة، وحدّث نفسه متفاخراً:

«أنا في أفضل حالاتي، وفي قمة قوتي، المفروض أن تسعد بي، ولكنها لا تفعل ذلك. إنها ترفضني كما لو كنت قرداً من قردة البابون أتخفى تحت ملابسي».

ألقى نظرة على كل ملامح نضجه الوسيم، تسطح الصدر القوي، الأرداف الممتلئة التي تشبه مخلوقات فخورة بنفسها. وكان مشوهاً فقط بالجرح الدامي الطويل الذي تأسف على حدوثه بعمق وفكر مع نفسه:

«إذا كنت سأعطيها نفسي، فإني لا أريد ذلك العيب بي».

ومسح الدم من الجرح مهمهماً: «إنه لا شيء».

«إنها تفكر عشرة آلاف مرة في تلك البركة الصغيرة، وتلك القطعة القرنفلية من الشقائق وبعض الأعشاب البحرية الصفر أكثر

مني. ولكني وحق الله، أود أن أرى كتفيها وصدرها أكثر من أي شيء آخر على الأرض... فلماذا لا تحبني؟».

كان يفكر في ذلك بينما يرتدي ملابسه، وكان جسده هو الذي يفكر.

بعد أن بلل قدميه في بركة ماء دافئة عاد إلى البيت. كانت هيلينا في غرفة الطعام ترتب مزهرية من البنفسج. نظرت إليه مهمومة بينما كان يقف متوهجاً على العتبة. لقد جعلها تحس بالارتياح، فقد كان صبياً وسيماً ومرحاً، ذلك الذي التقته، وليس رجلاً غريباً ملحّاً. ابتسمت له بنبل حنون، وقالت له مبتسمة، وهي تنظر إلى شعره الأسود المشوش الرطب:

«هل استحممت؟».

جفلت من عينيه، ولكنه لم يكن شاعراً بالأمر، وقال لها:

«أنتِ لم تستحمي!» ثم انحنى كي يقبلها، فتنشقت رائحة الماء المالح في شعره، وأجابت:

«لا، سأستحم لاحقاً، ولكن ما هذا...»، وأمسكت المنشفة مترددة، ثم نظرت إليه بلهفة وقالت:

«إنه دم!».

فأجابها:

«لقد جرحت فخذي، لا شيء على الإطلاق».

«هل أنت متأكد؟ إن المنشفة تبدو في حالة سيئة».

فضحك قائلاً:

«إن المنشفة تثير المخاوف من دون داع».

نظرت إليه بقلق ثم استدارت قائلة:

«الإفطار جاهز».

«وأنا مستعد للإفطار، ولكن هل أجهز نفسي؟».

ألقت نظرة عليه، كان بدون ياقة، لذلك كانت حنجرته عارية فوق حافة قميصه الصوفي. وبشكل عام، لم يعجبها مظهره المهمل، إذ أنه لم يكن في أناقته المعتادة، فقالت ساخرة تقريباً:

«سوف لن أنزعج».

رمى المنشفة على الكرسي وهو يصفر، وسألته بحزن بينما كانت تراقبه وهو يأكل:

«كيف نمت؟».

فأجابها:

«مثل الموتى، متيبساً، وأنت؟».

«أوه، على ما يرام، شكراً لك».

كانت مستاءة تقريباً لأنه نام بهذا العمق بينما هي تتقلب في فراشها، وتردد اسمه في أرقها المعذب.

وقال بحماس:

«لم أنم بمثل هذا العمق منذ عدة سنوات».

ابتسمت هيلينا له بنبل، وطغى عليها جمال سحره المعافى الوسيم. أحبت حنجرته العارية، وقميصه الذي يدل على صدر الرجل تحته. كانت فَرِحة بشكل استثنائي لأنه كان مشرقاً بهذه الطريقة. وكان البنفسج الأسود، في حشده الصغير، يبدو وهو يغمز عيناً ذهبية لها.

بعد الإفطار، وبينما سيغموند يرتدي ملابسه، ذهبت إلى البحر. أمعنت النظر، بينما كانت تمر، بكل الأشياء الصغيرة الجميلة - بزهرة الشيخ الصفراء الوحشية وباللبلاب البنفسجي وبتلألؤ الأزهار والندى، وآثار القواقع وهي تجف تحت الشمس. كانت

جولتها تسكعاً طويلاً. وأحبت الفجوات بين الجرف أكثر من الفراغات، والوهم أكثر من الخيال.

لقد أرادت أن ترى الأشياء مثلما يسرها، من دون أي تصور إنساني مسبق. من النادر أن تعرف اسم زهرة، ولا تعي أية علاقات، أو تهتم مقدار ذرة بالتكيف أو التحسين. ولقد أفرحها أن أزهار البرسيم البنية الصغيرة تتدلى نحو الأسفل. ولم تعد تهتم أكثر، فقد ألبست كل شيء بالوهم. وفكرت مع نفسها:

«لم يتسع الوقت لأن يُفرّش شعر تلك الزهرة الصفراء ويُمشّط لها من قِبَل الجنيات قبل طلوع الفجر. إنها مشعثة الشعر». كما أن اللبلاب البنفسجي، بالنسبة لها هو وسيلة اتصال جنيات النهار بجنيات الليل، وضوء الشمس المتموج على البحر يمثل عذراوات نهر الراين وهن ينشرن شعورهن البراقة تحت الشمس. كان هذا هو الشكل المفضل لتفكيرها. إذ أن قيمة كل الأشياء عندها تكمن في الوهم الذي تخلقه حولها. ولم تكن تهتم بالناس، فهم بشكل عام، وضيعون وقبيحون وأغبياء.

اكتمل إحساسها بالرضا، وهي تنحني على حافة البحر الواطئة ناشرة أصابعها لكي تدفئها على الصخور، خالقة السحر من ذلك الصباح البسيط، ثم راقبت المطاردة الكسول للأمواج حول الصخور الصغيرة، وتجعد الماء الأزرق العميق حول الشعاب المظللة بالماء، وقالت لنفسها:

«هذا رائع جداً، إنه بارد ونظيف ونقي بشكل أبدي ولا يمكن إفساده بالتخمة». حاولت أن تغسل نفسها بالصباح الأبيض والأزرق كي تزيل عنها التلوث الناتج عن لهفة الليلة الماضية.

كان البحر يتسلى مع نفسه وهو منكب على لعبته الخاصة. كان تحفّظه واكتفاؤه النفسي هما جماله الأعم. إن البحر لا يأخذ ويعطي مثل الأرض والسماء، وليست له تجارة مع العالم، إنه

يستنفد هواه على نفسه، ولقد كانت هيلينا مثل البحر، مكتفية بنفسها وغير مهتمة بالباقي.

جاء سيغموند حاسر الرأس، وشعره الأسود يهفهف في الريح، وعيناه تتلألآن أكثر دفئاً من البحر - يشبه القنطريون العنبري، وأطرافه تتأرجح إلى الأمام والخلف مثل الماء. استندا معاً على الجدار، يدفئان أيديهم البيض الأربع على الصخرة الرمادية المقصورة، ويراقبان الماء وهو يتموج.

عندما أصبحت هيلينا بالقرب منه فقد سيغموند الإحساس بالألم والتوق لأي شيء معين، وهو ما كان يحسه دائماً في الأوقات الأخرى. كانت تبدو وكأنها تربطه بجمال الأشياء. كما لو أنها العصب الذي يستلم من خلاله الإحساس بالشمس والريح والبحر والقمر والظلام. جمال لم تشعر هي إطلاقاً أنه يتسرب إليه من خلالها وأن ذلك هو ما يخلق الحب.

لقد كان دائماً يستطيع التعاطف مع الأزهار الصغيرة الكئيبة والأشجار الوحيدة بين حشودها، وطيور البحر الحزينة المتوحشة. كان يميز في تلك الأشياء اللهفة العظيمة والشوق الموجّه نحو شيء ما، والذي يكون في العادة، مثقلاً به. ولكنه مع هيلينا، في ذلك الصباح البحري العظيم، كان مكتملاً وكلياً مثل النهار. وسألها عندما مرت غيمة فوقهما:

«هل سيستمر الجو رائعاً طوال النهار؟».

فأجابته بطريقتها المشدوهة الهادئة، كما لو أنها غير مهتمة على الإطلاق:

«لا أعرف. أعتقد أنه سيكون يوماً مختلطاً، سحب وشمس، ولكن الشمس أكثر من البرد».

نظرت إليه بحزن، كما لو ترى فيما إذا كان موافقاً، فاستدار

من تقطيبه في السحابة كي يبتسم لها. بدا متألقاً وممتلئاً بالحياة وقال:

«أحب السماء الزرقاء العارية، وشروق الشمس الذي يبدو وكأنك تحركه من حولك عندما تمشي».

ابتسمت له وقالت:

«الجو دافئ هنا حتى بالنسبة لك».

أجابها:

«آه، هنا». ثم وضع وجهه على الصخرة كي يستشعر توهجها، تاركاً أصابعه تزحف باتجاه أصابع هيلينا. ضحكت وأمسكت بأصابعه ضاغطة إياها بيدها. ولزهاء الساعة بقيا على تلك الحالة، تحت شروق الشمس الهادئ، قرب حافة البحر، حتى ابتدأت تتنهد وترفع وجهها للنسيم الواهن الذي كان يتسلل من الغرب. لقد كانت تمل بسرعة من الدفء مثلما من البرد. كانت هكذا دائماً، تجفل من كل شيء، متطرفة جسدياً، ولكنها أكثر تطرفاً من الناحية النفسية وعلى نحوٍ خطير.

تسلقا التل الغربي ذا النسيم العذب، وعلى أعلى نقطة من الأرض، ثمة صليب طويل محاط بسور حديدي أحمر، قرأ النقوش المحفورة عليه وهتف:

«المنظر على ما يرام، ولكن السياج قبيح ورديء».

فردت هيلينا بطريقة غير محددة:

«أوه، كان المفروض أن يسيّجوا المكان برخام لورد «نيسن» لأبيض».

ففسر قولها طبقاً لفكرته الخاصة وقال:

«نعم، فقد حط من قدر أشياء عظيمة، أليس كذلك؟».

فهتفت:

«تنيسن!».

«ليس الطواويس والأميرات، بل أشياء أكبر».

فأعلنت:

«ما كان المفروض أن أقول ذلك».

بدا متردداً، ولكنه لم يكن كذلك حقاً.

تجولا فوق التلال باتجاه الغرب بين الرياح. وبينما كانا يتبعان الرأس البحري إلى نهايته، أحسا بالنسيم المنبعث من أجنحة البحر وهو يمشط شعرهما، وأصاخا السمع لأصوات الصراخ الحادة القلقة الصادرة من تحت الجرف. وبين الحين والآخر، يندفع نورس إلى الأعلى، مثل قطعة من الرغوة، يطير فوق حافة الجرف ويغطس مرة أخرى، وبين الفينة والأخرى، وعندما يهبط الممر في تجويف، كانا يستطيعان رؤية زرافات الطيور المعلقة، وهي تمر داخلة وخارجة من مأواها في الجرف.

كانت تلك الطيور المتوحشة تناشد كل الشعر والشوق في داخل هيلينا. إنها تدهشها وتُعبّر عنها تقريباً. زحفت رويداً رويداً إلى الحافة، شاعرة بأنها يجب أن تراقب النوارس وهي تنتشر مثل شظايا بيضاء فوق الصخور المسودة بالأعشاب البحرية. وقف سيغموند في الخلف قلقاً، إذ لم يكن يجروُ على أن يمزح مع القدر الآن، وتملكه إحساس قوي بالموت ومن فقدانها، فتوسل إليها، وهو يتبعها إلى أقرب ما يستطيع:

«ارجعي يا عزيزتي، لا تقتربي كثيراً».

سمعت صمت الألم والالتماس في صوته، ولقد أدهشها ذلك، فاقتربت أكثر قليلاً. لم يكن الموت بالنسبة لها غير واحد من

رموزها، الموت الذي تتحدث عنه القصص القديمة ـ شيء عظيم وشامل ومظلم.

بينما كانت منحنية إلى الأمام، كان بإمكانها أن ترى خط الرمال الرمادي وخط زبد البحر متعرجاً حول الصخور السوداء. وفي كل مكان، كانت النوارس تتحرك مثل رغوة على قِدر، وهي تصرخ متجمعة.

راقبت الطيور الجميلة، وسمعت مناشدة سيغموند لها، وانتشت بالمتعة وهي تلهو بألمه العميق. تقدمت هيلينا باتجاه سيغموند مبتسمة وهي تقول إن المنظر يبدو رائعاً في الأسفل. شد يديه عليها في محاولة للتحرر من ألمه. كان ممتلئاً بألم ناتج من رعب دفين قوي يشبه الهاجس، فضحكت عندما أمسك بها.

تمشيا باحثين عن طريق للنزول. وفي النهاية سأل سيغموند أحد حراس الشواطئ عن أقرب طريق للنزول من المنحدر، فأشار إلى طريق المائة خطوة فقال بشك، وهما يهبطان على الطباشير الأبيض الذي يخطف الأبصار:

«متى تكون المائة خطوة ليست مائة تماماً؟».

كانت هناك ثمان وستون خطوة فقط: وضحكت هيلينا من دقته. فقال:

«لابد أنه حب تقريب الأرقام».

فقالت ضاحكة:

«من دون شك».

كان قد أخذ الأمر على محمل الجد تماماً وأضاف:

«أو المبالغة».

كان ثمة شاطئ ينحدر من الرمل الأبيض الدافئ، وقد قصرته

الشمس فأصبح ناعماً مثل القطيفة، وملأت أصوات النوارس ظلام التجاويف الأرضية، وكان اصطكاك الحصى يتسرب من حيث ينكسر الماء بهوادة، ويأتي خرير البحر مرتبكاً، مثل الصدفة، بين الجروف المطوية.

اضطجع سيغموند وهيلينا جنباً إلى جنب فوق الرمل الجاف، صغيرين مثل طيرين ساكنين، بينما كانت آلاف النوارس تدور في عاصفة بيضاء فوقهما، وتنتصب الجرف العالية خلفهما، وفوق الجرف كان هناك عدد لا يحصى من السحب المسافرة، قوافل سريعة في طريقها. ووسط السحب والمحيطات المسافرة، وتحليق الكرات الثقيلة الهادئ، كان سيغموند وهيلينا مستغرقين في مراقبة السماء، مثل حبتي حياة وسط الحركة الهائلة، يسافران للحظة جنباً إلى جنب.

ناما على الشاطئ، مثل طيرين بحريين، أبيض ورمادي، وشاهدت السفن الكسولة التي كانت تتهادى عبر الخليج الجرف والكتل الصخرية، ولكن سيغموند وهيلينا كانا صغيرين جداً. اضطجعا مهمَلين ضئيلين، يراقبان خلال أصابعهما نصف المطبقة قوافل النهار المختلفة. تمددا وأصابعهما مشبوكة فوق عيونهما ينظران إلى السفن المبحرة عبر المياه الزرقاء، وكان سيغموند يقول:

«هذه سفينة ذات أشرعة رمادية».

فتقاطعه هيلينا:

«إنها تبدو مثل ربة بيت في سن الأربعين، وهي تتمشى بهدوء في بيتها، وبيدها قطعة قماش لتنظيف الغبار، أليس كذلك؟».

«وهذا مركب متعدد الأشرعة. ألا ترين أشرعته الأربعة ...».

واستمر يصنف لها السفن حتى قوطع بضحكة خبيثة من هيلينا.

فاحتج قائلاً:

«هذا صحيح، أنا متأكد!».

فضحكت بنبرة أخبرته أنه يعرف أقل منها عن تصنيف السفن:

«أنا لا أعارضك».

«إذن، فقد اضطجعت هنا تسلين نفسك على حسابي طوال الوقت».

قالها وهو يجهل على الأقل سبب ضحكتها. استدارا ونظر أحدهما للآخر. عيون زرق تبتسم وتستدير، بينما الشاطئ يتموج تحت وهج الحرارة، ثم أغلقا عيونهما من ضوء الشمس. نعسا بسبب الشمس والرمل الأبيض وزبد البحر، فنامت أفكارهما مثل الفراشات على زهور المتعة، ولكن الظلال الباردة أجفلتهما.

قال سيغموند متأسفاً:

«الغيوم قادمة».

فأجابته:

«نعم، ولكن الريح قوية تكفي لتمزيقها».

«انظري إلى الظلال إنها تطفو كالبقع وتلتهم ضوء الشمس».

فقالت وهي تستكين إليه:

«الجو دافئ هنا بما فيه الكفاية».

«نعم، ولكني أفتقد الوخزة. أحب أن أشعر بالدفء وهو يخزني».

«لا، أنا لا أحب ذلك، أن أكون دافئة فذلك يكفيني».

«أحب أن يكون ضوء الشمس علي حقيقياً وواضحاً ومحسوساً. أشعر أني مثل بذرة تجمدت لعصور، وأريد أن يعضني ضوء الشمس».

انحنت عليه وقبلته. وجاءت الشمس متلألئة القدمين فوق الماء، تاركة بصمات مشرقة على وجه سيغموند. اضطجع وعيناه نصف مغلقتين متمدداً بارتخاء على الرمل. نظرت إلى أطرافه، وتخيلت أنه لابد أن يكون ثقيلاً مثل الكتل الصخرية. جلست على جسده، وإصبعها تنقر علي حواجبه التي كانت عريضة ومقوسة قليلاً، بينما اضطجع ساكناً تماماً، وكأنه في نصف حلم.

في تلك اللحظة، وضعت رأسها على صدره، وبقيت كذلك وهي تراقب البحر وتصغي إلى دقات قلبه. كان النبض قوياً وعميقاً. وبدا وكأنه يتسرب عبر الجزيرة كلها وخلال الأصيل كله، وقد أدهشها ذلك. كان عميقاً جداً وصامتاً بزفرات الحياة العظيمة. هل للكون قلب؟

هل ثمة رب عظيم في أعماق الكون يحرك أمواج الحياة مثل قلب هائل غير واع؟ أخافها الأمر. فقد كان هذا هو الرب الذي لا تعرفه مثلما لا تعرف هذا السيغموند. إنه مختلف عن العينين نصف المغلقتين بالهدبين السوداوين والأنف الساحر الجميل. وإن قلب الكون، كما سمعته، لا يمكن أن يكون له صوت الرذاذ المتجعد الناتج من تراجع الأمواج النائمة. أصاخت السمع لروح سيغموند، ولكن صوت قلبه كان يعلو بضرباته على كل صوت، وهو ينبض بعنف.

الفصل السابع

استيقظ سيغموند على أصوات مدافع البحر المكتومة، ثم تأمل الماء الرمادي القاسي في دهشة، واستدار إلى هيلينا قائلاً:

«أعتقد أنهم يحيون القيصر، يا للمتسول المسكين!».

فابتسمت له وقالت:

«كنت خائفة من أنهم سيوقظونك».

أصغيا مرة أخرى إلى الأصوات المكتومة الجوفاء التي تتردد عبر الماء والتلال. وتحول النهار إلى لون رمادي، فقررا أن يتمشيا باتجاه الخليج الآخر، وقالت هيلينا:

«المد قادم».

فأجابها:

«ولكن شريط الرمل العريض هذا لم يُبَلل منذ عدة شهور. إنه هش مثل الفلفل».

ثم استمرا في التجول على امتداد الساحل، بجانب الخط المتعرج الأسود لطحلب الفوقس المتجعد.

عند قاعدة الجرف تراكمت كسارة الطباشير، وعلى الجانب الآخر امتد سطح البحر المستوي، ويداً بيد، وحيدين، مظللين بظلال

الجرف الهائلة، استمرا في المشي وفي نهاية السباق ترنحت الأمواج وسقطت مهزومة.

اقترب سيغموند وهيلينا من رأس أرضي عمودي، مثل جدار بيت، امتلأت قاعدته بكتل بيضاء من الجلاميد الصخرية التي كان ماء البحر يتكسر عليها بصوت أجوف، متبوعاً بصفير حاد يدلل على انسحابه. كان على العاشقين أن يجتازا صحراء الكتل الصخرية البيضاء هذه، والتي كانت تتلألأ ببريق ناعم براق على نحو غريب. ولكن سيغموند رأى الأمواج عند جدران الرأس الأرضي، وعندما ألقى نظرة إلى الخلف، رأى رأساً أرضياً آخر يرشه الماء عند قاعدته المزبدة. كان عليهما أن يسرعا، أو أنهما سيسجنان على الهلال الرملي الرقيق الذي كان باقياً بين الجدار العظيم والماء. أخافته الجروف المطلة عليه، وأشعرته أنه سجين ولا حيلة له. وأحس بأنها تمسك به في شبكة من الكتل الصخرية، بينما كان البحر يتحسس بيديه باحثاً عنه. ولكن هيلينا كانت معه، تكدُّ إلى جانبه، وقد غشى بصرها بفعل ذلك البريق الذي يشبه بريق الجلد الصادر عن الصخرة البيضاء فقالت له:

«أعتقد أني سأستريح للحظة».

فتوسل إليها:

«لا، هيا بنا».

فردت ضاحكة:

«يا عزيزي، ثمة أطنان من هذا الحصى كي تحمينا من البحر».

نظر إلى الأمواج، وهي تنحني وتتسلل بخبث بين الكتل الصخرية. سوف يكون أمراً أحمق أن يسجنا. بينما أضافت قائلة:

«انظر إلى هذه الخشبة السوداء، هل تعتقد حقاً أن البحر هو الذي أحالها فحمة؟».

وتوسل إليها مرة أخرى:

«دعينا ندور حول الزاوية».

فأضافت متهكمة:

«صدقني يا سيغموند، إن البحر ليس متلهفاً إلى هذا الحد كي يأخذنا».

عندما استدارا حول النقطة الأولى، وجدا نفسيهما في خليج صغير ناتئ من البحر. وكانت مقدمة النتوء الأرضي محفورة كالعادة. كان الخليج أبيض نقياً عند قاعدته بسبب أكداس الحصى الهائلة، وحيث يتقعر الجرف الهائل خلفه، بينما يتكتل الركام الصخري الأبيض في الأسفل، ويتقوس البحر الهائل في المقدمة. وقد استمتعت هيلينا بكل ذلك، فقالت متوقفة وهي تواجه الغرب:

«هذا رائع يا سيغموند».

فابتسم لها بسخرية وهو يجلس على كتل صخرية. كانا لوحدهما تماماً في تلك الكوة البيضاء الهائلة الناتئة المطلة على البحر. هنا يستطيع أن يرى المد وهو يضرب قاعدة الجدار، فقد كان يأتي مندفعاً ليس بعيداً عن أقدامهما. وسألها:

«هل تريدين حقاً الذهاب خلف هذه الحافة؟»

نظرت من حولها بسرعة، مدهوشة كما لو أنها توبخه:

«هذا مكان رائع. أود أن أبقى هنا لساعة».

«ومن ثم إلى أين؟».

«بعدئذ؟ آه، بعدئذ. أفترض أن يكون قد حل عندها موعد الشاي».

«شاي على الشقائق القرنفلية المالحة مع الأب نبتون».

نظرت بحدة إلى الرأس الأبيض الناتئ حيث كان البحر يزبد عند قاعدته، ثم قالت وهي تستدير إليه:

«أفترض أن الأمر خطير».

ثم استدارت وابتدأت تتسلق بصمت إلى الأمام. كان عليها أن تقود المسيرة، أما هو فقد تبعها وهو يقول:

«هناك الكثير من المسافة بيننا وبين البحر حقاً، فالبحر يبدو قريباً في الظاهر فقط». ولكنها استمرت تجر خطاها متعمدة، فالأمر الآن مسألة خطر ولم يعد مسألة عدم اقتناع.

وأحس سيغموند بالارتياح. أزبدت الأمواج متسلقة الرأس الأرضي المكشوف حيث كنس منه الحصى الصلب إلى الخلف. ظنّا أنهما لن يستطيعا الخروج.

بدأ يبتسم بفضول. أصبح على وعي بضوضاء الماء الصاخبة، وبارتجاف الحصى الواهن عندما تضربه الموجة، وكان يضحك مع نفسه باستمرار. استمرت هيلينا تكد في المسيرة صامدة، بينما بقي خلفها تماماً.

بدت النقطة قريبة، ولكن الوصول إليها استغرق أكثر مما توقعا. وكانت الجرف الهائلة تنتصب أمامهما، وكتل الحصى الكبيرة والبحر المتأرجح. بدأت الأمواج تضرب بصوت أعلى وتهدر على نحوٍ مرعب، والريح تكنس حول المنعطف وتبلل وجهيهما. وتمنى سيغموند لو أنهما قد عُزلا، وتمنى أيضاً وبلهفة أن يكون الطريق مفتوحاً، وارتسمت الابتسامة على وجهه.

وبعد ذلك رأى هنالك رفاً أو منصة عند قاعدة الجرف، تتكسر عليها الأمواج. تسلقا حافة الأكمة مسرعين إلى المقدمة، حيث أمسكت بهما ريح رطبة وهائجة، وكان الماء يصطفق في الأسفل،

وبين الاثنين تقلصت هيلينا ذاوية، فأمسكت بسيغموند، في حين اندفعت الموجة القاسية الهائلة على الصخرة، ثم تراجعت لتستعد لتدفق آخر أقوى. كان الرذاذ والرغوة يدوران بسرعة مع الريح كالدخان. ونكّرت أصوات الأمواج هيلينا بالقلب النابض، فالتصقت به أكثر، بينما شعرها يتطاير مبللاً، وثوبها الأبيض يرفرف في الريح الرطبة. وكانت اندفاعة الأمواج البطيئة تأتي على الصخرة دائماً، مثل قلب هائل ينبض فيّ الصدر. وكان هناك شيء قاس يتعلق بذلك لم تكن تطيقه. ولم تكن تمتلك سلاحاً ضد القوة الطائشة.

ألقت نظرة على سيغموند. رأت قطرات صغيرة من الضباب أضفت لوناً رمادياً على حاجبيه. كان ينظر إلى البحر، ويدير عينيه ويبتسم بقسوة. أصبح وجهها مهموماً ومتجهماً. بدا مثل القلب والبحر القاسي، موجود فحسب؛ ولم يكن سيغموندها، وكرهت القسوة فيه.

استدارت على نحوٍ مفاجئ، واندفعت فوق الكتل الصخرية باتجاه الخليج المزدحم العريض، وبقي وحيداً يبتسم لهيجان البحر المدهش، غير مبال بمغادرتها، إذ كان من السهل عليه أن يلحق بها.

عندما استدار في النهاية من الماء المضطرب، كان قد استنفد وحشيته وأصبح حزيناً. فهو لا يستطيع إطلاقاً أن يساهم في معركة الفعل الهائلة، فتلك أكبر من قدراته. هناك الكثير من الأشياء التي تركها تفوته. لقد تدهورت حياته إلى الحضيض، واختُصرت إلى مجرد بضع هوايات قليلة وبضع ضرورات فقط. وحتى هنا، لم يعد لديه شيء آخر سوى هيلينا، ومن خلالها لديه بقية الأشياء. ولكن ماذا بعد هذا الأسبوع؟ كان ذلك أمراً مبهماً، تركه في الظلام فزعاً.

راحت هيلينا تمشي وحيدة فوق الساحل المضطرب. رأى جسدها الصغير منحنياً بينما كانت تندفع إلى الأمام، فخلبت قلبه بفتنتها العميقة.

بدت جميلة، وهي رفيقة مرح ممتلئة بالجمال والمتعة. لماذا يقسو عليها؟ ألأنها لم تمر بتجربة حكمته المرّة الخاصة؟ إنها شابة وساذجة، ولكن هل عليه أن يغضب منها من أجل ذلك؟ وضاق صدره من التفكير فيها. كان عليها أن تعاني بسببه أيضاً.

أسرع خلفها، ولم يلحق بها إلا بعد أن وصل إلى تل أخضر صغير حيث انحدرت التلال واختفت الجروف، عندها أمسك بيدها وواصلا السير.

توقفا على رابية خضراء تقع وراء امتداد الرمل، ودون أن ينبس بكلمة واحدة احتضنها بين ذراعيه، وانقطعت أنفاسهما معاً. اعتصرها إليه بشدة كما لو أنه يطحنها بضغطه العنيف، وأحست بجسده يعلو ثم يغطس فيها. وكان يبدو وكأنه يضغط إيقاعاً، يضغط نبضاً جديداً فيها. وتدريجياً، وبدهشة عميقة ذابت فيه، كمعدن ينصهر على قالب. كان مزيجاً من البحر وضوء الشمس لاهباً ودافئاً وقوياً بشكل لذيذ.

تهلل سيغموند فرحاً، فقد انصهرت داخله عبر حب صاف في النهاية.

وقفا متعانقين على ذلك النحو بعض الوقت، ثم رفعت هيلينا وجهها المتوهج واسترخت. كانت تنبض برضا وتحرر غريبين وقالت:

«ربما يكون البحر أيضاً مثل أي طريق آخر».

كان كلاهما مجفلاً. وانطلقت الجملة عبر أفكارهما مثل نجم

يطير في الليل من الفراغ. لم تكن لديها فكرة عن سبب قولها ذلك، وضغط فمه على فمها وفكر في نفسه بردة فعل:

«ليس لك. لا يمكنك سلوك هذا الطريق بعد».

ولكنه لم يقل شيئاً، بل ضغطها إليه بعنف وأطبق على شفتيها.

تنبها إلى وجود أصوات، فأنهيا عناقهما، واستمرا يتمشيان على حافة الماء. كان المد يتراجع، وانحنى سيغموند فالتقط من مشاطة(*) الماء مصباحاً كهربائياً كان ملقى مشتبكاً في عشب بحري عند قاعدة الصخرة، ناوله إلى هيلينا، فأضاء وجهها بنوع من المتعة الفضولية. أخذت المصباح برقة من يده وتحسسته برقتها الرائعة وهي تهتف بسعادة:

«أليس ذلك رائعاً. لابد أن البحر كان نبيلاً وكريماً جداً».

فابتسم سيغموند وقال:

«في بعض الأحيان».

فردت قائلة:

«ولكني لم أكن أعتقد أن أصابعه بهذه المهارة».

تنفست على المصباح الزجاجي حتى أصبح كبرعم زهرة «لمانوليا» واستنشقت نكهته الرقيقة.

قال لها:

«ما كان ليُعاملك بطريقة طيبة».

نظرت إليه بعينين مهمومتين، ثم أعادتهما إلى المصباح. كانت أصابعها صغيرة قرنفلية اللون، وكانت لمستها أرق لمسة في العالم، فهي تشبه إحساساً ضعيفاً بالحرير وحين كان يراقبها،

(*) ما يسقط من الشعر ويتجمع في المشط، والمقصود هنا الأعشاب والمواد التي يطرحها ماء البحر على الشواطئ.

وهي ترفع أصابعها عن الزجاج ثم تنقره بلطف، سخن دمه، وراقبها منتظراً كلماتها وحركاتها بشغف، فقالت:

«إنه لتصرف رقيق من جانب البحر». وأضافت:

«إن واتن لشخص أخرق، فهو ينقر فوق الإناء دق ـ دق ـ دق ـ دق ـ فتضرب الأسماك اللاهثة بزعانفها... تضرب وتضرب وتخرج صوتاً كصوت رنين الكمان إذ تسحب أوتاره».

غالباً ما تصعب ترجمة حديث هيلينا إلى مصطلحات مفهومة. إذ أنها لم تكن صافية التفكير.

ثم ختمت كلامها قائلة:

«ولكن الحياة مليئة بالخيبات».

بنعومة ابتسم سيغموند لها. كان يحبها كثيراً وهو يخالفها أو أن يتمعن في كلماتها، ثم مازحها قائلاً:

«ليست هناك حسابات مع الحياة، وليست هناك حسابات مع البحر. والطريقة الوحيدة للتعامل مع الاثنين هو أن تجعل نفسك أقرب ما يمكن إلى الفراغ ثم تطفو».

آلمها أن يكون قليل الاحترام لأفكارها، فاستمرت ماشية كي تنسى ما قاله.

كان هناك ثلاثة أطفال على الشاطئ، أعادت إليه هيلينا الحلية التافهة غير قادرة على رميها بعيداً، ولأنه كان والداً فقد قال:

«سأعطي المصباح إلى الأطفال».

نظرت إليه وأحبته من أجل تلك الفكرة.

تجولا يداً بيد، فقد كان يسرهما أن يمتلك أحدهما الآخر علناً بعد سنين من البعد بسبب التقاليد. وصلا إلى الفتاة الصغيرة التي كانت تنحني فوق البركة بينما يتدلى شعرها الأسود المضفور إلى

الماء. وقفت وهي تدفع خصل شعرها إلى الخلف كي تتأملهما وهما يقتربان، بينما كانت تمسك بإحدى يديها ببعض الحصى. قال سيغموند وهو يعرض عليها المصباح:

«هل تريدين هذا؟ لقد وجدته هناك».

نظرت إليه بعينين زرقاوين حزينتين وقَبِلت هديته، ولكن بدا واضحاً أنها لن تقول أي شيء. فأضافت هيلينا بنبرتها المنغمة المدهشة التي يستخدمها بعض الناس عند الحديث مع الأطفال:

«لقد ألقتها الأمواج من حضنها على بعض الأعشاب البحرية بأنامل حانية».

تألقت عينا الطفلة، وقالت هيلينا مبتسمة:

«إن خط المد مليء بالكنوز».

أجابتها الطفلة بابتسامة صغيرة. أما سيغموند فقد ابتعد قليلاً. وقالت هيلينا:

«يا لجمال عينيها! !».

«نعم».

نظرت إليه فأحس أنها تبحث في أعماقه بشوق بعينيها، ولكنه لم يستطع أن يرد النظرة إليها، بل أخذت يده وقبلتها، مدركة أنه كان يفكر في أصغر أطفاله.

الفصل الثامن

يمر طريق العودة إلى البيت بالحقل، عبر ممرات ضيقة صغيرة عميقة، حيث تنتصب أزهار الكشاتين بجدية ككلاب حزينة فوق الأرض المنخفضة المفتوحة الخشنة الممتلئة بنباتات الرتم والخلنج بينما تغلفت فجواتها بالسرخس والأشجار.

وصلا إلى كنيسة كاثوليكية رومانية صغيرة في الحقول، حيث يطل تمثال السيد المسيح من علٍ على الموتى الذين كانت قبورهم تشكل روابٍ تحت الغطاء النباتي، وكان قلب هيلينا يجيش بالعاطفة، ذلك أن كل حنينها وشفقتها المسيحيين أفعماها مرة أخرى.

يحيط الممر بجدار الكنيسة، حيث كان الموتى يرقدون في جهة بالنسبة لها، بينما كان سيغموند في الجهة الأخرى، قوياً ممتلئاً بالحياة، ولكنه يُمشي بطريقته العجوز الواهنة. أحست بشوق نادر إليه وإعجاب به. كان أمراً غريباً بالنسبة لها أن تشعر بهذا التواضع، ولكنها ذلك المساء، أحست أنها يجب أن تسعفه وأن تكون مطيعة له.

جعلته يتوقف كي ينظر إلى القبور. وفجأة، وبينما كانا واقفين، قبلته وعانقته بحماس وأثارته حتى أحرقت عاطفته همومه، وبدا وكأن الحياة قد نُفخت فيه، فتوهج وجهه كما لو أنه

سيتفجر ضوءاً، عندها اعتراها الرضا وأصبح بإمكانها أن تضحك.

حين كانا يتمشيان خلال خمائل التنوب، يصغيان إلى الطيور التي تجمعت، مثل عائلة تثرثر في البيت أثناء المساء، ويصيخان السمع إلى حفيف الريح الواهن، تركت سيغموند يقودها، فكان هو الذي يحدد إيقاع حركتهما، بينما استندت عليه كطير على غصن متأرجح.

تجادلا حول الطريق الذي سيسلكانه، واستسلم سيغموند كالعادة لها. سلكا طريقاً خاطئاً تماماً، وعندما تراجعا، تسللت خطواتهما خلسة عبر حقل دواجن، كانت دجاجاته تتوزع في مجموعات بائسة. ومرة أخرى، وقد أحست بالخوف بسبب حلول المساء، تصارعت كبرياء هيلينا مع استسلامها الجديد إلى سيغموند. فمشت منحنية ولم تنطق بكلمة واحدة، وكان هو الآخر صامتاً أيضاً، ولكن قلبه كان قوياً في داخله. وفي مكان ما في الأفق البعيد ثمة فرق موسيقية تعزف مقطوعة سهرة على الراين.

حين اجتازا أشجار الزان واقتربا من البيت، قالت له هيلينا كي تجرّبه، وتضرب ضربة كبريائها الأخيرة:

«يا ترى ما الذي سيجلبه لنا يوم الاثنين القادم؟».

فأجابها بمتعة:

«نهاية سريعة».

كان يحدق في الأرض، ويبتسم لها بسعادة عفوية أكسبته حبها. لقد بدا رائعاً في عينيها، ولقد أحبته، وهي تغار من كل جزيئة تتجنبها فيه. أرادت أن تضحي من أجله، أن تجعل نفسها مذبحاً مشتعلاً له، وأرادت امتلاكه.

ومرت الساعات التي كان من المفروض أن تكون ملكها الصرف بطيئة تماماً عليها.

في تلك الليلة قابلت هواه بالحب. لم يكن هواه ما أرادت في الحقيقة، ولكنها رغبت في أن يشتهيها بجنون، وأنه يجب أن يأخذ كل شيء، كل شيء. ولقد كانت ليلة رائعة بالنسبة له، إذ أعادت فيه الرغبة بالحياة كاملة، ولكنها أحست أنها قد دمرت نفسها، وأن روحها قد ذبلت.

في الساعة السابعة صباحاً، تمددت هيلينا بلذة في الماء الدافئ، بينما كانت الأمواج الصغيرة تتسلق الشاطئ ممتلئة وصافية بلا زبد، تخفق باستمرار بإيقاع عاطفة الليلة الماضية. لم تحس بشيء أكثر إثارة للمتعة من هذا الماء الدافئ الذي ينساب فوقها. تمددت وابتدأت تتأمل البحر المتألق. كانت كل الأشياء التي تبدو مجبولة من ضوء الشمس ملطخة على نحوٍ أو آخر. وارتفعت الجروف من بين الأمواج المتألقة مثل سحب ذات نسيج قوي ودقيق، والصخور على امتداد الساحل تبدو مثل قطرات ندى متلألئة. ذابت القسوة من العالم، بحيث ظهر ضوء الشمس في عروق الصخور وجروف الصباح. نعم، كان شروق الشمس يجري في كل مكان، مثلما نحن ممتلئون بالدم، والنباتات منسوجة من النسغ المتلألئ الأخضر الذهبي. كانت المادة والصلابة ظلالاً يلقيها الصباح حول نفسه كي يجعل نفسه ملموساً، مثلما كانت هيلينا ظلاً ألقته روحها، كسرة من شروق الشمس، فوق هشاشتها.

تذكرت أنها رأت الخفافيش تطير واطئة فوق بركة متلألئة عند الغروب، وكانت أغشية أجنحتها تبرق بوميض قرمزي كلما نشرتها عبر الضوء، فتبدو لوهلة وكأنها مجنحة بقطع من اللهب المنسوج المخاط بالدم. كانت الخفافيش تخفق بسر لها.

أصبحت الجروف الآن مثل أجنحة مشرعة يتسرب الصباح من خلالها على نحوٍ باهت. وأحسست بأن أجنحة العالم كلها مشرعة خلال ذلك الصباح في طيران براق هائل. كان الكون نفسه يطير، وضوء الشمس ينسكب على الكون المدور الكبير، حتى تخيلته نحلة كبيرة تهمهم في الجو الملون عبر مساحات شاسعة من ضوء الشمس.

اضطجعت وشرعت تتأمل في هذه الرحلة الرائعة. كان شعاع الشمس الذائب في الماء يجعل الأمواج ثقيلة وذهبية وغنية ببرودة قطيفية مثل زهر الربيع العطري. كانت قدماها تخفقان تحت الماء المظلل، وصدرها يخرج براقاً كصدر طير أبيض. وتساءلت مع نفسها «أين سيغموند؟». لقد كان هو أيضاً في مكان ما بين البحر وشروق الشمس، أبيض اللون، يمرح مثل طير، ويشرق مثل ذرة ضوء شمس قلقة حية. ضربت الماء، مبتسمة شاعرة أنها لوحدها معه. لقد امتلك كلاهما هذا الصباح، مثل زوج من الطيور الكبيرة المتوحشة يسكنان بحراً فارغاً.

كان سيغموند قد وجد كهفاً أبيض اللون يتفجر بماء أخضر، براقاً ومليئاً بالحياة مثل نسغ صاعد. وومضت صخرة بيضاء خلال الماء، وفي الحال أيضاً تألق سيغموند في اخضرار البحر الحي، مثل أزاهير شاحبة ترتجف نحو العلا. وقال سيغموند: «الماء ممتلئ بالحياة مثلي». وضغط صدره إلى الأمام عليه. لقد سبح جيداً ذلك الصباح، وكان أكثر امتلاءً بالحياة من البحر لذلك سيطر عليه بذراعيه ضاحكاً شاعراً بمتعة انتصاره على الأمواج، مجازفاً بتهور بكبريائه الجديدة، سبح حول زاوية الصخرة عبر مدخل شامخ واسع إلى ممر حيث يجري الماء مثل طوفان من الضوء الأخضر فوق القاع الأبيض اللامع. وفجأة انبث تحت ضوء الشمس البراق في الفجوة الصغيرة الثانية من الخليج.

وصل إلى هناك مثل مستكشف، إذ يتعذر بلوغ الخليج من اليابسة. خاض خارجاً من الماء البارد الأخضر إلى حيث الرمل الذي كان نقياً مثل كتفي هيلينا، منتقلاً من ظلال المدخل إلى ضوء الشمس، على التويج المتألق لبرعم الخليج هذا.

لم يشعر ـ إلا بعد أن أحس بضوء الشمس ـ كيف شرب البحر بشفتيه الباردتين من دفء جسمه بعمق. رمى نفسه على الرمل الهش الدافئ مثل فرو أبيض واضطجع مبتلاً، متألقاً، لاهثاً، منتفخاً بكبرياء مبعثها السعادة، لأنه قد انتصر على ذلك الكهف البحري الصغير الذي يتعذر الوصول إليه، وقد زحف إليه مثل نحلة بيضاء نحو برعم بكر أبيض انتظر نحلته طويلاً.

أحس بالرمل دافئاً على صدره وبطنه وذراعيه مثل جسد عظيم يلفه. وكاد يتخيل أنه يستشعر لهاثه وهو يتنفس تحته، ثم استقبل الشمس وضحك. ولفترة من الزمن احتضن جسد الخليج الدافئ تحته، ونشر ذراعيه على الرمل، وأخذ منه ملء قبضتيه، وتركه ينساب رائعاً، دافئاً، ناعماً، خلال أصابعه وردد مع نفسه: «إنه مثل هيلينا بالتأكيد»، ووضع ذراعيه مرة أخرى على جسد الشاطئ الدافئ، تاركاً يديه تتجولان وتكتشفان وتجمعان كل الدفء والنعومة والدهشة الغريبة للحصى الناعمة، الدافئة، ومن ثم، تتقلص مع البرد العميق الذي صادفته يداه بينما كانتا تحفران نحو الأسفل إلى أعمق من رسغه. وفي النهاية وجد أن غرابة برودة الرمل العميق مدهشة هي الأخرى. دفع يديه مرة أخرى، وعلى نحوٍ أعمق، مستمتعاً تقريباً بأذى البرد الثقيل المظلم، وذلك لأن شمس الخليج وزهرته البيضاء كانتا تتنفسان وتقبلانه في جفاف جسده، وتمسك به زهرة الخليج في تقعرها الدافئ مثل نحلة في زهرة، مثل نفسه بين نهدي هيلينا، وينساب ضوء الشمس كدفء أنفاسها خلال شعرة، فيتنفس على نحو قريب ورائع، ومع ذلك، وتحت كل

هذا، كانت تلك الكتلة العميقة من البرد، حيث كان الدفء والنعومة يطفوان فوقها فقط.

اضطجع سيغموند محتضناً الرمل، ونثره بملء يديه فوق جسده حتى سخن واكتفى، ثم نهض ونظر إلى نفسه وضحك. كان الماء يتأرجح موبخاً الحصى الحادة في الأسفل مهمهماً كطفل صغير، لم يكن راغباً في هجر رفيق لعبه. ضحك سيغموند وابتدأ يزيل الرمل الملتصق بجسده، ووجد نفسه جافاً وناعماً على نحوٍ غريب.

نثر المزيد من الرمل الجاف فوق جسده بنشاط وتعمّد مثل طفل يلعب لعبة استحوذت عليه. وفي الحال أصبح جسده جافاً ودافئاً وناعماً كزهرة البابونج، ولكنه أصبح مع ذلك رمادي اللون وملطخاً بغبار الرمل. تأمل سيغموند جسده باستهجان رغم أنه كان ممتلئاً بالمتعة، ورغم أن يديه كانتا سعيدتين بملمس جسده. لقد أراد نفسه نظيفاً. وأحس بالرمل الصخري الناعم في شعره وحتى في شاربه. سار وهو يكابد الألم فوق الحصى حتى وجد نفسه فوق القعر الصخري الناعم. ومن ثم، غمر نفسه وحرك رأسه في الماء، وغسل ومسح جسده بيديه جيداً. لابد أن يشعر بأنه نظيف وحر ونَشِط كما لو أنه غَسَل وإلى الأبد كل سني التلوث في رمل الصباح هذا وشمسه وبحره. لقد كان ذلك نوعاً من التطهير!

أصبح سيغموند مرة أخرى قس الشمس السعيد، وأحس كما لو أن كل أدران التعاسة قد أزيلت منه، كما لو أنه غمس قطعة قماش ملوثة بماء البحر ثم قطّرها بيضاء على الشاطئ المشمس، وهكذا أحس أنه أبيض اللون، جميلاً وبنظافة القماش، وممتلئاً بالخفة والسحر.

كانت حديقة المنزل الأمامية ـ حيث تنتظره هيلينا ـ طولية

الشكل وملتوية، وذات رصيف غائر من حجر الرصف يمتد على جانب العشب إلى الباب، ومن الجانبين كان جدار الحديقة العالي مثقلاً بأزهار ياسمين البر وصريمة الجدي.

جلست هيلينا جانباً، وفرشت أمامها خارطة على المصطبة تحت اللبلاب الصغير المعرّش وهي تتبع طريق تجوالها عليها. كانت ساكنة جداً. ولم يعكر سكونها من شيء سوى طنين النحل الذي كان داخلاً وخارجاً من العريشة الصغيرة المتألقة المكونة من أزهار الكبوسين، بينما انتصبت أوراق الكبوسين دافئة رمادية اللون في ظلالها الرقيقة تحت الشفق الأخضر، وألقت بضع أزهار بضوئها القرمزي والذهبي الخفي، وثمة رائحة خافتة تنشرها أزاهير البليحاء العطرية، وهيلينا مثل فراشة بيضاء في الظل، وذراعاها مثل لوامس تمتدان بقوة إلى المصطبة، بينما هي منكبة فوق الخارطة، مندهشة بالفرحة المطلقة تتبع كلمة بعد أخرى، وتستحضر منظراً بعد آخر، وعندما تكتشف اسماً كانت تتذكر المكان، وكلما تحركت إلى العلامة الأخرى راحت تتخيل الممر الطويل المرتفع الهابط بسعادة.

كانت تنتظر سيغموند ومع ذلك أجفلتها حركة يده على المزلاج، فانتفضت وقد اعترتها إثارة مفاجئة. كان سيغموند يقف في ضوء الشمس عند البوابة. حيا بعضهما بعضاً عبر الزهور الطويلة.

وعندما أمسك سيغموند بيدها، قال لها وهو يضحك بنعومة:

«لقد خرجتِ من الماء جميلة جداً هذا الصباح».

ضحكت ولم تكن جميلة، ولكنها أحست أنها كذلك في تلك اللحظة. ألقت عليه نظرة مليئة بالحب والعرفان بالجميل وهمهمت في نبرة ساكنة كما لو أن ما ستقوله مدنس وغير ضروري:

«وأنت أيضاً».

أحس سيغموند بالغبطة فقد أحب أن يقال له بأنه جميل. وبعد بضع لحظات أصغيا خلالها إلى طنين النحل وتنفس البليحاء قال لها:

«لقد عثرت على خليج أبيض صغير مثلك، خليج بكر، كان علي أن أسبح هناك».

فقالت مهتمة به لا بالخبر:

«آه!».

«إنه يشبهك تماماً، هناك الكثير من الأشياء التي تشبهك».

ضحكت مرة أخرى بطريقتها المفعمة بالسعادة، وصدر التذبذب الشبيه بالقصب في صوتها، وقالت:

«لقد رأيت الشمس خلال الجُرف والبحر، ورأيتك أنت».

لم يفقه ما قالت. فنظر إليها مستفهماً. كانت بيضاء اللون، ساكنة مبهمة. ثم نظرت إليه، حملقت عيناها الجادتان دون أن تطرفا، فارتجف وتغشت كل الأشياء أمامه، وبعد أن رفعت عينيها، وجد نفسه يقول:

«أتعرفين؟ لقد أحسست كما لو أني البشر الأول الذي يكتشف الأشياء، مثل آدم عندما فتح عينيه على العالم للمرة الأولى».

فأعادت هيلينا بهدوء، وهي تتأمله بعينين مثقلتين بالمعاني:

«لقد رأيت شروق الشمس فيك».

ضحك مرة أخرى غير قادر على الفهم، ولكنه أحس أنها عنت الحب، فقال لها:

«لا، ولكنك غيرت كل شيء».

كانت نبرة التساؤل والمتعة في صوته قد أثرت فيها إلى ما

يفوق حدود السيطرة على النفس، فأمسكت بيده وضغطتها وقبلتها بسرعة، وفجأة سيطر عليها الحزن.

«أحس كما لو أن وضعنا صحيح، أنتِ وأنا يا هيلينا، بل هو أمر مستقيم، أليس كذلك؟ كما أن البحر وكل شيء آخر من حولنا يبدو معنا. ألا تعتقدين ذلك؟».

حين نظر إليها، وجد عينيها مغروقتين بالدموع، انحنى وقبلها، بينما ضغطت رأسه على نهديها. لقد كان سعيداً جداً.

الفصل التاسع

ازداد النهار قيظاً، وزحفت قطع من السحب بلون الفضة عبر السماء المجدبة مثل سلحفاة تثاقلت في مشيتها حتى توارت بالحجاب. ولقد اكتست الطرق الكلسية بلون أبيض وهي ترتجف من الحر الشديد.

سارت هيلينا وسيغموند) حاسري الرأس تحت وهج الشمس، وقد وليا وجهيهما شطر المشرق وأحشاء، وهما يجران الخطى على امتداد الطريق الطويل، كأنهما حشرتان في مشكاة في موقد ساخن، وقد انتشرت زهرات الخشخاش هنا وهناك تزهو بلونها الأحمر بين عشب الزان فبدت تحت ضوء الشمس أشبه بقطرات دم فوق ماء اخضر. وكانت هيلينا تسترجع أبياتاً من الشعر لفرانسيس ثومبسن،(*) وهي أبيات لم يقرأها سيغموند في حياته قط. وكانت تردد ما تحفظه من الشعر ضاحكة ومستذكرة صورة ثومبسن الشاحبة. نظرت إلى سيغموند الذي كان يسير إلى جانبها بارتياح عظيم وقالت له: «الفنانون أناس تعساء حقاً»، فأجابها سيغموند:

«وما أظن فاغنر إلا واحداً من هؤلاء».

(*) فرانسيس ثومبسن (1859 ـ 1907): شاعر إنكليزي معروف بشكل رئيسي بقصيدته الصوفية الطويلة التي عنوانها (كلاب السماء) التي نشرت ضمن ديوانه (أشعار) الذي صدر عام 1893.

ثم رفع رأسه إلى حيث السماء المشرقة الساخنة، وشرب من حرارتها بوجهه وهو مغمض العينين. لقد بدت كل العوالم شاحبة أمامه إلا عالم نفسه. فكم من أناس أحبهم وأشفق عليهم، وكم من أناس اصطبر على صحبتهم بلا توجع أو أنين.

بلغا مكاناً أصبح بإمكانهما الوصول إلى الساحل عبر ممر منحدر. وبينما كانا يهبطان المنطقة الصخرية التي كستها أزهار الشيخ بلون أصفر، أحسّا بأنهما يغطسان في هواء الخليج الحار الخامل، بينما بقي جو الأرض العليا المنعش فوق رأسيهما.

كانت الحرارة تتوهج وترتعش بين الصخور الرملية البيضاء التي تبدو وكأنها نُقّيت بالصهر. جلست هيلينا وخلعت حذاءها، وخطت على الرمل المتألق الحار حتى سَفَع قدميها بشكل لذيذ ومخدّر تقريباً، بعدها ركضت إلى الماء كي تبردهما، وتسابقت مع سيغموند يجريان في الماء الضحل، ويراقبان في استغراق، الأمواج المسرعة مثل خنافس بلورية تعدو فوق أقدامهما البيضاء، ويتأملان البحر الذي يرتفع قربهما، فيبدوان مثل قزمين أمام امتداده الواسع.

ولفترة قصيرة، تمشيا بصمت على امتداد حافة المياه، ثم هبط عليهما شفق النوم، ذلك السكون الصغير الذي يغلق الأبواب ويسحب ستائر البيت بعد احتفال.

تجولا على الشاطئ حيث يصل المد، ثم جلسا على الرمل متكئين على صخرة بنية مصقولة، حيث كانت الشمس تشرق على جبين سيغموند، بينما استكانت هيلينا في ظله. ومرت الساعات دون أن يحسا بها، صامتة تنسل، وزحف البحر أقرب وأقرب منهما، مثل أفعى تراقب طيرين نائمين، قد لا تزعجهما، لكنها تتراجع إلى الخلف، متوقفة عن مراقبتها بعينيها البراقتين.

في الوقت نفسه تساقطت أزاهير عاطفتهما تساقط أزهار الخشخاش عند الظهيرة، ونضجت بذور الجمال في داخلهما

بسرعة، وتسربت أحلامهما مثل ريح خلال روحيهما، وانسابت مع بذور غبار التجربة الجميلة التي أنضجاها، كي يُسمّدا بها أرواح الآخرين أيضاً. في داخلهما اختلطت البواخر والسماء والبحر فأنجبت براعم جديدة من حرارة حبهما المتقدة. وكانت بذور هذه البراعم تهتز كلما ناما في يد الرب الذي يمسكها براحته بحرص. ثم يرميها مرة أخرى كي ينتج براعم رائعة جديدة من الجمال.

هب نسيم عليل على الجرف، وأضاء النوم للعاشقين تجربتهما، وتحفزت براعم جديدة في روحيهما بينما كانا مضطجعين في الشفق المظلل عند شرفة الموت، وداعب النسيم وجه هيلينا وانساب برد على نحرها. وعندما انصرم الظهر استعادت حيويتها. وكما كانت سريعة الذبول، كان إنعاشها سهلاً كوردة بنفسج بيضاء تغمس في الماء. ارتجفت قليلاً ثم نهضت.

كان أمراً غريباً بالنسبة لها أن تُبعث من الصخرة البنية إلى الحياة مرة أخرى، وأحست أنها قد استعادت حيويتها على نحو رائع. بدا كل شيء من حولها مفعماً بالحيوية كحديقة رطبة في صباح حزيراني مبكر. رفعت شعرها ثم نثرته ونفضته كي تطرد الرمل، وركضت وضحكت مثل الخشخاش الهدابي الذي يتفتح للشمس. تركت الريح تمشط خصلات شعرها المتشابكة بأصابعها الهشة. لقد أحبت هيلينا الريح فاستدارت لها، وتقبّلت قبلاتها على وجهها ونحرها.

تمدد سيغموند ساكناً تماماً يتأملها بإمعان. لقد كان التغير في داخله أشد عمقاً كما لو أن هذا التغير كان في نسيجه. وتفتحت براعمه ببطء، وكان من نوع طري، فتمدد مبتسماً لها، وفي النهاية خاطبها قائلاً:

«تبدين الآن كما لو أنك تنتمين إلى البحر».

فأجابته:

«أنا كذلك، وسأرجع إليه في يوم من الأيام».

في تلك اللحظة، تمثل البحر لها عاشقاً عظيماً مثل سيغموند، لكنه أكثر تجرداً يستطيع أخذها إذ يُخفِق سيغموند. استمتعت للحظة بتلك الفكرة بينما راح سيغموند يتأملها مبتسماً، وبرعم فرحه قوياً معافى. فقالت له هيلينا مادة يدها له:

«تعال!».

نهض على مضض تقريباً من سباته العميق المثمر.

الفصل العاشر

حمل سيغموند الأحذية والجزم بينما كانا يتجولان على الرمل باتجاه الصخور، وكان ثمة إحساس لذيذ بالخطر في تسلقهما بأقدام عارية فوق ذلك الخليط الناعم الوعر من الصخور. ضحكت هيلينا على نحو مفاجئ بسبب الخوف عندما أحست بنفسها تتزحلق، وكان قلب سيغموند يقفز كقلب طفل من الاثارة عندما راح يمد نفسه الى الامام، متجشماً الخطر، كي يساعدها. وعلى هذا النحو استمرا يمشيان الهوينا، وغالباً ما كانت تناديه ليقترب منها ويراقب برك الماء الصخرية الصغيرة الجميلة الملونة ببراعم شقائق النعمان الحمر والبنية اللون، والتي لم تكن تبدو غير ظلال مستترة بحرير بحري أخضر رقيق. أحب سيغموند أن يلكز الحصى الأبيض وأن يُفزع السرطانات الصغيرة القابعة في الفجوات المظللة خلال الأعشاب، ويزعج شقائق النعمان المتحفزة فتطبق على إصبعه على نحو مفاجئ. ولكن هيلينا أحبت أن تراقب الأشياء دون أن تمسها. وكانت الشمس عندئذ تنحدر خلف الصليب في الأفق البعيد نحو الغرب، والضوء يستحم في لجينٍ وذهبٍ على سطح الماء اللامع. وفي النهاية مد سيغموند بصره قلقاً مسافة ميلين حيث تمتد الكتل الصخرية المطلية المتلألئة، وجلست هيلينا على صخرة تغمس قدميها في بركة دافئة مستشعرة ملمس الأعشاب البحرية الطرية التي تشبه قماش القطيفة.

قال لها:

«ألا تعتقدين أن من الأفضل أن نتسلق الجرف؟».

تأملته مبتسمة بعينين لا مباليتين ثم ضربت الماء بقدميها، وتفحصت أصابع قدميها الوردية. كانت سعيدة على نحوٍ طفولي مضحك، وسألته بابتهاج:

«ولماذا يجب علينا أن نفعل ذلك؟».

راقبها متأملاً إياها، فقد أشعرته لا مبالاتها الطفولية بالعواقب الممكنة بإحساس المسافة بينهما، فهو قد يمرح بمظهر الحياة اللذيذ الدافئ، ولكنه يهتم دائماً بكتلة البرد القاسية تحته، كتلة الحياة المجردة من العاطفة تجاه الفرد، المجردة من الإحساس به.

لقد استهوتها التوافه والدمى، غوامض الأشياء وسحرها، وما كانت لتمتلك الحياة فتقسو عليها، فهي إما أن تكون جميلة وخيالية، أو غريبة أو مبهمة، أو أن تكون حقيرة ومبتذلة دون التصور.

كان عليه أن يستشعر بإحساس شقائق النعمان، وأن يكتسب معرفة متعاطفة لتجربتها في دمه قبل أن يكون مقتنعاً. فقد كانت شقائق النعمان شكلاً جميلاً رائعاً آخر في مشكال هيلينا.

جلست ترطب قدميها الورديتين في الماء غير واعية بكربه. واعتصم بالصبر إزاءها وهو لا يستطيع إطلاقاً أن يجذب انتباهها، فقال لها بهدوء:

«هيا، إنك تبدين كما لو كنت في سن السادسة اليوم».

ضحكت بينما تركته يرفعها، ثم استكانت إليه مبتسمة بطريقة فضولية براقة. قبلها بكل إحساس الأبوة الذي كان حياً على نحوٍ حزين في داخله، وقال لها:

«والآن ارتدي جواربك».

فردت ضاحكة:

«ولكن قدمي مبتلتان».

جثا على الأرض وجفف قدميها بمنديله، بينما جلست هي تداعب شعر رأسه بأطراف أصابعها، وأخذ ضوء الشمس يغدو ذهبياً أكثر فأكثر، وقالت له:

«أنا أحسد المتوحشين لأنهم حفاة الأقدام».

«ليس ثمة زجاج مكسور في العراء، أو الأمر كذلك».

وفيما هما يجتازان الرمال، سلكت أسرة كاملة الطريق المحاذي للجرف، نزل أفرادها على نحو مبعثر في طابور منفرد مثل صف في المسرح، صبيان ثم طفلة صغيرة تلاهم الأب وفتاة أخرى ثم الأم، وخلفهم ثمة كلب يهرول محترساً شاكاً في إمكانية قدرته على النزول. اندفع الصبيان يصرخان باتجاه الخليج وتبعهم الكلب نابحاً، أما الصغيرة فقد انتظرت والدها وهي تصرخ بحدة:

«لن تسقط تيس الآن، أليس كذلك يا أبي، فهل أنزلها الآن؟».

فرد الأب:

«نعم، دعيها تركض».

وبعناية فائقة، أنزلت الفتاة الهريرة التي كانت تحملها قريباً من صدرها. كانت المخلوقة الصغيرة مرتبكة وخائفة، واستدارت حولها بحزن، فقالت لها الطفلة:

«هيا يا تيسي، إنك الآن على ما يرام، هيا اركضي على الرمال».

وقفت الهريرة مترددة وتعيسة، ثم رأت الكلب أمامها بمسافة فركضت خلفه، كانت مخلوقة مسرعة مجعدة الشعر، ولكن الكلب

سبقها ودخل الماء، فمشت الهريرة بضع خطوات وهي تحرك وجهها الصغير ذات اليمين وذات اليسار، وتموء على نحو مثير للشفقة. بدت صغيرة على نحو استثنائي، شيء مجعد بحجم اليد، وهي تقف مذعورة من الماء الصاخب، فتطفو صيحتها الواهنة فوق تناثر الأمواج.

نظرت هيلينا إلى سيغموند بعينين يملؤهما الأسى، وهو يراقب الهريرة ويبتسم قائلاً:

«إنها تصرخ لأن الأشياء هائلة الحجم لا تستطيع استيعابها».

«ولكن انظر إليها كم هي خائفة».

فرد ضاحكاً:

«وأنا أيضاً، وإذا كان ثمة آلهة يراقبونني الآن ويضحكون، فإنهم على الأقل لن يكونوا رحماء معي إلى الحد الذي يضعوني في مآزرهم...».

فضحكت بحيوية وهتفت:

«ولكن لماذا؟ لماذا تريدهم أن يضعوكِ في مئزر؟».

فرد ضاحكاً:

«لأنني لا أريد ذلك».

على قمة الجرف، كانا وحيدين بين خليجين، بين الماء الأزرق الغامق إلى اليسار، في حين امتد على اليمين الماء الذهبي الرقراق نحو الشمس، كان سيغموند يبدو وكأنه مغموس حد الخصر في الظل، ووجهه براق ومتوهج. كان يراقب المشهد بجدية ثم قال لها:

«أريد أن أمتصه كله؟».

وعندما استدارا في النهاية، همهمت هيلينا ببطء:

«نعم، إن المرء يستطيع أن يستعيد في ذهنه التفاصيل كلها، ولكن ليس بوسعه أن يستعيد الظروف إطلاقاً».

تأمل مفكراً للحظة ثم قال لها:

«يا للغرابة، أنا أستطيع تذكر الأجواء لا التفاصيل. إنها تمثل لحظة عندي وليست قطعةً من منظر. يجب أن أقول إن الصورة في داخلي وليست هناك في الخارج».

ومن دون أن تزعج نفسها كي تفهم - إذ كانت تميل إلى اعتباره حشواً في الكلام - أصدرت صوتاً قصيراً يدل على الموافقة، فاستنتج قائلاً:

«هذا هو السبب الذي يجعلك تريدين الذهاب مجدداً إلى مكان ما، بينما لا أهتم أنا بالأمر كثيراً لأني أحمله معي».

الفصل الحادي عشر

قررا أن يشقا طريقهما عبر الممرات المؤدية إلى خليج الوم. ومن ثم، وقد وضعا صليب الكنيسة علامة أمام بصرهما، عزما على أن يعودا فوق التلال، بينما ظل القمر ينساح رحباً على الماء أمامهما، لأن القمر كان يظهر متأخراً. ومع ذلك فقد ارتفع الشفق أسرع مما توقعا.

كان الطريق يتلوى بين المروج والأراضي الموحشة وغياض الأشجار. طريق صغير عنيد، مبهم تماماً، لذلك فقدا علامتهما الأرضية البعيدة: الصليب الأبيض.

تسرب الظلام خلال ضوء النهار، وعندما وصلا في النهاية إلى علامة على الطريق، كانت الدنيا قد أظلمت تماماً إلى درجة أنهما لم يستطيعا قراءتها. كانت الإشارات تندغم مع الغسق كلما أمعنا النظر فيها.

قالت هيلينا:

«يجب أن نتجه نحو اليسار».

إلى اليسار، كانت التلال ترتفع ناعمة رمادية اللون، ولكن قممها كانت سوداء مجللة بنباتات الرتم(*) التي تبدو مثل عملاق أسود يضطجع نائماً بينما يقبع نبات جلد الدب فوق كتفه.

(*) الرتم: نبات له أشواك وأزاهير صفراء اللون.

ثمة ممرات طباشيرية شاحبة تمتد جنباً إلى جنب عبر المرج. وبعد أن تسلقا التلال، وصلا إلى حفرة جير مهجورة تمكنا من عبورها. وبعد أن اجتازا بيتاً ريفياً منعزلاً تسلقا جنب التل المنفتح حيث طغى عليهما إحساس بالاتساع والحرية. وقال لها سيغموند وهما يجوسان نحو الأعلى على غير هدى:

«يمكننا أن نهتدي إلى طريقنا أثناء الليل».

لم تكن هيلينا لتهتم باتجاهها، فكل الأماكن في ذلك الليل الكبير الهادئ كانت بيتها، وهي ترحب بها. اقتربا أكثر فأكثر من عباءة الرتم الخشنة، فقال لها سيغموند:

«لابد من وجود ممر خلاله».

لكنهما عندما وصلا، لم يجدا أي ممر، بل واجههما جدار لا يمكن اختراقه من نبات الرتم يرتفع إلى أطول من قامة سيغموند الذي خاطبها قائلاً:

«ابقي هنا، بينما اذهب لأبحث عن طريق خلاله، أخشى أنك ستتعبين».

وقفت وحيدة قرب جدار الرتم، وابتدأت الأضواء التي كانت تومض أثناء الغسق تشتد توهجاً بحيث ابتدأ البيت الريفي الصغير القابع أسفل التل بالتوهج متخذاً هيئة واضحة في الليل، وتحول البحر البعيد الخفي إلى طريق واسع وغامض، تتحرك ذرات ضوئه ببطء ورابطت مصابيحه الكبيرة وسط الظلام.

أرادت هيلينا أن يُمسح شحوب النهار تماماً من الغرب. لقد كانت تريد ليلاً أسود معتماً، يستطيع أن يمحو كل شيء باستثناء سيغموند، فسيغموند يمثل ما يعنيها من العالم. إذ أن الظلام والرتم والتلال وذرات الضوء، تبدو كلها وكأنها تنم عنه. انتظرته كي يرجع، فقد كان من الصعب عليها أن تتحمل ظرف الانتظار الشديد.

ولقد جاء خفياً بملابسه الرمادية ولكنها أحست بقدومه. قال لها:

«لا فائدة، ليس هناك من أثر لممر، ولا مهرب أرنب».

فردت بهدوء:

«إذن سنستريح قليلاً هنا».

فأشار ساخراً:

«هنا، على تل الخلدان(*) هذا؟».

جلسا في فسحة صغيرة بين نباتات الرتم، حيث كان المرج ناعماً جداً، والظلام يبدو أشد عمقاً. كان الليل مشبعاً برائحة الظلام الباردة وعبير التلال العبق الحميم الممتزج برائحة زهر العسل والرتم وعبير السرخس.

استدارت هيلينا إليه، مستندة بيدها على فخذه، وسألته بنبرة متسائله فرحة:

«في أي يوم من الأسبوع نحن؟».

ضحك سيغموند وقد فهم قصدها وقبلها، ولكنها ألحت عليه قائلة:

«ولكن حقاً؟ ما كنت لأصدق أن العلامات يمكن أن تسقط عن كل شيء على هذا النحو».

ضحك مرة أخرى، وكانت ما تزال منحنية باتجاهه، مستندة بثقلها على يدها، موقفة تدفق الدم إلى فخذه.

«لقد اعتادت الأيام أن تمر في موكب مثل الدمى السبع، كل واحدة منها بترتيب وزيّ معين، فتدور من حولها إلى ما لا نهاية». ضحكت مسرورة بالفكرة وأردفت قائلة: «يا له من أمر غريب حقاً،

(*) تل ينتج من التراب الذي تستخرجه فئران المناجذ أثناء حفرها لجحورها.

أن تصهر النهارات والليالي في قطعة واحدة، كما لو أن عقرب الساعة لا يدور إلا مرة واحدة فقط طوال الحياة».

فاعترف متأثراً ببلاغتها:

«هكذا يبدو الأمر». وأضاف قائلاً:

«لقد مزقت كل العلامات المميزة للأشياء، وهي مختلفة كلها. وهذا الصباح بالذات يبدو من السخف الحديث عنه، لماذا يتوجب علي أن أوزع إلى أصباح وأماسٍ وليالٍ، فأنا لست مخلوقاً من مقاطع الزمن. والآن تتسابق الليالي والنهارات فوق رؤوسنا تسابق ظلال السحب وشروق الشمس فوق البحر، ونحن غافلون عن ذلك طوال الوقت».

شبكت ذراعيها حول رقبته، وذكَّره وخزٌ مفاجئ في ساقه بشدة ضغطها عليه. حبس نَفَسَه من الألم بينما كانت تقبّل عينيه برقة. وضعا خداً على خد، يتأملان النجوم، وشعر بإحساس رائع ممتلئ بالمتعة، وجِدَّةٌ في الإحساس وامتلاء رائعٌ رقيق يشبه الموسيقى. قال لها مكرراً نفسه:

«أتعرفين... الحق أنك نسجت كل الأشياء في قطعة واحدة من أجلي. إن الأشياء ليست منفصلة عن بعضها بل هي في تناغم وفي حالة حركة مستمرة، وأنت الحافز في كل شيء».

تمددت هيلينا إلى جانبه وقد وضعت نصف جسدها فوقه، حزينة من فرط الغبطة، وقالت له مدفوعة بخيلاء المعجب:

«يجب أن تكتب سيمفونية عنا».

أجابها:

«في وقت ما، لاحقاً، عندما يتوافر الوقت».

فهمهمت قائلة:

«لاحقاً؟ بعد أي شيء؟».

أجابها:

«لا أعرف، إن هذا لأمر براق جداً، لا نستطيع رؤية ما بعده».

أدار وجهه نحو وجهها، وخلال الظلام، ابتسم في عينيها اللتين كانتا قريبتين جداً منه، ثم قبلها قبلة طويلة عميقة، واضطجعا ورأسها على كتفه، يراقب النجوم عبر شعرها. وقال لها بنبرة الفرح المتسائلة المجردة نفسها:

«أتساءل أنّى يتوافر لجسدك مثل هذا العطر الطبيعي الرائع؟».

أجابته:

«ألا تمتلك جميع النسوة ذلك؟».

وترددت في صوتها مرة أخرى تلك النبرة الثاقبة المزمارية الغريبة التي تشبه النحاس الأصفر مرة أخرى:

قال لها لامبالياً:

«لا أعرف. ولكنك تفوحين عطراً يشبه رائحة البندق؛ لب البندق الطازج مع نفحة من عطر الخشخاش...».

واستمر يستنشقها بفمه المفتوح، شارد الذهن، مستغرقاً فيها تماماً.

همهمت بشوق، غير قادرة على السيطرة على نبرة صوتها عند الحديث:

«أنت غريب الأطوار... جداً».

فرد عليها ببطء:

«أعتقد... أستطيع أن أرى النجوم تتجول عبر شعرك. ابقي ساكنة، إذ لا يمكنك رؤيتها».

تمددت هيلينا مذعنة ساكنة تماماً بينما استمر في نغم رتيب بطيء:

«اعتقدت أن بامكاني مراقبتها وهي تسير فتدب مثل ذبابٍ ذهبي على السقف، ولكنك تنكثين شعرك الآن فتسرع النجوم».

ومن ثم، وكأن فكرة جديدة طرأت على باله، أضاف قائلاً:

«هل لاحظت أنك لا تستطيعين تمييز الكواكب وأنت مضطجعة هكذا؟».

«لا أستطيع أن أرى أياً منها، بل لا يمكنني تحديد الشمال».

ضحكت من فكرة استجوابه لها بخصوص هذه الأشياء. كانت ترفض فكرة تعلّم أسماء النجوم أو الكواكب أو النباتات المبثوثة جنب الطريق، إذ كانت تردد «لماذا يتوجب علي أن أسميها؟ إني أفضل أن أتأملها، لا أن أخفيها تحت اسم ما»، لذلك ضحكت عندما طلب منها أن تجد نجمة النسر الواقع أو السماك الرامح بينما استمر سيغموند حالماً:

«يا لامتلاء السماء! ... إنها مثل شارع مزدحم. المكان من حولنا يبدو مقفراً مقارنة بها. ها قد وجدنا يا هيلينا مكاناً أكثر هدوءاً وعزلة من النجوم، أليس رائعاً أن نكون هنا، والسماء جارنا القريب؟».

تساءلت بأسىً:

«هل فعلت الصواب عندما دعوتك للمجيء إلى هنا؟».

فاستدار نحوها وأجابها بنعومة:

«مثل حكمة الله في دقتها. أعتقد أن بضعة ملائكة متخفين هم الذين جلبونا إلى هنا ـ هرّبونا!».

وسألته:

«وهل أنت سعيد؟».

فضحك قائلاً:

«استمتع بيومك. لقد قطفنا الجمال يا عزيزتي، وبهذه الوردة في عروة سترتي أتجرأ على الذهاب إلى الجحيم أو إلى أي مكان آخر».

فسألته بحزن:

«ولم الجحيم يا سيغموند؟».

فضحك وقال لها:

«أعتقد أنها النتيجة، لقد فشلت في كل شيء آخر يا هيلينا، ولكن يومنا هذا وردة لم يجنها الكثير من الرجال».

قبلته بحنان وابتدأت تبكي بطريقة سريعة مكتومة، فهمهم قائلاً:

«وماذا يهم يا هيلينا، ماذا يهم، إننا الآن معاً».

أثارت فيها نبرة سيغموند الهادئة عاطفة مشوبة بالحزن، وأحست أنها يمكن أن تفقده، احتضنته بقوة، وانفجرت في نشيج لا يمكنها السيطرة عليه. لم يفهم سبب بكائها ولكنه لم يقاطعها، بل أمسك بها واحتضنها بقوة وتأمل، عبر شعرها المرتجف، نحو السماء الساكنة. حنى رأسه عليها، ورأى وجهها وشفتيها مثقلتين بالحزن، ثم ابتدأت تهدأ قليلاً. أحس بخده رطباً من دموعها، وبين خدها وخده، نسجت خشونة من شعرها الرطب، حكت وجهه وجعلته يسخن. سألها في النهاية:

«ما الأمر يا هيلينا، لم تبكين؟».

دفنت وجهها في صدره، وقالت بصوت مكتوم يصعب تمييزه:

«لن تتخلى عني يا سيغموند، أليس كذلك؟».

فهمهم لها بطريقة هادئة:

«وكيف يمكنني أن أفعل ذلك، ولِمَ أفعله؟».

رفعت وجهها على نحو مفاجئ، وطبعت على وجهه قبلة عنيفة، وأعاد عليها القول:

«كيف يمكن أن أتخلى عنك؟».

وسمعت صوته يهتاج، وعادت القوة إلى ذراعيه، وقد كانت سعيدة بذلك.

ران صمت كثيف فوق كل شيء، وتوقعت هيلينا أنها على وشك أن تسمع صوت حركة النجوم. كان كل شيء ساكناً تماماً في الأسفل، ولم تكن لديها أدنى فكرة عما يدور في ذهن سيغموند. اضطجع وذراعاه القويتان يطوقانها، وسمعت نبضات قلبه وتخيلتها مثل أصوات الطلقات النارية المكتومة، وأحست بدهشة الخوف والإثارة نفسها مختلطة بإحساس الانتصار. لقد تغير سيغموند مرة أخرى وانقلب مزاجه. ولم يعد يتجول في ليل الأفكار، بل أصبح مختلفاً مبهماً بالنسبة لها. لم تكن لديها أدنى فكرة عما يفكر أو يحس به. كل ما عرفته أنه كان قوياً، وأنه يدق بإلحاح بقلبه على نهديها، كما لو كان رجلاً يبغي شيئاً ما ويخشى أن يرد. أنى تأتى له أن يكون عجولاً ملحاحاً، كان ذلك أمراً حارت في فهمه، وبدا لها هاجساً غامضاً مبهماً. ومع ذلك، غمرتها السعادة، وسرَّ قلبها، وأحست بالانتصار والتجدد. ولكنها تساءلت بحزن مرة أخرى، أين سيغموند الذي كان معها قبل عشر دقائق؟ ونَبَضَ قلبها قليلاً بلهفة كي ينخلع مرة أخرى بهلع. إن هذا السيغموند مبهم تماماً. ومرة أخرى، عندما رفع رأسه ووجد فمها، ملأتها شفتاه بتدفق حار مثل الشراب، دفق ملتهب حلو في كل جسدها، رائع إلى درجة كأنها لم تكن سوى لهب ناري وردي هش تسلط عليه للحظة أو اثنتين. وقد استنتجت أن ذلك سمو فائق الروعة.

اختفت أضواء البيت الريفي الصغير في الأسفل، وتلاشت البواخر التي تشبه بقعاً صفراء ولم يبق إلا ضوء الميناء في الأفق يشرق على سطح مياه البحر السوداء، مثل قطعة نجم مكسور فوق رأسيهما كانت النجوم بلونها الرمادي الفضي، وفي الأسفل يمتد اسوداد الليل والبحر الذي يشبه القطيفة.

وجدت هيلينا نفسها تدندن بمقطوعات من الشعر، وهي تتأمل البحر، وعندما رنت إليه عن قرب، تلألأ البحر بسبب انعكاسات النجوم بلون يشبه الغبار.

صمتٌ عميق يخيم على الماء

وبلا حراك يسكن البحر.(*)

كانت مغرمة بشذرات الشعر الألماني التي تحفظها، ولم تكن تحس بعاطفة تجاه الشعر الفرنسي، ولكن يبدو وكأن «غوته» و«هاينه» و«أولاند» يتحدثون لغتها:

الهواء بارد، والظلام بهيمٌ

وبكل سكينة، ينساب نهر الراين.

ولقد أحبت هاينه أكثر من البقية:

كأحلام الأطفال، أراها تتلألأ

في الأمواج المصطخبة

تلك الذكريات القديمة، لتقص علي من جديد

عن لعب الأطفال الجميلة

(*) هذه الأشعار وما يليها ثبتها لورنس بأصلها الألماني في متن الرواية، ومعظمها يعود للشاعر الألماني (هنريخ هاينه) الذي ولد عام 1797 وتوفي عام 1856، وتمثل أشعاره الغنائية مثل ديوانه (كتاب الأغنية) وصفاً طبيعياً حياً مع خليط من العاطفة والسخرية. وأعدت بعض أشعاره موسيقياً من قبل (شوبرت) و(شومان). ويظهر نثره فطنة لاذعة وإدراكاً نفاذاً لمشاكل الحياة اليومية آنذاك.

وعن كل هدايا عيد الميلاد البراقة.

وعندما اضطجعت مرة أخرى بين ذراعي سيغموند ـ الذي كان ساكناً تماماً، يحلم بما لا تعرفه ـ برقت قطع شعرية مثل هذه، واختفت كوميض نجم ساقط فوق الماء، وزحف الليل خلسة عبر السماء. وعلى نقيض النهار لم يصدر صوتاً، ولم يعط إشارة بل مر متخفياً فوقهما، حتى استعد القمر للتقدم، عندها جفلت السماء ناحية المشرق، وتجمع حشد صغير من السحب حول البوابات المفتوحة:

من أقصوصة قديمة

تومئ يد بيضاء، وتغني وتتحدث

عن بلدٍ ساحرٍ عجيب.

غنت هيلينا هذا الشعر لنفسها، بينما رفع القمر نفسه من بين السحب. ووجدت نفسها تردده بصوت عالٍ وبنغم رتيب ومتردد مثلما يفعل الأطفال.

خاطبها سيغموند قائلاً:

«ما الأمر؟».

كان كلاهما مستغرقاً في سكونه الخاص، لذلك مرت لحظة أو اثنتان قبل أن تعيد ترتيب نغمها الرتيب بنبرة أعلى قليلاً. لم يصغ إليها، ونسي أنه قد وجه لها سؤالاً، فقالت له عندما أنهت تلاوة الشعر:

«أدر رأسك، وانظر إلى القمر».

أعاد رأسه إلى الخلف مرة أخرى بحيث سقط شحوب مضيء على ذقنه وجبينه، وظلال سود عميقة فوق عينيه ومنخريه. وقد أدهش ذلك هيلينا بإحساس من الغموض والسحر، فقالت لنفسها نشيطة وسعيدة على نحو مثير:

«الأزهار الكبيرة تذوي عطشاً»(*). ثم أردفت:

«تتفتح الأزهار الكبيرة ببتلات(**) فضية وسود يا سيغموند وأنت الأزهار الكبيرة يا سيغموند. وجهك وجه العريس، مثل زهرة ذات بتلة لحمية متلألئة سوداء يا سيغموند، وهي تبرعم في أرض السحر يا سيغموند. فهذه هي بلاد العجائب!» وبينما كانت تردد عبارات النشوة الهامسة هذه، راحت تقبله على نحره في الظل، وعلى خديه المتألقين على نحو باهت. تمدد ساكناً، وقلبه ينبض مهموماً، فقد كان خائفاً تقريباً من النشوة الغريبة التي صبتها عليه. وفي الوقت نفسه، همست له بعبارات حادة، متقطعة الأنفاس بالألمانية والإنكليزية وهي تمسه بفمها وخديها وجبينها.

«وتصدح أغاني الحب... ليس الليلة يا سيغموند. الكل ساكن، الرتم والنجوم والبحر والأشجار، كل الأشياء تقبّلك يا سيغموند، البحر يضع فمه على الأرض، والرتم والأشجار ملتحمان معاً، والجميع يتأملون القمر، ويرفعون وجوههم جميعاً ليقبلونه ياعزيزي، ولكنهم لا يمتلكونك، وكل شيء يتجمع فيك ياعزيزي، كل الحب المدهش فيك، أكثر مما فيهم جميعاً، ياسيغموند ـ ياسيغموند!»

أحس بالدموع تتساقط عليه وهو مضطجع وقلبه يخفق بنبضات ثقيلة بطيئة من نشوة حبها. ومن ثم، انحنت وانكبت عليه، منهمكة، ملتصقة به، مرتفعة ومنخفضة بفعل حركة تنفسه الجميلة القوية، متأرجحة بهذا الشكل على قوته، ثم غطست في إغماءة هادئة.

عندما عادت إلى وعيها، تنهدت بعمق، وأحست بأنفاس حياته

(*) بالألمانية في الأصل.
(**) البتلة: ورقة من أوراق التويج.

الرقيقة في داخلها، فقالت تخاطب نفسها، وقد اتسعت عيناها من المتعة:

«لقد كنت ما وراء الحياة، واقتربت كثيراً من الموت».

واضطجعت مبهورة دهشةً تفكر في أنها قد عادت إلى سعادة رائعة هادئة.

وفجأة أدركت أنها لابد قد ابتدأت تثقل حياة سيغموند فقد طال الزمن بين ارتفاع نَفَس وآخر. ذاب قلبها في رثاء حزين، فاستندت على يديها وقبلته، قبلة مؤلمة طويلة، كما لو أنها تصهر روحها في روحه إلى الأبد. ثم نهضت وتنهدت، وتنهدت مرة ثانية بعمق، وشبكت يديها على رأسها وتأملت القمر. وهمس قلبها كما لو أنه يتنهد هو الآخر:

«لا أكثر، لا أكثر».

نظرت إلى سيغموند الذي كان مستغرقاً في تنفس ثقيل، واستقر ساكناً على ظهره محملقاً فيها، بينما وقفت ساكنة إلى جانبه تتأمله. شعر بالذهول وهو نصف واع، ومع ذلك، وفيما هو مضطجع ينظر إليها عاجزاً، كان بعض من وعيه الآخر يهمهم في داخله:

«حواء يا أمنا!».

أطلت بحنان من فوقه، ومن دون أن تمسه، بدت وكأنها تشفق عليه مثل أم. كان حنانها ولطفها يجعلانها مختلفة عن هيلينته الصغيرة. هذه المرأة طويلة وشاحبة ومنحنية بقوة عاطفتها، وبدت أزلية وليست كائناً بشرياً هشاً بل تجسيداً للأمومة العظيمة في النساء. فهمهم حالماً مثل طفل يدمدم بلا وعي في نومه:

«أنا طفلها أيضاً».

لم يشعر بعينيها بهذا القدر من قبل في الظلام عندما استغرق

في ظلالها العميقة فقط. إنها لم تدخل من قبل مطلقاً بهذه الطريقة فتجمع روحه الرجولية الكئيبة في حضن رعايتها. ثم قالت بلطف عندما أدركت أنه قد استعاد وعيه:

«هل نذهب؟».

نهض بصعوبة وهو يستجمع قوته.

أ

الفصل الثاني عشر

بذل سيغموند جهداً هائلاً ليبقى مسيطراً على جسده. وعندما نهض، بدا منحدر التل والرتم، وكأنهما يتراجعان إلى غموض مظلل من حوله. وكانت هناك أكداس معتمة عديمة المعنى بدت كبيرة جداً على مسافة منهما.

وهمهم ذاهلاً مع نفسه:

«لا أستطيع الإمساك بها».

أحس أنه منفصل عن الأرض وعن كل الأشياء الحبيبة الصلبة الحميمة، كما لو أن هذه الأشياء قد ذابت بعيداً عنه، وتركته مريضاً وأعزلَ ووحيداً في مكان ما على حافة فراغ هائل. أراد أن يضطجع مرة أخرى كي يحرر نفسه من الجهد المقرف الذي يبذله في تثبيت جسده والسيطرة عليه. آه لو استطاع أن يضطجع مرة ثانية بسكون، لما احتاج عندها أن يصارع من أجل أن ينشط مادة جسمه المرهقة، وبالتالي، فلن يشعر بأنه مريض وخارج نفسه على هذا النحو.

ولكن هيلينا كانت تتحدث معه، وتخبره بأنهما سيريان ممر القمر، وأنهما يجب أن ينزلا التل. أحس بذراعها يلتف حول خصره بقوة ومتعة، فهنالك كان مستنده الدافئ ومستقره. وأحس سيغموند بتدفق حميم من التوق المشفق نحوها، وهي تمشي

طافية الأقدام إلى جانبه، محتضنة إياه بسعادة غامرة وغير واعية كلياً.

لقد سحبته شفقته عليها وجعلته أقرب إلى الحياة.

كان يرتجف قليلاً بين الفينة والأخرى، بينما كانا يتقدمان متمايلين وهما يهبطان التل. وأطبق فكيه بقوة كي يكتم ارتجافه. ولم يكن ذلك في أطرافه، ولا حتى على سطح جسده، لأن هيلينا لم تلحظ ذلك. ومع ذلك، فقد ارتجف متألماً في داخله، وسأل نفسه مدهوشاً:

«ما الأمر؟».

كانت أفكاره تتكون من تلك العبارات المنفصلة التي كان يقولها شفاهاً لنفسه بين فترة وأخرى، كان واعياً فقط بإحساس مرضي لا يطاق، مثل رجل يشعر أنه قد أُخرج لتوه من تحت مخدر، رغم إحساسه على نحو غامض بضجة صاخبة من الحيوية في داخله، مثل تلك التي يسمعها المرء من خلية نحل مغلقة.

تأرجحا بسرعة منحدرين من التل، وكان سيغموند ما يزال يرتجف، ولكن ليس بشكل غير مسيطر عليه. وصلا إلى مزْقيً عليهما أن يتسلقاه، وعندما خطا فوقه احتاج إلى جهد إرادي مركّز كي يثبت قدمه على المنحدر. كان الجهد هائلاً بحيث أنه أصبح واعياً به. قال لنفسه:

«يا الله! ما الأمر يا ترى؟».

حاول أن يفحص نفسه. أحصى كل أعضاء جسده، عقله وقلبه وكبده. لم يكن هناك ألم. وليس هناك من عطب في أي منها، فقد كان متأكداً من ذلك. وبدد بحثه المعتم نفسه إلى عبارة منفصلة أخرى، فردد مع نفسه «أنا لا أعاني من شيء». ثم استمر هائماً، مستعيداً الإحساس بالمرض المرهق الذي يتبع في بعض الأحيان

الإفراط في الشرب، ومفكراً في الأوقات التي سقط فيها مريضاً، وهمس لنفسه:

«ولكني لست كذلك، لأني لا أشعر بالارتجاف، وأنا متأكد من أن يدي ثابتة».

وقفت هيلينا ساكنة كي تستدل على الطريق. مد يده أمامه، فكانت ساكنة مثل زهرة ميتة في ذلك الليل الصامت. وقالت له:

«نعم، أعتقد أن هذا هو الطريق الصحيح».

وابتدآ المشي ثانية كما لو أنهما مبتهجان.

وقال سيغموند لنفسه:

«إن الأمر يبدو مهلكاً بالتأكيد». وتذكر بطريقة واضحة عندما أصيب بالخناق وهو طفل، حيث أَجْهَد نفسه في ألم فظيع، حتى أحس ـ وهنا اختار الكلمة الفرنسية ـ بالاحتضار. ولكن أمه اكتشفت ذلك فصرخت بصوت عال مما جعله يصارع على نحو مفاجئ بكل روحه كي يتخلص من معاناته. وهمهم مع نفسه:

«إن الأمر مثل ذلك بالتأكيد. إنه لمهلك بالتأكيد. يا ترى ما كنهه؟»

ومن ثم، استعرض ما حدث له خلال الساعة الأخيرة، ولكن هيلينا قاطعته قائلة:

«أعتقد أننا أضعنا الطريق».

فأجابها لا مبالياً:

«ضعنا! وماذا يهم؟».

وسحبته هيلينا إليها في نوع من الانتصار، فأضاف قائلاً:

«ولكن ألم نأت من هذا الطريق؟».

كان صوتها رناناً ممتلئاً بعاطفة محتبسة عندما ردت:

«لا، انظر، إننا لم نسلك بالتأكيد هذا الممر العاري الذي يعلو وينخفض».

«حسن إذن، يجب علينا أن نستمر نحو الشرق باتجاه نبع القمر الجميل قدر استطاعتنا».

قال سيغموند وهو ينظر إلى التلال الممتدة أمامه حيث كان القمر يتصارع بشجاعة كي يحرر نفسه من حزمة من السحب التي كانت تطبق عليه مثل ذئاب على غزال أبيض. وبينما هو يتأمل القمر أحس بشعور من الرفقة. أما هيلينا التي لم تفهم ذلك، فقد تركته وحيداً، إذ كان القمر أقرب إليها.

استمر سيغموند باستعراض الساعات الأخيرة. كان سعيداً على نحوٍ مدهش، فقد امتلأ العالم بسحر جديد، جليل ومهيب ومدهش أحس به للمرة الأولى، وظل لساعات طوال يتجول في عالم بدائي رائع آخر، قائلاً لنفسه:

«أعتقد أني عشت حياة ممتلئة. إذ يبدو وكأني استضفت النجوم والقمر وكل شيء آخر، أما الآن وقد انصرف الجميع، فقد أصبح بيتي مهجوراً!» لذلك تصارع مع نفسه كي يميز حالة الإشراق والمرض التي تنتابه واستعرض ساعات حبه مع هيلينا، وخاطب نفسه قائلاً:

«بالتأكيد، لقد تجرعت الحياة حارة جداً، وأضر ذلك كأسي، إن روحي لتنزف على ما يبدو ـ فأنا نصف هنا ونصف اختفى، وهذا هو السبب الذي يجعلني أفهم الأشجار والليل بهذه الطريقة المؤلمة».

ومن ثم، وصل إلى ساعة نشوة هيلينا عليه، ولقد ملأه ذلك بطريقة ما، بحزن حنون. كان فرحاً مركزاً في قطرة واحدة لاذعة، لذلك فإن ما كان يفترض به شراباً منشطاً تحول إلى سم زعاف مر، ولكن وعيه، الذي كان نشيطاً على نحو استثنائي، أصبح متبلداً الآن، وأحس بالدم يتدفق بعنف على امتداد أطرافه مرة أخرى

ويسكن مخه، فيكنس في طريقة مرضه ويشفيه. وهمهم مع نفسه للمرة الأخيرة:

«أفترض أن عيش حياة ممتلئة يقتل المرء بطريقة أو أخرى».

ثم نسي سيغموند بعد ذلك كل شيء. فتح عينيه فرأى الليل يلفه، والقمر هرب من حزمة السحاب، وها هو يشع خلف غلالة رقيقة كانت تتلألأ بأشعته، مزخرفة بهالة براقة كبيرة جداً، بل أكبر هالة رآها سيغموند على الإطلاق. وعندما أصبح الممر الصغير بمواجهة القمر تماماً، بدا وكأن سيغموند، وهيلينا سيجتازان قوساً من الطراز المغربي كبيراً يشبه حدوة الحصان بينما تنفرج الهالة البيضاء الكبيرة أمامهما. استمرا في المشي، ميممين وجهيهما شطر القمر، مبتسمين بدهشة ونشوة واهنة، حتى انعطف الممر الصغير مرة أخرى معانداً، فأصبحا يتمشيان باتجاه الشمال. شاهدت هيلينا ثلاثة أكواخ تجثم تحت التل وبين الأشجار كي تخفي نفسها من سحر ضوء القمر، فقالت منتصرة:

«إننا لم نسلك هذا الطريق من قبل مطلقاً».

وأدهشتها فكرة ضياعهما.

نظر سيغموند من حوله إلى التلال الرمادية الملطخة ببريق معتم منخفض من ضباب القمر، ولم يستطع حتى ذلك الوقت أن يدرك بأنه كان يمشي عبر ممر في جزيرة وايت، إذ بدا ما يحيط به وكأنه يعود إلى حالة ما وراء التجربة الاعتيادية، مكان ما في قصص المغامرات العاطفية، أو بين التلال حيث تضطجع برونهايلد(*) نائمة في هالتها النارية البراقة الكبيرة. فكيف يمكن أنه وهيلينا، وهما طفلان من لندن، يتجولان بحثاً عن بيتهما في

(*) برونهايلد: البطلة الأسطورية للعديد من القصص الخرافية وخصوصاً الإسكندنافية القديمة مثل (آيدا) في قصة (مغامرات فولسينكا) وقصص أخرى.

جزيرة منعزلة؟ تنهد ونظر مرة أخرى إلى قمم التلال، حيث كان ضوء القمر يتركز في أثير ضبابي هش لكنه قوي في الوقت نفسه، مذكراً إياه بالطريقة التي لابد أن تُصلب بها المنُّ من ضباب ضوء القمر الأبيض في الصحارى العربية.

قالت هيلينا:

«قد نكون في طريقنا إلى نيوبورت، فالمسافة هي عشرة أميال».

ضحكت غير مهتمة على الإطلاق بوجهة سيرهما، سعيدة بهذه الرحلة المدهشة! فها هي وسيغموند وحيدان في وحشة الليل المتلألئة خلف النهارات المسكونة والليالي! نظر سيغموند إليها، إنه لا يشاركها بهجتها بأي حال من الأحوال، إلا أنه يتعاطف معها. استمر في المشي وحيداً مستغرقاً في جديته العميقة التي لم تكن شاعرة بها، ومع ذلك، وعندما لاحظ تخليها عنه، سحبها أقرب إليه، فرق قلبه بشوق حانٍ نحوها، وأصبح مهموماً بمسؤوليته تجاهها.

تنفست الحقول عطراً كما لو أنها عادت إلى الحياة مع قدوم الليل، وبدأت تتحدث بشوق زكي الرائحة، وتجمعت المزارع لتنام مع بعضها، وسحبت الظلال المظلمة فوقها لكي تختبئ من الليل الأبيض الغريب. كانت الأكواخ مقفلة ومظلمة. وتجولت هيلينا بانتصار خلال الأرض الليلية الساحرة، باحثة بخفة عن الأرواح، مراقبةً الأكواخ التي كانا يقتربان منها، مصغية، باحثة عن أحلام أولئك الذين ينامون داخلها في الغرف المظلمة، وتخيلت أنها تستطيع رؤية وجوه الأحلام الهشة وهي تطل من الشبابيك، وتوهمت أنهم يسترقون النظر بتهيب إلى الحديقة، وراحت تركض بين الأرانب على سفح التل المتلألئ. ضحكت هيلينا لنفسها، مسرورة بولعها، بأحلامها الصغيرة العنيدة، عابثة بيدين وقدمين

واهنتين بين قطعان الماشية الكبيرة الراقدة بوقار. كانت هذه هي المرة الأولى، قالت لنفسها، التي تكون فيها لوحدها بين الأحلام المتشحة باللون الرمادي والجنّيات ذات الأذرع البيض. تخيلت نفسها نائمة في غرفتها، بينما أحلامها تنزلق مع شعاع القمر، وتخيلت سيغموند نائماً في غرفته بينما أحلامه غامقة العيون، عيونها زرق عميقة جداً، ممتلئة بالشوق الليلي، تتجول باحثة في العشب الرمادي عن أحلامها.

وهكذا نسجت أوهامها وهي تمشي. وكانت مسرورة لم يذكرها إلا تعبها الشديد من أنها قد ابتعدت كثيراً ولمسافة بعيدة. كان ذراع سيغموند يلتف من حولها ليسندها، واسترخت عليه. عبرا مرقئ، وميّزا على يسار الطريق مقبرة الكنيسة الكاثوليكية. أشرق القمر الذي قشرته الأيام وصغرته بسكينٍ قاسيةٍ حسود على الصخور البيض في أرض المقبرة، وكان المسيح المنحوت فوق صليبه معلقاً في السماء الرمادية الفضية. رفعت هيلينا رأسها إلى الأعلى مجهدة ثم انحنت على مشهد المأساة، وكذلك نظر سيغموند وأحنى رأسه.

«ثلاثون عاماً من الحب الجاد؛ حياة امتدت لثلاث سنوات مثل نشوة الحب؛ وقد انتهى كل شيء. كان عظيماً جداً ومدهشاً، أما أنا فضئيل وسوف أموت منسياً، ولكننا متشابهين: الحب والنشوة القصيرة والنهاية، ولكن حبي وردة واحدة، أما حبه فكل الجمال الأبيض».

أحس سيغموند بقلبه مثقلاً جداً، حزيناً ومذنباً في حضرة المسيح، ومع ذلك فقد استقى راحة من شعوره بأن الحياة تعامله بالطريقة التي عاملت بها المسيح رغم وضاعة وحقارة مصاعبه عندما تقارن بمأساة المسيح. خطا سيغموند بخفة إلى ظل أيكة الصنوبر وفكر مع نفسه:

«دعني أستكن تحت غطاء، دعني أختفي تحته، فذلك مناسب لي، الظلام الكثيف البهيم، فأنا ضئيل وتافه، ومأساتي صغيرة تافهة».

تقلصت هيلينا في الظلام، فقد أزعجها الأمر تقريباً، والصمت مثل حفرة عميقة. ارتدت باتجاه سيغموند، فجرّها أقرب إليه منحنياً فوقها بينما هما يتمشيان محاولاً طمأنتها. كان قلبه مثقلاً بشوق يقترب من الحزن، من أجل هيلينته الصغيرة الشجاعة.

همس لها:

«هل أنت متأكدة من أنه الطريق الصحيح؟».

فردت هامسة واثقة من جوابها:

«نعم، متأكدة تماماً».

وفي الحال خرجا تحت ضوء القمر الضبابي وابتدآ يتعثران منحدرين من سفح التل. كان كلاهما تعباً جداً، ووجد كلاهما أن من الصعب الاستمرار بيسر واطمئنان في هذا الطريق الحاد الهابط نحو الأسفل وسرعان ما راحا يزحفان بحذر عبر المرعى وحقل الدجاج. كان قلب هيلينا قد ابتدأ ينبض عندما تخيلت أية ضوضاء بهيجة ستصدرها الدجاجات إن هما أوقظوها، كانت ضجرة من أية فوضى أو تساؤل في هذا الليل، لذلك تسللت بهدوء حتى وصلا إلى الطريق العام، ليس بعيداً عن بيتهما.

الفصل الثالث عشر

في الصباح، اتكأ سيغموند بعد الاستحمام على السور البحري مستغرقاً في نوع من أحلام اليقظة. كان الوقت متأخراً يقترب من الساعة التاسعة، ومع ذلك فقد راح يتسكع حالماً متأملاً الماء الفيروزي الأزرق وضباب الصباح الأبيض وظلال البواخر الشقر الصغيرة التي تبحر متمهلة أمامه. وفي الخليج ثمة سفينتان حربيتان مثل وحشين بليدين يضطجعان بسذاجة وفضول أشبه بأسدي بحر ضالين.

كان سيغموند يحملق في البحر بطريقة نصف بليدة عندما سمع صوتاً بجانبه يقول:

«أتعرف من أين جاءت هذه يا سيدي؟».

عندما استدار رأى رجلاً هزيلاً أشقر في الخامسة والثلاثين من عمره واقفاً بجانبه يبتسم بوهن لمرأى السفن الحربية، فرد سيغموند قائلاً:

«أتعني سفن الحرب؟ هنالك العديد منها في سبتهيد».

ألقى الثاني نظرة عابرة على وجهه وقال:

«إنها تبدو نشازاً، ألا تعتقد ذلك؟ لقد تركنا البحر فارغاً ومشرقاً، وعندما عدنا ثانية شاهدنا هذه الأشياء تحملق فينا!».

ضحك سيغموند وقال مازحاً:

«آمل أنك لست فوضوياً؟».

ضحك الآخر ورد قائلاً:

«عدميّ ربما، ولكن مغرم جداً بالقيصر، هذا إذا كان الرثاء قريباً من الحب. لا، ولكن لا يمكنك الاستدارة من دون أن تجد شرطياً أو آخر عند مرفقك. انظر إليهم، خردة حديد كريهة! أحدهم مستعد دائماً أن يضع يده على كتفك».

ألقت عينا المتحدث الزرقاوان الرماديتان، الذي كان يضحك متهكماً باستمرار، نظرة على السفن الحربية ثم أضاءتا على عيني سيغموند الزرقاوين الغامقتين. أحس الأخير بقلبه يرتفع في حركة متشنجة، فهذا الغريب يتجه بسرعة نحو نوع من الحميمية المزعجة. ولقد دفع شيء ما سيغموند إلى القول:

«أفترض أننا في رعاية ... الله».

قلص الغريب عينيه قليلاً وهو يحملق بعمق في المتحدث، ثم تشدق قائلاً بفضول:

«آه!» ثم تجولت عيناه فوق شعر سيغموند المبلل وجبينه الأبيض ونحره العاري، ثم عادتا بعد ذلك مرة أخرى إلى عيني محدثه، وسأله في النهاية:

«هل أبحر القيصر عبر هذا الطريق؟».

أجاب سيغموند الذي انزعج من نظرة الثاني المخترِقة، ولأنه لم يكن يتوقع سؤالاً مبتذلاً مثل هذا:

«لا أعرف!».

ورد الرجل:

«أتوقع أن تخبرنا الصحف عن ذلك».

فقال سيغموند:

«بالتأكيد».

«ألم تره هذه الصباح؟».

«لا. منذ السبت».

اتسعت عينا الرجل الزرقاوان الناعمتان ونظر بفضول إلى سيغموند:

«هل تقضي عطلتك وحيداً؟».

«لا».

ولم يعجب سيغموند ذلك، فحملق في البحر منزعجاً.

«أنا أعيش هنا، في الوقت الحاضر على الأقل، واسمي هامسن».

سأله سيغموند:

«ألست واحداً من عازفي الكمان الأوائل في «السافوي» قبل خمسة عشر عاماً؟».

ثرثرا قليلاً بشأن الموسيقى، وظهرا أنهما يعرف أحدهما الآخر وكانا صديقين حميمين تقريباً، ولكنهما افترقا وأصبحا غريبين منذئذ، ولقد برر هامسن حديثه مع سيغموند قائلاً:

«رأيتك وأنفك مسطح على زجاج الشباك كما هو وضع أنفي تماماً، فتخيلت أننا متناسبان كي نتعارف ثانية».

نظر سيغموند إلى الرجل بدهشة.

«ما قصدته هو أنك كنت تحملق في الفراغ بشكل جاد. من

المحزن أن تحملق خارج يوم جميل مثل هذا بهذه الطريقة. ألا تعتقد ذلك؟».

فسأله سيغموند:

«أتعني أحملق ما وراءه؟».

فأجاب الآخر بضحكة ذكية:

«بالضبط. أنا أسمّي يوماً مثل هذا بالغرفة الزرقاء، إنه أقل الأماكن عرضة لتيارات الهواء في بيت الحياة المشوش المُعَرّض للتيارات».

نظر سيغموند إليه بانتباه شديد. إن هامسن هذا على ما يبدو يعبّر عن شيء ما في سويداء قلبه.

وشرح الرجل:

«ما أعنيه، هو بعد كل شيء إن كتلة الحياة العظيمة ستنتهي في وقت ما، وإن ما نسميه نحن بالموت يزحف خلال غلاف النهار الأزرق وخلال نسيجنا الأبيض، ونحن لا نستطيع إيقافه ما إن نبتدئ بالنزيف».

فسأله سيغموند:

«وما الذي تعنيه بالنزيف؟».

«الله أعلم، إني أرجم بالغيب، ولكنك ما أن تضجر من البيت حتى تلصق أنفك بزجاج الشباك وتحملق في الظلام مثلما كنت تفعل».

ورد سيغموند:

«ولكن إذا استخدمت مصطلحاتك، فأنا لست تعباً من البيت إذا كنت تعني به الحياة».

فقال الغريب وهو يرجع رأسه إلى الخلف بابتسامة براقة وقد اتسعت عيناه:

«الحمد لله، لقد التقيت شاعراً لا يخاف أن يُسرق جيبه أو روحه أو عقله».

فقال سيغموند بهدوء تام، بينما كان خوفٌ شديد ودهشةٌ يعارضُ أحدهما الآخر في قلبه:

«لا أعرف ما تعنيه يا سيدي».

«إنك لست تعباً من البيت، بل من غرفتك الخاصة، لنقل مجموعة الغرف ...».

فرد سيغموند وقد بدت على وجهه ابتسامة ساخرة:

«غداً سأُطرد من هذه الغرفة الزرقاء».

فنظر إليه الآخر بجدية وهتف:

«يا إلهي! هل تتذكر قديس فلوبير الذي نام عارياً على أبرص؟ لم أكن أستطيع فعل ذلك».

وارتجف سيغموند وقال:

«ولا أنا».

«ولكن عليك أن تفعل شيئاً من هذا أو ما يقارب».

نظر سيغموند إلى الآخر بعينين خائفتين مرتعبتين وقال له مستاء:

«ماذا بشأنك؟

«لقد تهربت، هربت من أبرصي، وأنا الآن آكل قلبي، وأحملق من الشباك في الظلام».

فقال سيغموند:

«ولكن أليس بإمكانك أن تفعل شيئاً؟».

ضحك الرجل الآخر بمتعة وهو يرجع رأسه إلى الخلف ويكشف عن أسنانه، وقال بتهكم رقيق في نبرته:

«لن أسألك عن نواياك، فمثلما تعرف إني رجل مشغول جداً، أكسب خمسمائة باوند في السنة بعرق جبيني، ولكن هذا لا ينفع، فإذا كنت قد ألفت حب الحياة الممتلئة، فإنك لن تستطيع التخلي عن ذلك، وأقصد بذلك التجربة الروحية الحية، إنها تعيش معنا في المغامرة القديمة والإثارة الجسدية».

نظر سيغموند إلى الرجل بعينين حائرتين مرتبكتين وقال له:

«حسن، وماذا بعدئذ؟».

«ماذا بعدئذ؟ إن التوق إلى الحياة الممتلئة مهلكٌ تقريباً، مثله مثل أي توق آخر، إذ أنك ستصبح عندها متوقداً، تغذي لهيبك الاعتيادي بالأوكسجين فيفترس نسيجك، ألا ترى أن السيدات العاشقات الروحانيات شبه شفافات دائماً؟».

ضحك سيغموند قائلاً:

«على الأقل أنا معتم تماماً».

ألقى الآخر نظرة على جسده الناضج المرتخي ونحره الوافي. وقال له:

«ليس تماماً، فأنت على ما أعتقد امرؤ على وشك أن ينطفئ لهيبه عندما تفتقد المُحفز».

نظر إليه سيغموند مرة ثانية مجفلاً، بينما استمر الرجل في حديثه:

«ليس لديك خزينٌ كثير، فأنت مثل شجرة تظل تزهر حتى تقتل

نفسها. ستظل تركض حتى تكبو، وعندها لن تنهض مرة أخرى، إذ ليس لديك عقل محايد يسيطر عليك ويقتصد».

قال سيغموند ضاحكاً بسخرية تقريباً، ولم يعجبه الأمر:

«إنك تخبرني بصراحة تامة عن أكون أو لا أكون».

فأجاب هامسن:

«أوه، هذا ما أعتقده فقط. إننا متشابهان بقدر كبير كما ترى، ولقد سلكنا الطريق ذاته أنت تزوجت وأنا لم أفعل، ولكن النساء فعلن بي ما أردن».

ورد سيغموند:

«ولكن ذلك ليس صحيحاً تماماً في حالتي».

فحملق هامسن فيه وقال:

«قل امرأة واحدة، هذا يكفي».

حدق سيغموند متأملاً البحر بينما استمر هامسن قائلاً:

«إن أفضل أنواع النساء ـ وأكثرهن إمتاعاً ـ هن الأسوأ بالنسبة لنا. إذ إنهن يهدفن بحكم الغريزة إلى كبت الفظاظة والحيوانية فينا، ومن ثم، فإنهن حساسات أكثر من الاعتيادي ـ نقيات أكثر قليلاً من الجنس البشري ـ أما نحن، الأكثر فظاظة من اللازم فنصبح صنائعهن. إن الحياة متجذرة فيهن مثلما الكهرباء في الأرض، ونحن نأخذ منهن حياتهن المبهمة فنحولها إلى ضوء أو دفء أو قوة لهن. إن المرأة العادية لوحدها قوة كامنة هائلة، نوع من البطارية إذا أحببت أن تسميها، تشحن من مصدر الحياة، وفينا تصبح قوتها واضحة.

المرأة لا تستطيع العيش من غيرنا ولكنها تدمرنا، إن أولئك النسوة الكتومات المثيرات لا يردننا نحن، بل يردن أزاهير الروح

اللاتي يستطعن أن يجنينها. أما نحن، باعتبارنا رجالاً أسوياء، فنحن نحط من قدرهن بطريقة أو أخرى، ومن حبهن لنا، لذلك فإنهن يحطمن الإنسان السوي فينا، هذا ما نحن عليه تقريباً».

سأله سيغموند مقللاً من شأنه:

«أنت صريح قليلاً، أليس كذلك؟».

لم يكن سيغموند يخالف صديقه الرأي، ولكنه لم يخبره أيضاً إن مثل هذه العبارات تظل اعتباطية، فضحك هامسن قائلاً:

«إن ذلك يعتمد على شدتي، فإني أستطيع أن أفتح السماء الزرقاء بنظرة وأرجع أبواب النهار إلى الخلف وأنظر - والله يعرف ما أرى. وفي أحد هذه الأيام سأتسلل عبر الباب. أوه. أنا سليم العقل تماماً ولكني أكافح ما وراء نفسي فقط».

فقال سيغموند:

«ألا تعتقد أن من الخطر أن يصبح المرء هكذا؟».

«أعتقد ذلك، مثلما يعتقد أي امرئ آخر، ولكن الناس يستفيدون من أمثالي في النهاية، وعندما يفهمون موسيقاي، ستكون تلك تثقيفاً لهم، فغرض الجنس البشري هو أن يجعل الحياة مفهومة».

تأمل سيغموند ذلك قليلاً وقال ببطء:

«أنت تجعلني أشعر كما لو أني مطلق الأسار وبعيداً جداً عن نفسي».

ابتسم الشاب، ثم نظر باتجاه الجدار، حيث كانت يداه تستقران بيضاوين هشتين مظهرتين عروقاً زرقاء وقال:

«يصعب أن أصدق أنهما يداي. إذا نهضتا وأنكرتاني فيجب ألا أتفاجأ بذلك، ولكن أليستا جميلتين؟».

نظر بابتسامة باهتة إلى سيغموند.

نقل سيغموند بصره من يدي الغريب إلى يديه اللتين تستقران مقوستين على سور البحر كما لو أنهما نائمتان. كانتا صغيرتين بالنسبة لرجل في مثل قوامه، ولكن وهما مضطجعتان دافئتان في الشمس بدتا ممتلئتين بالحياة بشكل خاص. وعلى نحو غريزي وبدفقة من حب الذات أغلق يديه فوق إبهاميه.

قال هامسن بهدوء ومرارة غريبة:

«إنني لدهش من أنها لا تستطيع الإحساس بذلك، ودهش لأنها لا تهتم بك، فأنت ممتلئ وجميل الجسد، فلماذا تعمل على تدميرك عندما تكون قد أحبتك بهذه القوة؟».

نظر سيغموند إليه بعين ممتلئة بالرهبة، بينما ضحك الرجل الهش الناعم فجأة بعينيه الحيتين الممتلئتين وقال:

«يا لهن من حمقاوات أولئك النسوة، إما أن يدمرن بلوراتهن، أو أنها تدور فيعتم لونها وتقفز بعيداً عن أيديهن. انظر إلي لقد تنازلت إلى أدنى حد، ولكن رقبتك غليظة مشحونة بالحياة، إنها ساق ممتلئة بالحياة تستطيع أن تقف بمفردها، أنا متأسف جداً».

توقف عن الكلام في الحال. كان اليأس المر في نبرته هو صوت الإحساس الثقيل نفسه الذي استشعره سيغموند على نحو مبهم خلال الأسابيع القليلة. وأحس سيغموند بطعم الموت. فضحك محاولاً نسيان الأمر بينما قال هامسن بأسف:

«أتمنى لو أني لم أستطرد على هذا النحو في الحديث، وأتمنى أن أكون طبيعياً. يا لحرارة الجو! يجب أن ترتدي قبعة فالدنيا حارة حقاً». ثم فتح قميصه الصوفي، فقال سيغموند:

«أنا أحب الحرارة».

«وأنا كذلك».

وفي الحال، صفف الشاب شعره الطويل على جبينه، ثم انحنى مبتسماً بطريقته الحية وتوجه ماشياً بمتعة إلى القرية.

وقف سيغموند مثل المشدوه للحظة. وبدا الأمر له مجرد حلم مزعج، ثم تنهد بعمق كي يحرر نفسه من الألم، ومضى يبحث عن هيلينا.

الفصل الرابع عشر

في حديقة أشجار الورد السامقة وأزهار «قرة العين،» كانت ميلينا تترقبه مرة أخرى. كان الوقت قد تجاوز الساعة التاسعة، وابتدأ صبرها ينفد. ولكنها مع ذلك، وجدت متعة هائلة في كتيب شعري اشترته من شارع سانت مارتن بينسين.

ضربت الأنثى طائراً أسود متاخراً أشعثاً بجناحيها

بينما كانت تطير عبر الفرجة المعتمة في الغابة.

هذا ما قرأته. وأصدرت صوتاً فرحاً فضولياً، وذكرت لنفسها أنها تجد هذه الأشعار رائعة جداً، ولكنها ظلت تراقب الطريق بانتظار سيغموند.

ثم التقطت المقص في إبهامها

لن يدخل بعد الآن عشي.

فهمهمت لنفسها:

«هم! لا أعرف حقاً إن كنت سأحب ذلك أم لا».

قرأت بعد ذلك المقطوعة مرة أخرى قبل أن تلتفت إلى الطريق.

«لقد تأخر كثيراً. إن من السخف أن أفكر أنه ربما يكون قد غرق. ولكن إذا كان يغتسل في قاع البحر، فإن شعره سيتناثر فوق الماء!».

وتوقف قلبها ساكناً عندما تخيلت هذا.

«ولكن أي هراء هذا! إني أحب هذه الأشعار كثيراً، وسأنشدها وأنا أتمشى على الممر الجانبي حيث سأصغي إلى طنين النحل وأمسك برفيف أجنحة الفراشات المبثوث بين الكلمات. إنها لطريقة مناسبة جداً لقراءة هذا الشعر».

وهكذا تمشت على مهل باتجاه البوابة وهي ترفع عينيها بين لحظة وأخرى. كان سيغموند عندها قادماً والمنشفة معلقة على كتفه، ونحره عار ووجه متلألئ. وقفت في ظلٍ مبرقش الألوان، فخاطبها سيغموند قائلاً:

«لقد تركتك تنتظرين».

ولكنها لن تعترف بنفاد صبرها فردت قائلة:

«لقد كنت أقرأ كما ترى».

فرد قائلاً:

«وأنا كنت أثرثر».

فهتفت بانزعاج خفيف:

«تثرثر؟ هل عثرت على صديق هنا؟».

«إنه أحد زملائي. كان صديقاً حميماً أيام كنت أعزف في سافوي، ولكنه جعلني أشعر بالإغماء الآن، فهو يعاني من ازدواج الشخصية».

نظرت إليه هيلينا برشاقة وفضول وقالت له:

«بأية طريقة؟».

«لقد أظهر كل المخبّأ في البئر. إن ما قاله يبدو هراء الآن، فالبحر يشبه نبات مكحلة الحقول وثمة سفينتان حربيتان تتلكآن في الخليج، وبإمكانك سماع أصوات الرجال على ظهر السفينة بوضوح، هل وضعت خطة لقضاء النهار؟».

دخلا المنزل لتناول الفطور، وراقبته وهو يمد يده لإناء السَلَطة الملون بالقرمزي والأخضر، وقالت بنبرة هشة:

«كانت السيدة كيرتس رؤوفة بي هذا الصباح، أوه، رؤوفة جداً».

تقلص سيغموند الذي كان في مزاج سعيد دافئ وسألها:

«ماذا؟ هل ذكرت لك شيئاً ما بخصوص ليلة أمس؟».

ولكن هيلينا استمرت بالنبرة المتهكمة الحميمة نفسها التي أظهرت أنها كانت تحاول تخليص نفسها من احتقارها لذاتها:

«كانت قلقة جداً بشأني، خائفة من أن حدثاً سيئاً وقع لي».

فرد سيغموند ساخراً أيضاً:

«ألأننا لم نرجع حتى الساعة الحادية عشرة؟».

«يجب ألا أفعل ذلك مرة أخرى. أوه، يجب ألا أفعل ذلك مرة أخرى حقاً!»

فسألها:

«أخوفاً من إقلاق راحة السيدة العجوز؟».

فأجابته:

«أنت تعرف يا عزيزي أن الأمر يزعجني كثيراً... ولكني لو كنت أمك ما كنت أعرف كيف أشعر عندئذ».

فرد سيغموند:

«المرء عندما يستأجر غرفة لا يشترط في العادة وجود زوجة أب توقظ ضميره».

ضحكا معاً محولين الموضوع إلى نكتة، ولكنهما كانا

حساسين جداً، فتلوى سيغموند داخل نفسه باحتقار، وتحدثت هيلينا كما لو أن أسنانها كانت مطبقة وقالت:

«أنا لا اهتم البتة، فللمرأة العجوز المسكينة أفكارها ولي أفكاري».

أطال سيغموند التفكير قليلاً ثم هتف بمرارة:

«أعرف أني جبان أخلاقياً».

فأجابته:

«هراء!!». ثم أضافت بانفعال واهن:

«كما لو أنك تشعر بحاجتك إلى التبرير».

فضحك بمرارة وقال لها:

«دعني أخبرك: إن أمراً صغيراً مثل هذا يبقى ملتفاً بشدة حول شيء ما في داخلي، يذكرني لساعات عن فكرة كل شخص آخر عني».

ضحكت هيلينا بحزن وقالت له:

«كنت أظن أنك متأكد من أننا على صواب».

جفل مرة أخرى وقال:

«أنا كذلك في داخلي، ولكن في عيون الناس...».

فقالت له بقسوة:

«إذا كنت تشعر كذلك في قرارة نفسك، أفلا يكفيك ذلك؟».

رفع رأسه وأدار ببطء منديل المائدة وسألها:

«وما هي نفسي؟».

«لا شيء على وجه التحديد».

خيم الصمت بينهما، ثم نهضت بعد ذلك واتجهت بشوق نحوه، وشبكت ذراعيها حول عنقه وخاطبته قائلة:

«هذا يومنا الرائق الأخير يا عزيزي».

اكتسحته موجة حب كنست كل شيء فاحتضنها بين ذراعيه.

قالت هيلينا بينما كانا يستعدان للخروج:

«سيكون يوماً حاراً».

فأجابها:

«لقد أحسست أن الشمس تبخر في شعري عندما وصلت».

«سأرتدي قبعة ومن الأفضل أن تفعل الشيء نفسه».

فقال لها:

«لا، لقد أخبرتك أني أريد أن أُنقع في الشمس، وأعتقد أني سأحصل على بغيتي الآن».

لم تتجادل معه أو تجبره، ففي مثل هذه الأمور كان ناضجاً بدرجة كافية كي يقرر بنفسه. كانا صامتين إلى حد ما ذلك الصباح، وأحس كل منهما بانطفاء بريق يومهما المتبقي. قالت له:

«أعتقد يا عزيزي أننا يجب أن نجد الطريق الصغير الذي أضعناه ليلة أمس».

فأجابها:

«كنا محظوظين لأننا لم نجده، فأنت لا يمكن أن تحظي بنزهة مثل تلك مرتين في حياتك رغم اعتراض السيدات العجائز»

نظرت إليه بابتسامة ساحرة، سعيدة لسماع كلماته.

ابتدآ المسير معاً. كان سيغموند حاسر الرأس، يرتدي بنطلوناً صوفياً وقميصاً واسعاً من الخيش. ولكنه بدا كلندني يتمتع بعطلته.

كان له مظهر الرجل النبيل وسلوكه الخجل وملابسه جيدة التفصيل، ذا انحناءة بسيطة، انحناءة كتفين قويين، وعندما يمشي يبدو وكأنه لا يرى ما أمامه.

أما هيلينا فإنها تنحدر من العامة. لم يكن لها مظهر سيدة نبيلة، ولم تكن أنيقة أو حازمة. ولا يستطيع المرء أن يخمن فيما إذا كانت عاملة أو ذات دخل مستقل، ولكن الشيء الواضح الوحيد بشأنها أنها مثقفة.

كانت قصيرة القامة بعض الشيء، ولها بنية قوية، لذلك فهي تبدو أكثر امتلاء من سيغموند. وما لم تكن تنظر بشكل محدد إلى شيء ما، فإنها تبدو منطوية داخل نفسها باستمرار.

كانت ترتدي ثوباً من قماش أبيض رقيق، يرتفع خصره إلى ما تحت نهديها مباشرة، والتنورة مستقيمة وملتصقة، وعلى رأسها قبعة كبيرة بسيطة من القش المحروق. ومن خلال كمي ثوبها المفتوحين كان بإمكانها الإحساس بالشمس وهي تلفحها بشدة.

وقالت له:

«كنت أتمنى لو أنك ارتديت قبعة يا سيغموند».

فضحك وقال لها:

«ولماذا؟ إن شعري يشبه القلنسوة».

أرجع شعره إلى الخلف بيده، فتلألأ ضوء الشمس على جبينه.

على الممرات العليا كان النسيم العليل يطارد الفراشات بحيوية، ويسوق الغيوم الصغيرة المتناثرة الخائبة خارج السماء. وقف العاشقان بعض الوقت، يراقبان المزارعين أسفل التل وهم يغسلون أغنامهم في ذلك الصباح المشرق. كانت هناك ضوضاء متقطعة تنبعث من ثغاء قطيع الحيوانات المحجوز في زاوية

الساحة، بينما يمسك رجلان ذوو أذرع حمر بالأغنام ويغطسانها في حوض كبير ينتصب وسط الساحة، ويقوم رجل ثالث بسكب سائل أصفر متسخ فوق أجسامها، في حين أرجلها البيض تتلألأ، وهي ترفس بهذا الاتجاه أو ذاك تخلصاً من الصباغ الأصفر. ويغطس الرجال ذوو القمصان الزرق ويتصارعون معها، ويتناثر الماء ويعلو صراخٌ يُسمع من مسافة بعيدة. بينما تقف زوجة المزارع وأطفاله مستعدين لتقديم العون إذا كان ذلك ضرورياً. ضحكت هيلينا بمتعة وقالت:

«تلك طريقة بدائية طريفة. إنها أكثر بدائية من أساليب ثيوقراط(*)».

فضحك مضيفاً:

«للحظة جعلتني أتمنى لو أني كنت مزارعاً. أعتقد أن كل رجل يتملكه هوى للزراعة يسكن في دمه. إنه لأمر رائع أن تكون خالي البال، وألا ترى أبعد من أرنبة أنفك، وأن تمتلك ماشيتك وأرضك».

فسألته هيلينا ساخرة:

«هل هذا صحيح؟».

فرد عليها:

«إذا ما اكتسبت وجهاً قانياً وأصبحت أغط في النوم حالماً وأجلس مرتاحاً، فإني سأحب ذلك».

فأجابته:

«يسليني سماع أنك تود أن تصير غبياً».

(*) ثيوقراط: شاعر إغريقي عاش بين القرن الثالث والثاني قبل الميلاد. مؤلف (الأناشيد الرعوية) وهو أول من كتب الشعر الرعوي.

«أمنيتي أن أمتلك عقلاً بسيطاً بطيء الحركة وأعيش حياة مفعمة».

وسألته متهكمة:

«هكذا؟!».

فقال لها:

«سأتنازل عن كل شيء مقابل أن أكون كذلك».

فقالت له ساخرة:

«ذلك يعني ألا تكون نفسك».

ضحك من دون حماسة وقال لها وهو يحملق في المشهد الرعوي أمامه:

«ألا يبدون بعيدين جداً؟ إنهم أبعد من ثيوقراط، وأسفل التل يبدو أبعد من صقلية. وأكثر من عشرين قرناً عنا. أتمنى لو أنهم ليسوا بهذا البعد».

فصرخت بنفاد صبر فضولي:

«ولماذا تتمنى ذلك؟».

اكتفى سيغموند بالضحك.

اجتازا التل حيث تتناثر شجيرات غامقة اللون، وأصبحا مقابل الطريق الذي يمر عبر نباتات الرتم مباشرة، وصرخت هيلينا:

«هذا هو الطريق! كيف أضعناه؟!».

فأجابها وهو يصفر بموسيقى الطير من سيغفريد(*) ومن ثم بقطعٍ من تريستان:

(*) سيغفريد: بطل أسطورة ألمانية وتريستان بطل أسطورة من القرون الوسطى، وقد حولت بعض هذه الأساطير إلى مقطوعات موسيقية لحنها ريتشارد فاغنر.

«أعزي ذلك إلى الجنيات».

لم يتحدثا بعد ذلك كثيراً.

كانت هيلينا تعبة، وعندما وصلا إلى تجويف أخضر عار قرب حافة الجُرف، قالت له:

«سيكون هذا بيتنا اليوم».

فقال لها سيغموند:

«مرحباً بك في بيتك».

ارتمى على السفح العالي الذي يهب عليه النسيم متأملاً البحر، بينما جلست هيلينا إلى جانبه. كانت ساكنة تماماً، وابتدأت الريح تتمهل شيئاً فشيئاً، ورغم أنهما كانا يصيخان السمع بانتباه، إلا أنهما لم يسمعا غير صوت تنفس مبهم ضعيف جداً صادر من الماء في الأسفل. لم يكن ثمة عناق أو همس أجش بين الأمواج. اضطجع سيغموند متوسداً يديه، متأملاً البحر المتألق، ولكي تضع الصفحة التي تقرأها في الظل أسندت هيلينا كتابها على جسده وابتدأت القراءة.

استغرق النسيم وسيغموند نائمين في الحال، بينما الشمس تسكب إشعاعها بإلحاح مزعج. كانت تلسع هيلينا ساحبة إياها ببطء من كتابها إلى حالة من تشوش الفكر. أغلقت عينيها متعبة، متمنية الظل، وعلى نحو مبهم أحست بالتعاطف مع آدم في قصة آدم يُطرد خارجاً، وتتبعت ذاكرتها مرة أخرى الصراع الغامض بين الاثنين وهما يطردان خارج جنة عدن إلى العراء الموحش فأحست بالأسف لأجلهما. وحين راحت تتصور آدم وقد هده التعب، التفتت إلى سيغموند الذي كانت الشمس تلسعه على وجهه وجبينه المتلألئ. وكانت يداه اللتان تمتدان على العشب ممتلئتين بالدم، وعروق رسغيه قرمزية اللون منتفخة بالحرارة.

ومع ذلك استمر في النوم متنفساً بحركة لهاث خفيف. تأثرت هيلينا بعمق وأرادت أن تقبله وهو يضطجع مهملاً ومهجوراً في عهدة الأرض والسماء.

أرادت أن تقبله وتذرف بعض الدموع، ولكنها لم تفعل أياً منهما، وبدلاً من ذلك غيرت وضعها كي تظلل رأسه. وبحذر وضعت يدها على شعر رأسه فوجدته حاراً، مثلما تضع يدك تحت دجاجة حاضنة وتتحسس صدرها المريش الحار. ثم همست لنفسها:

«ستسبب له المرض».

ثم انحنت عليه كيما تستنشق الهواء الحار. نظرت إلى حيث الشمس تحرق جبينه. أحست أنها حزينة جداً وعديمة الحيلة عندما رأت جبينه يلتهب من حرارة الشمس.

استدارت متعبة عنه، باحثة عن السلوى في الطبيعة من حولها، ولكن البحر كان يتلألأ على نحو لا يطاق مثل حراشف تنين، وغفت بيوت فريش ووتر مثلما تغفو القطعان ساكنة في الوادي الأجوف، بينما انسحب ظل من الحرارة والنوم على فارينكفورد الخضراء الوسنانة على السفح. وفي الخليج، تحت التل، كان البحر حاراً ومضطرباً، وأصاب هيلينا الغثيان من الشمس ومن تألق الماء المضطرب، ونقلت لنفسها كلاماً لم تعرف مصدره:

«ولن يكون هناك بحر بعد الآن. لن يكون هناك بحر، لن يكون هنا أي شيء».

فكرت مذهولة وهي تجلس وسط ألق الشمس المضطرب العنيف. أحست كما لو أن كل بريق وهمها وأملها قد احترق في هذا الفرن الهائل تاركاً هيلينا مثل قطعة ثقيلة من الخَبَث فيها عروق من المعدن. حاولت أن تتخيل نفسها وهي تستعيد تصرفاتها القديمة وطريقة حياتها السابقة فهتفت:

«هذا مستحيل! هذا مستحيل! ماذا سأكون عندما ينتهي كل هذا؟ لن أخرج أبداً من هذا إلا مثل معدن سيصب في قالب آخر. لن يعود سيغموند نفسه هو مرّة أخرى، ولن تكون هناك الحياة نفسها، ما الذي ستؤول إليه، وماذا سيحدث؟» أفاقت من تأملاتها الشبيهة بالهلوسة هذه في فرن الشمس. عندما استيقظ سيغموند فتح عينيه وأخذ نفساً عميقاً، ثم نظر مبتسماً إلى هيلينا وقال لها:

«إن الحال ليستحق النوم كي يستيقظ المرء على هذا النحو. لقد كنت أحلم ببلورة ثلج هائلة». ابتسمت هيلينا. كان على ما يبدو غير واع بما يدبره القدر، بل كان سعيداً وقوياً. ابتسمت له في تنازل تقريباً وقالت:

«أود أن أحقق حلمك. إن هذا فظيع!».

توجها صوب حافة الجرف لكي يستنشقا تيار الهواء البارد الصاعد من الماء. تشربت العذوبة المسافرة بشغف في وجهها، ومدت ذراعيها المسفوعين بالشمس نحو الأمام كي يستشعرا عذوبة الهواء. وقال سيغموند بخفة:

«إنها شمس رائعة حقاً، أشعر كما لو أني اكتفيت من الحرارة».

أحست هيلينا بخيبة أمل امرئ يضيّع أسفه سدى، بينما هي تهتم بمتعة الآخر قليلاً. وفي هذه المرة، وعندما فشل سيغموند في أن يتبعها، كما عبرت عن الأمر، أحست أن عليها أن تتبعه، فقالت له مبتسمة:

«يبدو أنك قد أخذت كفايتك من هذه الرحلة، حتى مني».

فرد سيغموند وسناناً:

«نعم! أعتقد كذلك، أعتقد أن ذلك مكتمل تقريباً. ما رأيك أنت؟».

ضحكت هيلينا بينما استمر في حديثه:

«لا أريد شيئاً أكثر أو مختلفاً، وأعتقد أن هذه ذروة المتعة المهذبة».

فرددت القول بعده:

«ذروة المتعة المهذبة».

ولكنه تشدق بكسل قائلاً:

«لقد كنت حتى الآن أمسح خبزتي على قطعة الجبن، أما الآن فقد حصلت على قطعة الجبن كلها، وهي أنت يا عزيزتي».

فضحكت بمرارة تقريباً وقالت:

«أحس بأني أُكلت بالتأكيد».

رأته يضطجع في استرخاء ملكي، عيناه ساذجتان كعيني الطفل، وكيانه مهمل كلياً. ورغم أنها كانت سعيدة برؤيته مرتاحاً إلا أنها أحست بالوحدة، ولأنها كانت فاترة الهمة، منهكة بالشمس، مثقلة بتوقع قدر وشيك الحدوث، فقد شعرت بشوق عنيف لعطفه ولرفقته. وبدلاً من حصولها على ذلك كان عليها أن تتملق سعادته كي لا تذبل ورقة من زهرته، أو تفسد دقيقة واحدة من ساعته المكتملة.

من أعلى نقطة على الجرف حيث كانا يقفان، بات بإمكانهما رؤية الممر يتلوى نحو الأسفل باتجاه الشاطئ، ويتسع كلما اقترب منهما. وعند المنعطف اقترب ببطء منهما كرسي أسود لرجل عاجز يتدحرج بصمت على العشب القصير اليابس. كان العاجز شاباً محطماً إلى درجة أن روحه كانت تتلوى في وجهه الشاحب الحاد، كما لو أنه لا يملك دفقاً من الحياة يكفي الجسد المهشم ليخضر

برعم الروح الجميل. أدار عينيه الغارقتين بالألم تجاه البحر، الذي كان مثل بقية الأشياء، شبه المبهمة بالنسبة له، نظر سيغموند إليه ثم أشاح بوجهه سريعاً قبل أن تسقط عيناه عليه. نظرت هيلينا بانتباه لثانيتين اثنتين، وفكرت بالعشبة البحرية الممزقة المرتجفة المندفعة فوق المدّ وخاطبت نفسها:

«مدّ الحياة».

طغى ألم العاجز على كآبتها، وكان القلق يداخل روحها. فقالت بهدوء لسيغموند:

«تعال!».

لم تعد ممتعضة من اكتمال سعادته التي جعلته في غنى عنها، وأضافت مخاطبة نفسها: «سوف نتخلى للعاجز المسكين عن بيتنا الأخضر الصغير بهدوء». هبطا إلى الأسفل باتجاه الخليج. كانت هيلينا تطيل التأمل في حالتها على طريقتها الخاصة، وتمتمت لنفسها:

«إن روح الضباب تُنزل ستارة من حولنا ـ إنها كريمة جداً ـ ستارة ذهبية ثقيلة أحياناً وغلالة رقيقة ممزقة في أحيان أُخر. أريد أن تُنزل روح الضباب الستارة مرة أخرى. لا أريد أن أطيل التفكير في ما يحدث في الخارج فأنا خائفة من الخارج، وخائفة من أن تُقطع الستارة إلى مزق، أريد أن أكون في عالمنا الرائع داخل ستارة الضباب الذهبية الثقيلة».

وكما لو كان جواباً أو احتجاجاً على أفكارها، قال لها سيغموند:

«أتبغين شيئاً أفضل من هذا يا عزيزتي؟ هل سنأتي العام المقبل هنا ونمكث لشهر كامل؟».

فأجابته قائلة:

«إذا كان هنالك عام مقبل».

لم يرد عليها سيغموند.

وتساءلت مع نفسها فيما إذا كان صادقاً في كلامه أم أنه كان يسخر من القدر أيضاً، ومن ثم تمشيا ببطء تحت الشمس المحرقة متوجهين نحو بيتهما، وقالت محدثة نفسها:

«ستكون نهاية لهذا، ولكن ماذا سيحدث يا ترى عندما نخرج من ستارة الضباب. لا يهم، ليحدث المقدر، منذ البداية تحدد المقدر، ومن البداية تحددت كل المصاعب على نحو تدريجي وبتعاقب غير مألوف. ومن الترابطات الأولى تلك تم نسج توافقات مدهشة مع حياتنا. حقاً لقد كانت النتيجة مدهشة، وهي مدهشة الآن.

إن القدر فنان أعظم من أن تحبطه النكسات، وأنا متأكدة أن قائد الفرقة الموسيقية فنان أعظم من أن يسمح بالأصوات النشاز».

الفصل الخامس عشر

مر الأصيل المتوهج ناعساً، وترك سيغموند وهيلينا النهار يستنشق ثملاً ساعاته مثل العطر، بينما اضطجعا متقاربين على الشاطئ. أغفى سيغموند إغفاءة خفيفة متقطعة ممتلئة بالأحلام والمعاناة: لا شيء محدداً، بل كانت أحلاماً باهتة الألوان. أما هيلينا، فقد احتفظت كالعادة بوعيها أكثر صفاء، وراقبت طفو السفن البعيدة وتجوال الأطفال القريبين عبر المد. وتموجت قطارات لانهاية لها من الأفكار، مثل أمواج صغيرة اندفعت نحو الأمام وتحطمت على شاطئ نعاسها ولكن كل موجة من أفكارها، وإن كانت تعدو برشاقة، إلا أنها كانت مخضبة بومضات نحاسية اللون، كما لو أنها صادرة عن غروب متوهج. أحست هيلينا أن الشمس تتقدم عليها وعلى سيغموند. كانت الساعة مختلطة جداً، مشوشة بالحزن أو القلق أو حتى التوقع الغريب. كانت على وعي أن الشمس تدور نحو الأسفل، شابكة إياها وسيغموند في إثرها، مثل قائد عربة سقط منها، وهكذا مرت الساعات.

بعد وقت الشاي توجها شرقاً نحو التلال. كان سيغموند مفعماً بالحيوية وأصابت هيلينا عدوى مزاجه. كانا من النادر أن يتحدثا حول الفترة التي سبقت تعارفهما. إذ إن هيلينا تعرف القليل جداً أو لا شيء البتة عن حياة سيغموند قبل الثلاثين، في حين لم يعرف أي شيء يتعلق بطفولتها، فهي بطريقة ما، لم تكن تشجعه على اكتشاف

النفس. أما اليوم فإن حاجة العشاق المؤلمة للتجلي قد سيطرت عليهما تماماً، فقال لها:

«يا له من أمر مضحك، لقد كنت مغرماً جداً ببياترس عندما تزوجتها. كانت قد عادت لتوها من مصر. وكان والدها ضابطاً في الجيش، رجل وسيم جداً، وأعتقد أنه كان لعوباً نوعاً ما. ولقد كانت بياترس تنحدر من عائلة ممتازة حقاً، ولكن فيتز هربرت العجوز أنفق كل نقوده وأجهز على كل شيء تقريباً. كان عاراً على بقية العائلة لذلك أسقطوه من بينهم تماماً».

«جاء ليقيم في بيكام عندما كنت في السادسة عشرة، وكنت قد تركت المدرسة للتو، وتوجب علي أن أنخرط في مهنة والدي. ولقد أرسلت السيدة فيتز هربرت بطاقات زيارة وسرعان ما تعارفنا. وكانت بياترس قد قضت فترة طيبة في مدرسة راهبات فرنسية رغم أنها تنقلت لفترة قصيرة مع الجيش، وقد أفادتها تلك الفترة كثيراً. أتذكر أني كنت أعتقد أنها أرفع مني اجتماعياً بعدة أميال، وهي كانت كذلك. كما أنها لم تكن قبيحة، وكان الرجال يحبونها جميعاً. أراهن أنها ستتزوج ثانية على الرغم من وجود الأطفال.

«في البداية ابتدأت أطوف من حولها. أتذكر أنه كان لي شارب حريري صغير، وكان الجميع يقولون إني أبدو أكبر من السادسة عشرة. وفي ذلك الوقت كنت مولعاً بالكمان، وكانت بياترس تعزف على نحوٍ رائع، ومن ثم، سافر فيتز هربرت في رحلة إلى مكان ما خارج البلاد، وهكذا أمضت بياترس وأمها نصف الوقت تقريباً في بيتنا، وكانت الأم عاجزة».

«أتذكر أني كدت أقف على رأسي تقريباً في أحد الأيام، وبينما كنت أهم بدخول غرفة التدخين في المعهد الموسيقي سمعت

بياترس وشقيقتي يتحدثن عن الرجال الوسيمين. فقالت أختي الصغرى عندها:

«أعتقد أن بيرترام سيكون رجلاً وسيماً».

وأضافت أختي الأخرى:

«إن له عينين جميلتين».

فهتفت بياترس:

«وأنفاً وذقناً جميلين حقاً، ولكن يا ليته كان أكثر امتلاء فهو مثل طاحونة الهواء، كله أطراف!».

فردت أختي الكبرى:

«سيمتلئ لاحقاً. تذكري أنه لم يبلغ سن السابعة عشرة بعد».

وقالت بياترس:

«آه، إنه لطيف ومدلل».

وقالت أختي الكبرى:

«أعتقد أنه مدلل أكثر من اللازم قياساً إلى عمره».

فتدخلت أختي الصغيرة منفعلة:

«ولكنه فتى رائع على أية حال. انظري قوة ركبته».

وهتفت بياترس:

«آه، نعم، نعم».

اصطنعت ضجة عند الباب، ومن ثم دخلت وهتفت بينما كنت أندفع إلى الغرفة الصغيرة:

«مرحباً، هل من أحد هنا؟».

«نظرت إلى بياترس مباشرة وبادلتني النظرة. كنا كما لو أننا

قد أقمنا تحالفاً في تلك النظرة. كنت النصف الآخر من وعيها وكانت هي كذلك. ها! ها! كان هناك الكثير من ورد النرجس الأبيض، وزهور صغيرة بيضاء اللون من نوع المكحلة الياقوتية الروماني في الغرفة. إن بإمكاني تخيلها الآن، نجوم بيض كبيرة، وشبكات وورود صغيرة على حاجز أخضر، وأستطيع استعادة رائحة العطر الطازج الحميم في الهواء الدافئ ونظرة بياترس... وعينيها الواسعتين الغامقتين».

«يا له من أمر مضحك، ولكن بياترس كما لو أنها ميتة الآن، بل أكثر موتاً من دانتي، وأنا لم أعد ذلك المغفل الصغير إطلاقاً».

«كنت رومانسياً جداً، وعاطفياً على نحو سخيف، وكنت أمثل روح الشرق أيضاً، ولقد اشتكت بياترس من أن لا أحد يهتم بها إطلاقاً، فقد كان فيتز هربرت على سفر باستمرار، والأم عاجزة متبرمة. كنت في السابعة عشرة، أكسب نصف باوند في الأسبوع، وهي في الثامنة عشرة ومفلسة تماماً عندما هربنا معاً إلى برايتن تزوجنا. يا لوالدي المسكين! لقد تحمل الصدمة بشجاعة، كنا عبئاً مرعباً على كاهله كما تعرفين».

«هذا هو الحب، يا ترى كيف سينتهي كل شيء».

ضحكت هيلينا ولم يستطع اكتشاف مرارة روحها الشديدة.

تجولا بصمت بعض الوقت. كان يفكر بالماضي قبل لقائه بهيلينا، وبذلك تركها وحيدة مع نفسها، وانتابتها فكرة أن الحب الذي اختارته ليكون شيئاً رائعاً ومتفرداً في حياة الإنسان مثل الولادة والمراهقة والموت، اكتشفت أنه أمر زائل بعد كل شيء، ولا يشكل إلا مجرد مرحلة، وكانت تلك ساعة صحوتها من أوهامها.

وأكمل سيغموند حديثه:

«لقد اكتشفت بأني كنت أتهرب دائماً، إذ حالما أنحشر في زاوية ضيقة كنت أهرب إلى والدي».

فقالت له:

«أعتقد أن زواجك كان زاوية ضيقة لم تستطع الهروب منها واللجوء إلى أي شخص آخر».

فأجابها ببساطة:

«ومع ذلك فأنا هنا».

خضب الدم وجهها ونحرها.

«وكان من الممكن تسوية الأمر على نحو أفضل، ولكن عندما يتعلق الأمر بالتقليل من دور بياترس وتمشية أمور العائلة على النقيض من رغبتها كنت أتهرب دائماً. أنا نوع من الجبناء الأخلاقيين».

أزعجها حديثه إلى درجة أنها كانت تود القول له:

«وهو كذلك» ولكنها بدلاً من ذلك استعرضت تاريخها. كان يتكون من نزاعات تافهة في وسط وضيع، ومن ثم انتهت أحلامها وأوهامها بسيغموند. وقالت ونبرة الاشمئزاز تصر من صوتها:

«يمكنني القول بأني طوال عمري كنت أتخيل بأن الحياة الحقيقية هي خارج نفسي دائماً: جنيات سمراوات صغيرات يركضن، وجنيات يختلسن النظر ويتطلعن إلى ما وراء المكان القبيح الذي كنت أعيش فيه. كنت أبدو وقد طوقتني ظروف مبتذلة، ولكني كنت قادرة على إلقاء نظرة على العالم الخارجي بين الحين والآخر لأرى الواقع». فقال سيغموند لها:

«يصعب فهمك، كما أنك تحتقرين الأشياء المألوفة».

ابتسمت له مدركة أنه لم يفهمها. لقد أنهكتها الحرارة، وامتلأ

جسدها بالضجر والفزع مما جعلها تصر على أسنانها، ولم تكن على ما يرام في الجسد أو الروح.

تجمع شفق صامت دافئ فوق التلال، وابتدأ يرتفع مظلماً من البحر. ورفرف قدر ذو أجنحة عريضة فوقها تماماً. ووضعها قدر رمادي مسود مثل غراب الجيف تحت ظله، ولكن سيغموند لم يلاحظ ذلك ولم يفهم. كان يمشي إلى جانبها وهو يصفر لنفسه، ولقد زاد ذلك من كآبتها.

كانا وحيدين على التلال الناعمة الممتدة نحو الشرق. وتأملت هيلينا النهار وهو يذوب من السماء تاركاً هيكل الليل الثابت. كان دورها الآن لتعاني ألم الوحدة الذي يلي لحظات الحياة الممتلئة.

تلاشى تورد الغروب عندما خمدت الجمرات متحولة إلى رماد سميك. وفي داخلها غطس التوهج المتورد واختفى. كانت الأرض كومة ميتة باردة متشحة بالكآبة والسماء مظلمة مجللة برماد متكتل. وكانت هيلينا ذاتها كتلة من الرماد الناعم.

ارتجفت قليلاً من الخوف، وبدت ملامح الأشياء في عينيها شاحبة باهتة، ولأنها من النوع الأخلاقي أكثر من كونها فنانة، وتنحدر من عائلة محافظة، فقد ابتدأت تؤنب نفسها. لقد ارتكبت خطأ مرة أخرى. وعادت بها الذاكرة القهقرى، وأدركت أنها لم تمس شيئاً إلا وألحقت الأذى به. كانت لها قوة تدميرية، تجرح كل من تحتضنه، وترددت أصوات واهنة من وعيها، وكانت الظلال ممتلئة بالشكوى ضدها. وأقرت بها جميعاً، فهي قوة مؤذية تجر القدر إلى نتائج وضيعة حقيرة.

تحولت الحياة والآمال إلى مجرد رماد في فمها. ارتجفت باشمئزاز، وصر اليأس بين أسنانها، وأدركت أن هذا الفزع أسوأ

بكثير من أية حياة وحيدة مخيفة عاشتها من قبل. وأحست أنها لن تطيق أكثر من ذلك.

كان سيغموند في الجوار، وإن بإمكانه المساعدة بالتأكيد، فهو قادر على أن يضرم النار فيها من جديد. ولكنه راح يبتعد نحو الأمام، يصفر بلا مبالاة لحن أغنية الربيع من موسيقى الجولة. نظرت إليه، وارتجفت مرتعبة مرة أخرى، هل هذا هو سيغموند حقاً؟ هذا الرجل العريض الكتفين المحدودب اللامبالي. هل هذا هو سيغموند الذي كان يبدو وكأنه ينشر الفرح من حوله؟ سيغموند الذي كان مجيئه يغير طقس روحها؟ هل هذا هو سيغموند الذي تحمل لمسته الحميمية البركة لها؟ سيغموند الذي كان وجهه شاشة لإله عابر. تأملته مرة أخرى. كان شعاعه قد اختفى وزالت هالته. رأته رجلاً محدودباً، تجاوز زهو الشباب، يمشي وهو يصفر بطريقة بليدة. وبدا في النهاية نوعاً من الحيوانات التي ترتدي الملابس مثل بقية الرجال.

عانت ألم التحرر من الوهم. هل هذا هو سيغموند الحقيقي، والذي في ذهنها هو مجرد انعكاس لروحها؟! سحبت نفساً محرقاً. هل هذا هو الطين الحقيقي، والآخر حبيبها، لم يكن إلا تنفس روحها عليه. كان ثمة فراغ مرعب يمتد أمامها.

وهتفت بيأس:

«سيغموند».

استدار بحدة عند سماعه صوتها. وعندما رأى وجهها شاحباً منقبضاً في الشفق امتلأ بالرعب. رفعت ذراعاً خرساء إليه، وراقبته بيأس، وبهدوء أخذها بين ذراعيه مستفهماً بصوت قلق:

«ما الأمر يا عزيزتي، هل هناك شيء يزعجك؟».

لم يعن صوته شيئاً بالنسبة لها، بل كان صوتاً غبياً، أحست

بذراعيه تطوقانها وشعرت بوجهها ينضغط على قماش سترته، وعلى نبض قلبه. ما كل هذا؟ إن هذا ليس تطميناً أو حباً فهو لا يستطيع فهمها أو مد يد العون إليها، بل ها هو يقيدها ويؤلمها. إنها لا تريد عناقه القاسي. أحست بالوحدة وهي مقيدة على هذا النحو بين ذراعيه. إذا لم يكن باستطاعته إنقاذها من نفسها فإن من الأفضل أن يتركها حرة كي يستنشق قلبها الهواء النقي. صدتها النبضة السريعة، نبضة قلبه، سويداء قلب الحيوان الذي في داخله، والتي ترهبها وتكرهها فصارعت كي تهرب، فتوسل إليها:

«ما الأمر؟ ألا تخبرينني ما بك؟».

ابتدأت تبكي بنشجات متوحشة جافة شاعرة كما لو أنها ستفقد عقلها. حاول أن يحدق في وجهها، وقد كرهته لحظتئذ. وطوال الوقت كان يحتضنها بقوة، وطوال الوقت كانت مسجونة في عناق هذا الكائن الأعمى القاسي، الذي كان قلبه يفضح نفسه في نبضات ونبضات ونبضات.

«هل سمعت شيئاً سيئاً يقال عنا؟ هل فعلت أنا شيئاً؟ هل قلت شيئاً؟ أخبريني، أخبريني على أية حال يا هيلينا.

كان نشيجها مثل خشخشة أوراق جافة، واهتاجت محاولة التحرر منه. فإن ظلت رهينة ذلك السجن لفترة أطول، فإنها ستختنق وتجن. كان قماش سترته يحك وجهها، وكلما تصارعت معه كانت تستطيع رؤية بنية نحره القوية، تدافعت معه وصارعته مرعوبة لكي تتحرر وصرخت به:

«دعني أذهب، دعني أذهب، دعني أذهب!».

أمسك بها في حيرة ورعب، فوضعت يديها على صدره ودفعته بعيداً عنها، كان وجهها الذي يتغاضى عنه متشنجاً جداً بفعل معاناتها، ودفعته بعيداً عنها بقوة هائلة.

توقف قلبه ساكناً من الدهشة. وتخلصت منه وجثت تنشج بمرارة تحت وطأة اضطرابها. وتكومت في كومة مرتجفة صغيرة. لم يعد سيغموند يتحمل ذلك، فذهب ليركع على ركبة واحدة إلى جانبها، محاولاً أن يأخذ يدها في يده ويتوسل إليها.

«أخبريني فقط ما الأمر يا هيلينا. أخبريني على الأقل. قولي لي ما الأمر، أوه، هذا أمر فظيع!».

استدارت متشنجة بعيداً عنه، هزت جسدها كما لو أنها قد خرجت عن طورها. وفي النهاية غطت أذنيها بيديها كي لا تسمع توسلاته التي لا مبرر لها.

بعد أن رآها على هذا الحال، تخلى سيغموند عنها، وركع ساكناً تماماً على ركبة واحدة إلى جانبها، محملقاً في الغسق المتأخر. كان نشيج هيلينا الجاف يمزق الصمت الكثيف. بقي صامتاً مذهولاً من هذا التغير الغريب. وبعد أن انتظر لفترة من الزمن، وضع يده على يدها فجفلت متشنجة مبتعدة عنه.

نهض قائلاً لنفسه «هذا يكفي!» وذهب خلف التل الصغير وتأمل الليل. كان كل شيء من حوله عارياً. لقد أراد أن يختفي، ويخبئ نفسه في العراء، لم تكن هناك حتى شجيرة يستطيع أن يجد تحتها ظلاً.

تمدد مستوياً على الأرض، ضاغطاً وجهه على التربة الخشنة، محاولاً أن يختفي، وهو مذهول تماماً والموت يحتل روحه.

تمدد ساكناً، منضغطاً على الأرض، وحبس أنفاسه لوقت طويل قبل أن يطلقها. ومن ثم حبسها مرة أخرى. كان من الصعب عليه أن يوافق حتى ولو بالتنفس، على خداع نفسه. كان وعيه مظلماً تماماً.

نشجت هيلينا وصارعت انتعاش الحياة في داخلها مرة

أخرى. وبعد فترة طويلة تمددت ساكنة متعبة ولكنها متحررة. وكانت على وشك أن تستغرق في النوم تقريباً، إلا أنها ابتدأت تشعر بالبرد وبوخز حشرات الأرض على وجهها. أثمة شخص قادم باتجاهها؟

هبط الظلام عندما نهضت في النهاية. لم يكن سيغموند في الجوار، رتبت هندامها، وطفقت تبحث عنه وهي خائفة تقريباً. رأته مثل ظل سميك على الأرض، عندها انتابها الهم، وصعب عليها أن تخفي دموعها. وقفت في أسى أبكم تتأمله، وفجأة أحست أن هناك شخصاً قد مر بهما وهو ينظر بفضول إليهما. فخاطبته برقة، منحنية تداعب شعره:

«يا عزيزي».

ابتدأ ينازع نفسه كي يستجيب. كان يفضل في تلك اللحظة أن يموت بدلاً من أن يواجه أي إنسان. كانت روحه عارية تماماً. وظلت تتوسل إليه:

«يا عزيزي إن أحدهم يراقبنا».

رفع نفسه من مخبئة قليلاً، ولكنه أبقى وجهه بعيداً عنها، ثم تمشيا معاً.

قالت له برقة:

«اغفر لي يا عزيزي».

فأجابها:

«لا، لست أنت».

تمشيا معاً حتى أصبح الليل لهما لوحدهما. عندها استدارت إليه وقالت في نبرة من الأسى العنيف والتوسل:

«سيغموند!».

احتضنها بين ذراعيه ولكنه لم يقبلها رغم أنها رفعت وجهها إليه. وضع فمه على نحرها، تحت أذنها، حيث قدمتها إليه، ووقف ينظر خلال شعرها مبهوراً مفتوناً.

كان البحر يدخن بالظلام تحت السماء نصف المضاءة، والنجوم تشتعل محترقة واحدة بعد أخرى. نظر سيغموند أولاً إلى واحدة ثم نقل بصره إلى أخرى أكثر عتمة من سابقتها وهي تتلألأ في الظلام فوق البحر. وقف ساكناً تماماً وهو يتأملها، وبالتدريج، بدأ يتذكر كيف كانت شموع الجوقة في الكنيسة ترتجف وهي تنتصب صامتة محترقة ممزقة الظلام نقطة بعد أخرى بقطرات صفر من اللهب، عندما يمسها مساعد الكاهن الواحدة تلو الأخرى برقةٍ بعصاه. كان الليل متسربلاً بالتقوى، ثم بطقوسه المعتادة. ولقد مرت طقوس الليل والنهار بنوع من العبادة الغريبة.

وجد سيغموند نفسه في دير، وتأمل الليل الشبيه بالصحن، حيث تهبط السماء على الأقواس الشبيهة بالبحر. ورأى النجوم وهي تضطرم ناراً. كانت جميعها مقدسة، بغض النظر عمن يكون الرب. وكانت هيلينا الخبز المر ومادة الاحتفال التي مسها بشفتيه كجزء من الطقوس.

كانت هيلينا بين ذراعيه. إنها لرفيقة طيبة، ولكن روحه وحيدةً تماماً. كان من الممكن أن تحضنه، وتخبئه على صدرها الأنثوي من القدر، وتنقذه من البحث عن المجهول، ولكنه في هذه الليلة لم يرد الراحة. فإذا كان «طفلاً يصرخ في الليل» فإنه صراخ لا تستطيع امرأة إسكاته. كان في الخارج يبحث عن الشجاعة والإيمان لروحه، وهو في وحدته يجب أن يبحث عن الخلاص في الليل. ثم فكر مع نفسه:

«لقد تقرر مصيري على نحو دقيق، بل حتى اللعنة تم تخيلها لي. لقد بلغت هذا الحد، أما الآن فيجب أن أكتسب الوضوح

والشجاعة كيما أتبع ما هو مرسوم فأنا لا أريد أن أرتق أو أرقع حتى لعنتي».

ولكنه كان يحتاج إلى معرفة الصواب والتسلسل المناسب لأفعاله. أحس، وقد ابتدأ في الظلام، بأنه يعرف طريقه رغم أنه لا يستطيع رؤيته. فانحنى بإذعان. كانت النجوم، على ما يبدو، تتأرجح برقةٍ دلالة على الاستسلام.

الفصل السادس عشر

عندما شعرت هيلينا أنه منصرف عنها، انتابها الذعر مخافة أن تفقده. كانت بين ذراعيه ولكن روحه أهملتها، وكان ذلك أكثر مما تطيقه كبرياؤها. ومع ذلك لم تتجرأ على إزعاجه فقد كانت خائفة. وبمرارة ندمت على استسلامها للبكاء قبل فترة قصيرة، لماذا لم تتحمل الأمر وتتظاهر؟ لمَ فضحت نفسها على هذا النحو؟ ربما تكون قد فقدته الآن إلى الأبد. كان القلق يأكلها.

وفي النهاية سحبت نفسها منه قليلاً، وأعطته فمها ليقبله، وبينما كان يقبلها بهدوء قبلة حزينة ضغطته إلى صدرها. كان عليها أن تستعيده بغض النظر عما ستفقده، فوضعت يدها برقة على جبينه وسألته:

«بما تُفكر؟».

فأجابها:

«أنا؟ لا أدري. أعتقد أني لا أفكر في أمر محدد».

انتظرت لفترة وهي ملتصقة به، ومن ثم سألته وهي تجد صعوبة في الحديث معه:

«هل كنت قاسية جداً يا عزيزي؟».

كان أمراً غريباً أن يسمع صوتها حزيناً ذليلاً لذلك سحبها بالقرب منه. ورد قائلاً:

«أعتقد أنه كان أمراً مؤسفاً، ولكني أتصور أن لا أحد منا يمكن أن يسيطر على نفسه».

حررها نشيج صغير ثم ضغطت وجهها على صدره، متمنية أن تكون قد ساعدته. ومن ثم، وبإحساس من الحب العذري، ضغطت رأسه على كتفها، وغطت شعره بيديها، وقبلته برقة مرتين على مؤخرة عنقه، قبلات مطمئنة عاشقة، وراحت طوال الوقت تلاطفه وتداعبه بيسر حتى تحول إلى طفل بين يديها.

بقيا واقفين ورأسه على كتفها بعض الوقت، حتى رفع نفسه في النهاية كي يضع شفتيه على شفتيها في قبلة طويلة شافية مجددة، قبلات طويلة شاحبة لما بعد المعاناة.

كان أحدهم قادماً عبر الممر، فحررت هيلينا نفسها منه واستدار بسرعة جانباً قائلة له:

«هل ننزل إلى الماء؟».

فأجابها ماداً يده إليها:

«إن أردت ذلك».

وهكذا نزلا، وقد تشابكت أيديهما، على حافة الجرف باتجاه الساحل.

جلسا في ظل الجزيرة المرتفعة في مواجهة الماء المضطرب. ومن حولهما كانت الرمال والحصى رمادية اللون ممتدة على طوال خط المد الشاحب الطويل الذي كان البحر خلفه يبدو مسوداً مزخرفاً بالنجوم المنعكسة، والسماء القطيفية العميقة تتألق بالنجوم البراقة.

ولأن القمر لم يرتفع بعد، اقترحت هيلينا أن يضطجعا على بقعة من الرمل قرب قاعدة الجرف بانتظار قدومه. وهكذا تمددا

ملتصقين ببعضهما بصمت. كانا معاً يتأملان نجمة واطئة كبيرة تتدلى على نحو مستقيم أمامهما، ساكبة بريقها في نهير صغير من الضوء يصب في البحر قرب أقدامهما تقريباً. كان ممراً مضيئاً رقيقاً وصافياً يرتجف في بريقه ولكنه واضح على سطح الماء. راقبته هيلينا بمتعة حين كان سيغموند يتأمل النجوم التي بدت له مثل مشكاة معلقة عند باب أحدهم تضيء له بيته. وتخيل نفسه يقتفي أثر النجوم. يا ترى ما الذي وراء الباب؟

سمعا صوت باخرة تجتاز الخليج. كان الماء يبدو مزدحماً في الليل برحلات ذهاب وإياب موشحة مظلمة.

كان سيغموند يفكر ساعتئذ ثم سألها:

«ما الأمر؟».

انحنت فوقه ووضعت رأسه في حضنها وأحاطت وجهه بين راحتيها وأجابته بنبرة واطئة، حزينة، حكيمة ومجربة جداً:

«لا يمكنك أن تفهم يا عزيزي. ولكن هناك هذا الظلام الرمادي الذي تتسرب خلاله أصوات الأرواح التي لمستها...».

تقلص قلبه وانقبض فجأة، واعترفت عندئذ أنها ساعدت في إيذاء بياترس وأطفاله، فانكمش حول نفسه خجلاً.

«... صرخات الأرواح ضدي. وأنا لا أستطيع إسكاتها كما لا يمكنني الفرار منها خارج الظلام. لقد أردتك، رأيتك في الأمام، تصفر بأغنية الربيع، ولكني لم أستطع العثور عليك، إذ لم تكن أنت، ولم أستطع العثور عليك».

ثم قبلت عينيه وحاجبيه فقال لها:

«لا، لا أستطيع فهم ما تعنين. وستظلين نفسك دائماً وحتى لو أفكر أن أكرهك ولكنك ستبقين نفسك».

أصدرت صوت مواء ممتلئ بالحب، وحركت فمها على وجهه وهي ممتلئة برثاء حنون مثلما تفعل أم مع طفلها الذي آذى نفسه، وهمهمت بنبرة اعتراف حزينة واطئة:

«إنك تضيعني أحياناً».

ضحك ضحكة قصيرة وكرر قولها:

«أضيعك! أتعنين فقدان افتتاني بك أم تمسكي بك وأنت؟...»

لم تدعه يكمل الجملة بل أصدرت الضوضاء المهمهمة الحزينة نفسها، ووعدته قائلة:

«لن أكون كذلك أبداً بعد الآن».

فأجابها:

«عظيم ما دمت قد قررت ذلك».

احتضنته حول الصدر ولاطفته وهي مشدوهة بالشفقة عليه وهمست قائلة:

«ينبغي ألا تكون قاسياً».

فقال لها:

«أربعة أيام تكفي، إذ أني سأصبح امرءاً لا يطاق خلال أسبوعين. أنا لست مبتدئاً».

فردت عليه بحدة:

«ليس الأمر كذلك يا سيغموند».

فأعاد القول:

«إني أستسلم دائماً، ومن ثم ما حدث الليلة!».

فصرخت في حنق:

«الليلة! الليلة! كنت حمقاء هذه الليلة!».

وسألها:

«وأنا؟».

وصرخت به:

«وأنت، ماذا بشأنك أنت؟».

ومن ثم تملكها الحزن فتفجعت قائلة:

«لقد تملكتني مشاعر حمقاء صغيرة».

«وأنا لا أطيق فرض أي شيء خوفاً من أن أؤذي أحداً، ولذلك فأنا دائماً من يدفع في هذا الطريق أو ذاك مثل أحمق».

فقالت له:

«أنت لا تعرف كيف تؤذيني بحديثك على هذا النحو».

قبلها وقال لها بعد لحظة:

«إنك لست مثل الآخرين. (أنتم يا لاشكس عشيرة أخرى)(*)، لقد فكرت فيك عندما قرأنا هذه الجملة».

«أتفضل أن أكون مثل الآخرين أو ألا أكون مثلهم ياسيغموند؟».

فرد عليها:

«لا أفضل الأمرين. إنك أنت».

خيم الصمت لفترة من الزمن، كانت الحركة الوحيدة في ذلك الليل هي قفزات ضوء النجوم الواهن على سطح الماء. ومر آخر شخص بظله الأسود بينهما وبين البحر. كان سيغموند يفكر

(*) بالألمانية في الأصل

بمرارة. إذ يبدو أنها كانت تدفعه للغوص أعمق فأعمق في الحياة، في حين كان لديه إحساس باليأس وتفضيل الموت. وعادت إلى ذاكرته مقاطع الشعر الألماني الذي أنشدته معه، والذي أحبت فيه تصويره للحب الحر العنيف:

«يمشي الموت بجانبنا مرئياً، ويتوغل أكثر فأكثر في حياتنا»(*).

إن المكان الذي سيبحث عنه الآن، مثل أرنب بري يجري هابطاً نحو الأسفل، هو بيته، ولقد بدا له مستحيلاً أن يعيده الغد إلى بياترس فقال لها:

«في مثل هذا الوقت مساء غد...».

فتوسلت إليه:

«سيغموند!».

وضحك في وجهها قائلاً:

«ولم لا؟».

وناشدته متوسلة:

«لا تفعل ذلك يا عزيزي».

«حسن، لن أفعله».

كان الماء يرتطم بباخرة كبيرة تجتاز الخليج وينكسر في موجات ناتئة بارزة، وتجولت نفحة هواء ساخنة مقتربة ومبتعدة عنهما بين الحين والآخر.

وسألته هيلينا:

«ألن تتعب عندما تعود إلى البيت؟».

(*) بالألمانية في الأصل

وردد الكلمة بعدها مستفهماً:

«أتعب؟».

فذكرته بنبرة مليئة بالرثاء:

«أنت تعرف كيف كان حالك عندما قدمت إلى هنا».

ضحك عند سماعه ذلك وقال:

«أوه، لقد ولى ذلك».

ربتت على خده بإيقاع آلي بطيء وسألته مترددة:

«وهل ستكون حزيناً؟».

وردد بعدها:

«حزين!».

«ولكنك ستتظاهر باستعادة حياتك القديمة، وربما ستكون أسعد، عندما تعود».

فقال لها:

«أفترض أن الحياة القديمة هي التي ستستعيدني».

ران صمت بينهما، ثم قالت له:

«أعتقد يا عزيزي أني ارتكبت خطأ».

فأجابها بنبرة حادة وهو يضغط رأسه إلى الخلف كي ينظر إليها للمرة الأولى:

«يالله، إنك لم تفعلي ذلك!».

«يجب أن أعيدك إلى بياترس والأطفال غداً، مثلما أنت عليه الآن...».

وهتف بها عندما عضته الحقيقة وقد انتصب جالساً على نحو مفاجئ:

«لا تفكري في الغد، اهدئي يا هيلينا».

فسألته خائفة:

«لماذا؟».

وكرر بعدها:

«لماذا؟».

بقي جالساً منحنياً إلى الأمام على الرمل وهو يحملق بهيلينا، فنظرت إليه فزعة، وأخافتها اللحظة وأفقدتها شجاعتها.

وبحركة انفعالية وضعت يدها على يده التي كانت تضغط على الرمل بشدة بينما كان منحنياً إلى الأمام، وفي الحال استرخى من تشنجه وابتسم لها وأصبح لطيفاً ودوداً.

أسلمت هيلينا نفسها لذراعيه مثل طفل مهجور حيث استلقت شبه باكية وفيما راح يداعب جبينها بأصابعه، وحبات من الرمل تسقط من راحته على خدها. كانت تبكي بنشيج جاف مثل طفل يهرب من مبضع الطبيب ويختبئ في صدر الأم، رافضاً أن يمسه أحد.

ولكنها تعرف أن غداً قادم شاءت أم أبت، فانكمشت على صدره، متوحشة من رعب الفراق والأيام التي تليه. إن عليهما أن يتجرعا بعد غد من كأسين منفصلين. وامتلأت برعب مبهم خوفاً مما يحدث. لقد اختفى الإحساس بتوحدهما ووحدة قدريهما.

كان سيغموند أيضاً خائفاً من رعب الفراق، ولكنه على معرفة أكثر تحديداً بالخطوة اللاحقة من هيلينا. كان قلبه متأكداً من الفاجعة التي ستحل به بشكل مباشر، فانكمش قليلاً، وحاول بحركة عنيفة أن يجد مهرباً من اليوم القادم ونتائجه. ولم يكن يريد الذهاب. أي شيء إلا العودة.

في ذروة إحساسهما بالخوف، ارتفع القمر في كبد السماء، وابتدأ سيغموند يرى حافته المتوردة وراء البحر، فتوقف فجأة

صراعه مع نفسه، وراقب مفتوناً الفرن الذهبي البيضوي الناري وهو يرتفع في السماء مبدداً نفسه، وانثال سائل ذهبي وانسكب على الأمواج النائية حيث نفضته في قطرات متوردة، وارتفع الكأس الذهبي المحمر إلى الأعلى، بارزاً أمامه كبير الحجم جداً، ومع ذلك لم ينكشف كله، وببطء انفصل الفرن الذهبي من الظلام عن مؤخرة الأمواج. كان القمر هائلاً ومرعباً. فمتى يا ترى توضع النفحة على مائدة البحر؟».

ارتفع القمر في النهاية أمامه، مكتملاً وهادئاً، ثم تناول الليل كأس شرابه من الذهب الناري، رافعاً إياه في حركة مهيبة نحو الأعلى، تاركاً السائل الذهبي الرائع ينثال إلى الأسفل فوق ماء البحر.

راقب سيغموند فيضان الذهب المضطرب والذهب الشاحب وهو ينتشر كلما رفع الليل البلورة الشاحبة، وهو يسكب أكثر فأكثر من الكأس الأبيض حتى بدا القمر في النهاية هشاً وفارغاً.

عندئذ اهتز الضوء الأبيض الذي لم يُستَنفد بعد في الليل البهيم على قاع البحر. وتساءل سيغموند مع نفسه عن الكيفية التي سيُجمع بها، وهمهم قائلاً:

«سأجمعه داخل نفسي».

وكانت النجوم والجروف وبضع شجيرات تراقب أيضاً، ثم فكر مع نفسه:

«إذا كنت قد سكبت حياتي، فإن عيون الأرض والسموات الغريبة ستجمعها مرة أخرى».

وعندما استدار إلى هيلينا، وجد وجهها أبيض مشرقاً مثل القمر الفارغ.

الفصل السابع عشر

استغرق سيغموند في النوم عند طلوع الفجر، وطوال أربع ساعات حتى السابعة، احتضنه رحم النوم وغذاه مرة أخرى. وخاطب نفسه «لكن الأروع من كل هذا هو أن تستيقظ»، بينما كان ضوء الشمس البراق يطل عبر الشباك، وشروق الشمس الأخضر اللامع يتسرب عبر الأوراق المتسلقة، داعياً إياه للخروج إلى الهواء الطلق.

كان الصبح جميلاً للغاية، وقد تأمل سيغموند برقة فائقة بحيث أن عينيه الزرقاوين ارتجفتا شفقة بنفسه. وألقت عليه وردة إبرة الراعي القرمزية نظرة عابرة عندما مر بها، وقد كان بمقدوره أن يرى وسط ذلك البساط القرمزي عيون الأزهار الكئيبة وهي تعرض عليه الحب، مثلما يرى المرء عيني جندي تحت خوذته وهما تجفلان. نظرت إليه كل الأشياء بعيون يملؤها الجوى، عارضة عليه، مخلوعة الفؤاد، قليلاً من الحب.

وخاطب سيغموند زهرة شيخ الربيع التي كانت تفغر فاها وزهرة الشيخ المكتئبة الخرقاء «إنهم لطفاء جداً»، ورفرفت ثلاث فراشات صاعدات هابطات في قفزات صغيرة مضطربة من حوله، ومد سيغموند يده غريزياً إلى الأمام كي يلمسها. وقال لنفسه مهمهماً: «يا للمتسولين الصغار المهملين!».

عندما وصل قمة الجرف، كان الصباح هناك أنيق المظهر يندفع نحو الأمام بضوضاء وشروق حريريين كي يلتقي به. لقد اختفت السفن الحربية، وكان البحر أزرق محملاً بسلة مملوءة بالماس، والسماء ممتلئة بجوى ضبابي يشبه الحب. لم يميز سيغموند من قبل إطلاقاً العاطفة التي تربطه بالأشياء الأخرى، فنحن لا نعرف قيمة الأشياء المألوفة ولا ندرك صعوبة الاستغناء عنها حتى نفارقها فنحطم قلوبنا. وكان كل شيء يردد: «لقد كنا جميعاً سعداء معاً».

نظر سيغموند في عيون الصباح ضاحكاً وخاطب نفسه قائلاً:

«الدنيا رائعة جداً بغض النظر عما سيحدث».

هبط إلى الشاطئ وقد اكتست عيناه الزرقاوان بزرقة أشد من معاناة الليلة الماضية، وابتسم بكبرياء الحب لنفسه، وخلع ملابسه قرب صخرة المذبح المعتادة، وقال لنفسه يخاطبها:

«كم يبدو كل شيء مألوفاً، فقد تدورت خطوط هذه الصخرة كيما تلائم روحي». تلمس انحدار الصخرة الأبيض الناعم بلطف وبأصابع مستكشفة، بالطريقة التي يلمس فيها خد هيلينا أو أطفاله. لقد وجد متعة هائلة في تآلفه مع الأشياء، وشبكت ريح ناعمة جداً وخجول، مثل فتاة، ذراعيها حوله، وبدت وكأنها تسند خدها على صدره فوضع كفيه تحت ذراعيه حيث الريح تلاطفه، واتسعت عيناه بمتعة دهشة، وقال لنفسه:

«إنهم لا يجدون فيّ عيباً». وأضاف بينما كان يخوض في الماء الذي يصل إلى ارتفاع حوضه، متجولاً فيه كيما يسمع الاحتجاج المتظاهر بالغضب: «أعتقد أنهم عرضة للخطأ مثلي، لذلك فهم لا يصدرون أحكاماً». ثم احتضن البحر بين ذراعيه وسبح بهدوء شديد، فرفعه الماء إلى الأعلى، محتضناً إياه، واتجه نحو

صخور اللسان الأرضي البيضاء التي كانت تنتصب أمامه مثل بوابات محصنة جميلة، متلألئة إلى درجة أنه توقع أن يجد طيور الحمام وهي تهدل فتبدو مثل العيون البيض داخل الكوى، وأن يرى طواويس بيضاً ذات أقدام خضر تهبط الدكات متعقبة بريق الفضة.

وقال لنفسه وهو يسبح:

«إن هيلينا على صواب».

ولم يكن يسبح بالمعنى الدقيق، بل كان يتحرك على صدر الموجة، وأضاف: «إنها على صواب. فكل شيء مسحور، لقد استحوذ عليَّ سحرها في النهاية. دعنا نر كيف يبدو».

عقد العزم على أن يزور خليجه الصغير مرة أخرى، فسبح بحذر حول الدكات التي كانت ظلالها الشاحبة عبر سطح الماء الزمردي تبدو مجرد وهم. لمسها سيغموند بقدمه، فكانت صلبة وباردة وخطرة. سبح بعناية فائقة بينما هو يتوجه نحو القوس الصخري، حيث ظلال اللسان الأرضي تكسب الماء برودة، وهنالك تحت الماء، عند قواعد الجدران الغاطسة، كان ثمة حشد من حوريات البحر ذوات خصلات شعر غامقة اللون وحوريات شابات ذوات شعر ناعم أخضر حي، يحاولن التسلق خارجات من الظلام إلى النور، وشعرهن يدور منثوراً، وكان سيغموند شبه خائف من محاولاتهن المسحورة.

ولكن المدّ حمله برقة خلال البوابة العالية إلى الشرفة. وقد كان فرحاً لاندفاعه الكاسح هذا. كانت جدران القوس بيضاء اللون، لحمية الملمس ممتلئة منقطة بأضواء خضر تتراقص داخلة خارجة فيما بينها. حمل سيغموند بمركبة خفيفة تحت الجدران المزخرفة بالحلي، وانحرف المدّ ورماه، بينما كان يسبح قرب

الصخرة البيضاء المقوسة، واصطدم مرفقه بالصخرة فتألم جداً. حبس أنفاسه محاولاً استعادة المرح والسحر، ولم يستطع تصديق أن ذلك الجانب الجميل الناعم من الصخرة الذي يشبه خاصرته بتموجات عضلاتها، يمكن أن يؤلمه على هذا النحو. ترك الماء يحمله كي يستطيع الخروج إلى حصى الشاطئ، حيث قرفص على كتلة صخرية دافئة واستدار كي يتفحص ذراعه.

كان الجلد قد خدش ولكن ليس بدرجة سيئة. بدت مجرد قطع قرمزية ممزقة، بعد دقيقة من ذلك، قال راثياً نفسه:

«لا، من المستحيل أن تلحق الأذى بي. أعتقد أني كنت مُهمِلاً».

ومع ذلك، فقد تغير مزاج الصباح كله. جلس على الكتلة الصخرية يتأمل البحر. ومرحت السماء اللازوردية مع البحر، وهما يتبادلان الحديث بمتعة، وتهامس لسانا الأرض الممتدان في الخليج معاً، كانت كل حصى البحر ودمالج الشاطئ تلهو معاً. وخاطب سيغموند نفسه:

«بالتأكيد إنهم لم يروني، ولا يهتمون مثقال ذرة بي، إني أحمق حتى أتخيل نفسي واحداً منهم»، ولقد ناقض هذا الحنان الذي أحاطوه به في الصباح عندما كان يقف على الجرف، فأضاف: «لقد كنت مخطئاً، وكان ذلك وهماً».

تطلع إلى الخارج بأسى مرة أخرى. كانت الألسن الأرضية، مثل جيران مطلين من شبابيك متقابلة في شارع معلق، يتحدث بعضهم مع بعض، والصخور البيض هائمة في البحر متبوعة من كثب بصخور بيض أُخَر. كان الجميع مشغولين وسعداء، وكل واحد منهم مشغول بنفسه وبرفاقه الآخرين. بينما سيغموند وحيداً من دون رفيق.

«سيستمرون على هذا النحو وسيكونون سعداء مثلما هم الآن، وحتى هيلينا ستضحك». وفكر سيغموند في عبث الموت:

«لم نعد نتوق للموسيقى والضحك،

أو للحب أو الرغبة أو البغضاء.

لم تعد لنا حصّة فيها.

بعد أن اجتزنا البوابة».

وسأل نفسه متمرداً:

«لم أطرد خارج اللعبة؟».

قطب حاجبيه وأجاب نفسه:

«أوه يا إلهي، المحاجّة القديمة!».

ولكن فكرة أزاحته من الصورة، وكانت تجربة مرةً جداً بالنسبة إليه.

«يجب أن أختفي مثل نفحة من مدخنة باخرة».

تفحص نفسه وأطرافه وجسده باعتزاز وكبرياء وبدا جميلاً في عينيه.

«لا شيء مثلي قد اختفى كنفخة دخان ذابت في شروق الشمس».

ومرة أخرى، تأمل سيغموند البحر، فكان يتألق كما لو أنه يمزح، وهمس لنفسه وهو يضطجع على الرمل الدافئ:

«أنا لا شيء. أنا لا أحد. أنا غير محسوس».

صر على أسنانه بألم، ولم تكن هناك دموع، ولم يكن هناك ارتياح، وهزه لهاث متشنج بينما كان يتمدد على الرمل، وطوال الوقت راح يتجادل مع نفسه ويردد:

«حسن، إذا كنت لا شيء وأنا ميت، فأنا لا شيء وأنا حي». ولكن المثل الشائع: «كلب حي خير من أسد ميت» تبادر إلى ذهنه كي يرد عليه.

يبدو أن من العار أن تموت، فذلك يعني أن تُهمَل حتى من قبل أكثر مخلوقات الأرض حقارة، ولقد كان ذلك بالتأكيد خزياً عظيماً.

أما هيلينا، فقد كانت ساعتئذ تستحم في ساحل البحر نفسه. ولم تكن سباحة ماهرة، إلا أن متعتها الفائقة باتت تنحصر في استكشافها كل الكنوز الصغيرة، فالعالم في عينيها صندوق عجائب كبيراً، يخفي لعباً جميلة لا تعد ولا تحصى، في كل واحد من شقوقه ليفاجئها. ثم استحمت بعد ذلك في العديد من البرك الصخرية الدافئة، جربتها الواحدة تلو الأخرى، ثم اضطجعت على الرمل، حيث صارت أذرع المحيط البارد ترفعها وتكتم أنفاسها مثل عشيق شرير.

«البحر هم ثقيل مثل سيغموند» قالت لنفسها وهي تنهض لاهثة، محاولة تحرير منخريها من الماء. كان ذلك صحيحاً، فقد ملأها البحر، عندما كان يندفع فوقها، بالرعب الهائل نفسه الذي يسيطر عليها عندما يصبح سيغموند صامتاً وغامضاً إبان المدّ في عاطفته.

تجولت عائدة إلى بركتها الصغيرة. كانت البرك براقة وأليفة لا تندفع فوقها في لعبة الرعب التي مارسها البحر. انحنت فوقها لتراقب بتلات شقائق النعمان اللحمية وهي تتقلص عند لمس ظلها. ثم بدأت تضحك عندما اكتشفت أن الشقائق مرعوبة من دون سبب. كان المدّ الجاري يقطر بين الصخور، يوسع ويعمق بركها الصغيرة. وتراجعت هيلينا نحو كهف كبير حول المنعطف، حيث الماء يقرقر تحت طحلب الفوقس الحويصلي بين الصخور الكبيرة، وكان الهواء بارداً ورطباً، وتابعت طريقها عبر المنعطف المظلم

من دون داع، وكانت ترتجف من ملمس أعشاب البحر الخشن تحت قدميها العاريتين. وتسرب الماء ينساب بين طحالب الفوقس بينما هي تزحف على الصخور الكبيرة ليعود بخرير هادئ يبث الرعب فيها، رغم أن ذلك لم يكن أمراً كريهاً. ولقد احتاجت من أجل هذا، إلى شجاعة أكثر مما كانت تستطيع استجماعه قبل أن تتمكن من النزول من صخرتها إلى البركة التي أمامها. راحت البركة مفروشة بغطاء سميك من الأعشاب البحرية التي كانت تنزلق تحت قدميها مثل الأفاعي، فتسلقت مسرعة إلى الأعلى باتجاه المنفذ.

عندما استدارت كان القوس المهدم أمامها أشد بريقاً من الشباك المتألق. كان من السهل عليها أن تصدق أن الجنيات المضيئات يقفن في حشد في الخارج، مهتاجات في خوف رائع، وكن يرمين ملء أيديهن من الضوء في كهف التنين.

وقالت هيلينا وهي تتسلق ضاحكة نحو الأمام:

«كم سيدهش لرؤيتي».

وقفت تحت القوس مدهوشة. كان البحر يتلألأ بنار بيضاء باللازورد مثلما يتألق الفحم بالاحمرار والحرارة تحت اللهب. كانت ثمة خروق بيض تتخلل وجه البحر، بينما تتعلق فوقه السماء الزرقاء مزهوة، مثل دخان النار الإلهية الأزرق. وقفت هيلينا ساكنة متعبدة. وغمرتها الدهشة عندما وقفت مقطوعة الأنفاس، عمياء تعرض نفسها طواعية للتضحية. أحست أنها تواجه الرب في بيته، في توهجه الأبيض، فاستقرت ناره عليها مثل الروح القدس، وانفجرت شفتاها في متعة إعجاب أنثوية.

مرت لحظة، ثم هرعت أفكارها إلى الأمام مرتبكة ورددت:

«هذا رائع، رائع جداً».

نظرت مرة أخرى، فرأت الأمواج مثل صف من الأطفال

يتسابقون يداً بيد، يتبعهم ضوء الشمس، ويمسك بهم من الخلف وهم يركضون حتى يسقطوا، وضوء الشمس يتراقص فوقهم مثل كلب أبيض، وقالت:

«ذلك مدهش حقاً».

ولكن اللحظة كانت قد تلاشت، ولم تعد ترى توهج الرب الهائل بين الأمواج. وبعد فترة أدارت وجهها بعيداً، ثم وقفت تغسل ملابس سباحتها في البركة، عندما قَدِم سيغموند نحوها وقال لها:

«ألم تعودي إذن؟».

فهتفت: «سيغموند!» وكانت تتأمله بعينين متألقتين، وبدا لها استحالة التحاقه بها في هذا المكان النادر. كان وجهه يتوهج بحروق الشمس، ولكن هيلينا لم تلاحظ أن عينيه كانتا تشعان بالتعاسة.

رد مبتسماً:

«أنا هو في الحقيقة!».

فقالت له، وهي ما تزال تنظر إليه بدهشة متألقة:

«لم أتوقعك. كان من الأسهل أن أتوقع...».

وترددت في الكلام ثم استمرت قائلة وهي تنظر بلهفة إلى وجه سيغموند:

«...إيروس(*) وهو يمشي قرب البحر، ولكنك مثله على أية حال».

وأردفت: «أليس الجو رائعاً هذا الصباح؟».

تحمل سيغموند نظرتها الواسعة السعيدة للحظة ثم انحنى وقبلها، وبقي يحرك يده في البركة خجولاً وممتلئاً بالتناقض. كان

(*) إيروس: إله الحب عند الإغريق يقابل كيوبيد عند الرومان.

وهو في نقطة الوداع المر، يستطيع أن يرى، خلف المتعة التي من حوله، هيكل حياته الحقيقية القبيح.

وسألته هيلينا وهي تعصر ملابسها:

«أليس البحر مدهشاً هذا الصباح؟».

أجابها:

«رائع جداً».

ولكنه امتنع عن البوح بما في قلبه: «هذا صباحي الأخير وليس صباحك، صباحي الأخير، والبحر مستمتع بالنكتة وأنت ممتلئة بالمتعة».

وردد قائلاً:

«نعم، الصباح مكتمل».

وأيدت هيلينا بحرارة:

«هو كذلك. هل لاحظت الأمواج؟ إنها مثل صف من الأطفال يطاردهم كلب أبيض».

ووافقها سيغموند:

«نعم».

ثم سألته وهي تلمسه بأطرافها عند مؤخرة عنقه وهو يقف إلى جانبها:

«هل قضيت وقتاً ممتعاً؟».

فأجابها:

«لقد سبحت إلى خليجي الصغير مرة أخرى».

هتفت مسرورة:

«هل فعلت ذلك؟» ثم جلست قرب البركة التي كانت تغسل فيها رجليها من الرمل، ثم مدتهما إلى سيغموند كي يجففهما.

قالت له:

«أنا جائعة جداً».

فأجابها موافقاً:

«وأنا كذلك».

وردت بابتهاج:

«أحس أني مستقرة هنا تماماً».

وذكرها شيء ما في حالته بقرب مغادرتهما.

ضحك سيغموند عند سماعه ذلك. وأصرت هيلينا قائلة:

«يبدو زمان أبدي آخر، ذلك الذي يفصلنا عن قطار الثالثة وخمس وأربعين دقيقة. أليس كذلك؟».

فقال لها:

«أتمنى لو أننا لا نعود مطلقاً».

فتنهدت هيلينا قائلة:

«سيكون ذلك كثيراً على الحياة كي تمنحه. لقد حصلنا على شيء ما يا سيغموند».

أحنى رأسه ولم يجب، فأعادت الجملة:

«لقد كان شيئاً ما يا عزيزي؟».

نهض سيغموند واحتضنها بين ذراعيه، وقال ووجهه مكتوم في ثوبها:

«كل شيء».

كان بإمكانه أن يستنشق عطرها الطازج الرائع الناتج من البحر، وردد مرة أخرى:

«كل شيء!».

ضغطت رأسه بيديها وسألته:

«لقد أحسنت صنعاً، أليس كذلك يا سيغموند؟».

كانت تشعر بمسؤوليتها عن هذه العطلة، فقد كانت هي التي اقترحتها، وعندما انسحب رفضت أن تتركه يتخلى عن كلمته، معلنة أنها سوف تدفع التكاليف ولقد وافق عليها في النهاية.

أجابها:

«أنت رائعة على نحو مدهش يا هيلينا».

فقبلت جبينه فأضاف:

«أنت كل شيء».

ثم ضغطت رأسه على صدرها...

الفصل الثامن عشر

حلق سيغموند ذقنه وارتدى ملابسه ونزل لتناول الإفطار، وأحضرت السيدة كيرتس القهوة. كانت امرأة صغيرة هشة ذات أخلاق نبيلة رقيقة، ثم قالت ولم تكن تخاطب شخصاً معيناً:

«سيكون ماء البحر دافئاً هذا الصباح».

وقف سيغموند على سجادة الموقد ويداه خلفه، يراوح بين قدم وأخرى. كان يصيبه الحرج دائماً في حضرة المرأة الصغيرة اللطيفة، فهو لا يستطيع الشعور بالراحة أمام الغرباء ولا بقدرته على عشق هيلينا.

ردت عليها هيلينا موافقة:

«نعم إنه كذلك، دافئ مثل حليب طازج».

فهتفت السيدة العجوز وهي تتأمل بإعجاب تجربة سيغموند وحبيبته قائلة:

«هل شاهدتما السفن الحربية؟».

أجابتها هيلينا:

«لا، لقد غادرت».

أما سيغموند فقد راوح بين قدم وأخرى بإيقاع.

وسألت السيدة العجوز:

«وهل ستعودان لتناول الغداء اليوم؟».

وكانت هيلينا هي التي رتبت الأمر.

وأضافت السيدة كيرتس وهي تلقي نظرة على سيغموند الذي ابتسم لها مجبراً:

«أعتقد أنكما معاً تبدوان في حالة أفضل الآن».

وخاطبته متعاطفة:

«كنت تبدو تعباً جداً عندما وصلت إلى هنا».

فعلقت هيلينا وهي تنظر إليه أيضاً:

«كان يجهد نفسه كثيراً في العمل».

حنى رأسه إلى الأسفل بينما كان يصفر من دون أن يصدر صوتاً.

ووافقت المرأة الصغيرة قائلة:

«نعم، إنكما لم تقضيا إلا وقتاً قصيراً. من المؤسف أنكما لا تستطيعان انتظار الألعاب النارية التي ستقام في كوي يوم الاثنين القادم. يقولون إنها رائعة».

رفعت هيلينا حاجبيها في دهشة مؤدبة وسألتها:

«ألم تريها من قبل مطلقاً؟».

أجابت السيدة كيرتس:

«لا لم يتسن لي ذلك قط، ولكني آمل أن أذهب هذه المرة».

وقال سيغموند:

«آمل أنك ستستطيعين».

نظرت السيدة الصغيرة إليه، وأحست أنها راضية تماماً بعد حصولها على كلمة منه، وقالت مبتهجة:

«حسن، لابد أن البيض قد نضج الآن».

ثم ذهبت وعادت مباشرة وهي تقول لهما:

«لقد جلبت لكما بعضاً من قشدة الجزيرة وبعض الكشمش الأبيض إذا كنتما ترغبان. يجب أن تتذكرا الجزيرة جيداً وتعودا إليها».

فردت هيلينا ضاحكة:

«وكيف نستطيع غير ذلك؟».

وأجابها سيغموند مبتسماً:

«سنفعل».

عندما أغلق الباب عليهما في النهاية جلس سيغموند شاعراً بالراحة. نظرت إليه هيلينا بمتعة آلية فهي تصبح أنانية جداً في حضرة السيدة الصغيرة الممتعة، وقالت له بينما كانت ترفع عنقوداً من الكشمش الأبيض الرائع:

«هذا واحد من الأماكن القليلة التي أشعر فيها أني في بيتي».

فهتف سيغموند مبتسماً لها:

«آه».

فأضافت:

«واحد من الأمكنة القليلة التي يبدو كل شيء فيها أليفاً، وكل شخص أيضاً».

وسألها بسخرية رقيقة:

«هل خلقت لكِ الكثير من الأعداء؟».

فأجابته:

«غرباء. يبدو أني أحول كل الناس الذين أقابلهم إلى غرباء».

ضحكت مسرورة لهذه الطرفة. ونظر سيغموند إليها بانتباه مفكراً أنها ستكون في غيابه وحيدة بين غرباء».

«هل علينا أن نذهب ـ أن نغادر مكان الأصدقاء هذا؟».

قال ذلك كما لو أنه يتهكم فقد كان خائفاً من إغرائها.

ألقت نظرة على الساعة الموضوعة فوق رف الموقد ثم ابتدأت العد وقالت ضاحكة:

«واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس ساعات وخمس وثلاثون دقيقة. إنه عمر أمامنا».

ضحك سيغموند بينما كان يتناول من يدها عنقود الكشمش الجميل.

الفصل التاسع عشر

كان الهواء عذباً ودافئاً وهو يهب عبر الطريق الصغير البعيد عن البحر الذي سلكاه في جولتهما الأخيرة. وعلى الجانب الآخر كان الطريق الأبيض مثل حافة معشوشبة سميكة منسوجة بالبنفسج، وتسلقت بعض الزهور الصغيرة الطائشة بفرح جذع شجرة الطقسوس العجوز وهي تنظر بمكر إلى مضيفتها الخشنة. وتمشت هيلينا تراقب الأزهار وتختلق الأوهام من حولها. وقالت تخاطب نفسها:

«من أسمى هذه الأزهار هواتف الجن؟ لا، إنها تشبه أطفالاً صغاراً متلفعين في مآزرهم. يا لفرط سعادتهم! إنهم أطفال يتلكؤون على رصيف الصباح. انظر كيف يطيقون الريح المفاجئة! وكيف يمرحون تحت شروق الشمس! وعندما يتعبون فإنهم ينكمشون برقة ليناموا، وستجمعهم بعض الجنيات في الظلام معاً، ولن يكونوا هنا في الصباح، ضامرين بالين... لو كان بإمكاننا أن ننكمش ونتلاشى بعد انتهاء يومنا...».

نظرت إلى سيغموند الذي كان يمشي حزيناً إلى جانبها وقالت له:

«من الرائع ألا تكون ثمة نكسات في الحياة».

أجابها سيغموند الذي لم يدرك فهم ما رمت إليه:

«نعم!».

ابتعدت عنه متجولة بين العشب السميك بقامتها البيضاء الثابتة، شاردة الذهن ورأسها منحن إلى الأسفل، ولكنها كانت تشعر بالسعادة.

وسأل نفسه:

«بماذا تفكر يا ترى؟ إنها تبدو مكتفية بذاتها ولا تحتاجني».

قالت وهي تستدير وتنظر إليه من تحت حاجبيها مثل ساحرة مبتسمة:

«لقد كان الندى غزيراً جداً».

وأجابها:

«يبدو أنه كذلك» ومن ثم قال مخاطباً نفسه «إنها لا تستطيع ترجمة نفسها إلى لغة مفهومة، إذ لا يمكن الاتصال بها. وهي مستعصية على الفهم، لذلك فإنها وحيدة ومخلصة لنفسها وحسب. إنها تريد فقط أن تستكشفني كبركة ماء بين الصخور، وأن تستحم بي، وبعد فترة من ذهابي ستكتشف أني لست ذلك الشخص الذي لا يمكن الاستغناء عنه».

قادهما الطريق إلى الأعلى باتجاه التل الشرقي، وحالما وصلا، شاهدا على الجهة اليسرى منزلاً ريفياً أحمر اللون، أنيقاً ينحدر سقفه الواطئ الملون بلون الغسق الأحمر إلى الأسفل باتجاه العشب الأخضر البارد. كان المنزل محاطاً ومزخرفاً بحافة من زهور بيضاء وصفراء وقرمزية الألوان تتلألأ بالندى.

كان هناك رجل بدين يرتدي سترة من صوف الألبكا وقبعة بنمية، يجلس على العشب العاري معطياً ظهره للشمس وهو يقرأ جريدة. حاول الرجل من دون جدوى أن يتجنب سطوع الشمس على ما يقرأ. وفي النهاية أغلق الجريدة ونظر بغضب إلى البيت، ولكن

ليس إلى شيء محدد فيه، ثم عاد فقرأ منزعجاً بضعة أسطر أُخرَ لكنه ما لبث أن نفض رأسه في قرار مفاجئ محملقاً في باب البيت المفتوح وصرخ:

«إيمي، إيمي!».

لم يرد عليه أحد، فرمى الصحيفة واندفع نحو الداخل. كانت سيماؤه ذات مظهر غاضب، ثم سمع وهو يصيح بصوت جاف من غرفة الطعام، وتبعت ذلك جلجلة وأوانٍ نتجت من اصطدامه برجل المائدة في غرفة الجلوس.

قال سيغموند ضاحكاً:

«إن مزاجه سيء جداً».

وردت هيلينا بازدراء:

«لأن الفطور متأخر».

فقال لها سيغموند:

«انظري».

أسرعت امرأتان، أحدهما سيدة عجوز ترتدي ثوباً كتانياً مقلماً بالأبيض والأسود، والثانية شابة في ثوب من القماش الهولندي، وهما تحملان بعض الورود البرية باتجاه بوابة الحديقة، وقد استدار وجهاهما شطر البيت. كانتا مسرعتين، ولم تتمالكا أنفاسهما كي تستطيعا الكلام، اندفعت الفتاة إلى الأمام، وفتحت الباب للسيدة ذات الثوب المخطط التي أسرعت مندفعة فوق العشب، وتبعتها الابنة التي اختفت أيضاً تحت الشرفة المظللة. سُمعت بعد ذلك أصوات نسوية واطئة معتذرة يعلوها سباب رجل مستاء، فابتعد العاشقان كي لا يسمعا ذلك.

قال لها سيغموند:

«تخيلي أن تلك هي مائدة الإفطار».

فردت هيلينا بنبرة يشوبها الازدراء:

«أشعر كما لو أن ديكاً سريع الاهتياج ودجاجات قد تشاجرت عبر طريقي».

فقال سيغموند معنياً بالأمر:

«هذه الأمور غالباً ما تحدث».

ولم يرق له ازدراء هيلينا البارد. تحدثت إليه بابتهاج ورقة بينما كانا يجتازان التل المنخفض كي يلتقيا قوس الشاطئ، وكان سيغموند سعيداً أيضاً، ولكن الإحساس بالإهانة الذي لحقه البارحة من معاملتها له قد سكن داخله وجعله ينزف سراً مثل جرح. لقد مزقه هذا النزيف الناتج من احتقار الذات حتى النهاية.

لقد رفضته هيلينا وسلمت نفسها إلى أوهامها فقط. ولبعض الوقت أربكت سيغموند بما فيه الكفاية بربها، أما البارحة فقد راحت تصرخ بحثاً عن عاشقها المثالي فلم تجد إلا سيغموند، وكان ذلك هو الرمح الذي انغرس داخل احترامه لنفسه الممزقة، عندها خاطب نفسه باحتقار:

«على الأقل يجب أن يجد أحد ما أثر الرب فيّ. ومن ذا الذي يستطيع ذلك، إذا كنت لا أعتقد بوجوده داخلي».

وفي احتدام متعة ومعاناة هواه المتجسد، اتحدت الجزيرة أمام ناظريه ببحرها وسمائها، وأصبحت مثل خرزة براقة، وشع جمالها كله من مصدر واحد. ورآه سيغموند عارياً، رأى جمال كل شيء عارياً في سحر الخرزة الملألئ «ستختفي هذه الجزيرة غداً» وسيبحث عن الجمال فلا يجد إلا القبح، فما الذي يجب أن يفعله؟

قالت له هيلينا وقد استعملت اسمه الأول القديم:

«أتعرف يا دومين، تبدو متجهماً اليوم؟».

ضحك وهو يجيبها:

«أحس بكل شيء إلا التجهم. أشعر أني أضعف من المعتاد».

«نعم، ربما أنت كذلك، عندما تتحدث تكون لطيفاً على نحو مدهش، ولكني أخافك عندما تصمت، عندها تبدو حزيناً جداً».

ضحك لها مرة أخرى وقال:

«أو لن أكون شجاعاً؟ (ألا تستطيعين استنشاق دخان روما وضجتها)(*)». ثم استدار إليها بسرعة، وأضاف:

«إني أتساءل عما إذا قد لفظت ذلك بطريقة صحيحة، لقد مرت عدة سنوات منذ أن قرأت سطراً واحداً باللغة اللاتينية، ولقد اعتقدت أن كل شيء قد تبخر من ذاكرتي».

فقال له هيلينا بهدوء:

«أخبرني أولاً ماذا يعني ذلك، لأني لا أستطيع أن أترجم إلا نصف الشطر. لقد رميت كل دفاتري التي تحوي ذلك الهراء».

فرد سيغموند وهو مرتبك تقريباً:

«لماذا؟ إنها تعني دخان روما وضجتها، ولكنه لأمر مدهش يا هيلينا»، وارتسمت على وجهه نظرة دهشة غريبة مرة أخرى وقال:

«إن من المدهش حقاً أني قد تذكرت ذلك».

فقالت له مبتسمة:

«نعم، إنك تبدو مدهوشاً».

فاستمر قائلاً:

«لابد أني كنت في العشرين من عمري حينذاك...» ثم ابتدأ

(*) باللاتينية في الأصل

يعد، «لقد مرت اثنتان أو ثلاث وعشرون سنة منذ أن تعلمت ذلك، ولقد نسيته الآن تماماً، الله وحده يعرف كم مر من الوقت على ذلك، فأنا مثل رجل غارق يشعر بأنه قد مر بهذه الذكريات قبل...».

وتوقف عن الكلام مبتسماً بسخرية كي يلاطفها، إلا أنها قالت له بنبرة تهكمية تقريباً:

«قبل أن تعود إلى لندن».

كانت غامضة، وفي ذلك الصباح لم تسمح لأية عاطفة عميقة أن تطفو على السطح، كانت تنشد الراحة. لذلك قالت بنبرة هادئة:

«لا». وبعد بضع لحظات، وبينما كانا يتسلقان المرتفع إلى حافة الجرف أضافت:

«لا يمكنني أن أزعم بأني أشم رائحة دخان لندن، فستارة الضباب لم تزل سميكة. انظر ها هي!».

وأشارت إلى الضباب الرمادي البنفسجي الثقيل المعلق مثل ستارة مزركشة على جدار بين السماء المنحدرة والبحر. وتذكرت ستارة ضباب صباح أمس التي كانت سميكة وذهبية وثقيلة بحيث لم تستطع أية ريح أن تؤرجح حافتها.

اضطجعا على حشائش البرسيم الممتدة على حافة الجرف وراقبا البحر، كان هناك هدوء دافئ وكسول يغلق كل شيء، وفكرت هيلينا مع نفسها:

«ست ساعات ونكون قد اجتزنا ستارة الضباب، لقد ابتدأ سمكها يتضاءل، وأنا لا أستطيع أن أفتحها الآن بمجرد أن أحرك يدي من خلالها، ولكني لن أحرك يدي!».

كانت معاناة الليلة الماضية قد استنفدتها تماماً، لذلك فإنها رفضت أن تسمح لأية عاطفة مشبوبة بإثارتها هذا الصباح إلى أن

تصبح قوية بما فيه الكفاية. كما أن سيغموند أيضاً كان تعباً، ولكن أفكاره كانت تجاهد مثل النمل على الرغم من نفسه وتتصارع باحثة عن حل ما.

لقد رفضته هيلينا، وأحس في سويداء قلبه بأنه كان فاشلاً في تجربة الحب هذه أيضاً، وبغض النظر عن الطريقة التي ناقض نفسه بها، أو إقناعه لنفسه بأن من السخف التصور بأنه كان عاشقاً فاشلاً لهيلينا، إلا أن إحساساً جسدياً بالهزيمة قد تملكه تماماً، نوع من العقدة المنغرسة في صدره مما لا يستطيع أي نقاش أو ظرف أو حتى هيلينا أن تدرك سببها. لقد فشل في عشقه لهيلينا، وليس من المدهش أن يتحول زواجه من بياترس إلى كارثة، فقد اندفع إلى الزواج عندما كان غريراً في السابعة عشرة، ولم يكن يعرف أي شيء عن امرأته، كما أنها لم تكن تعرف أي شيء عنه. وعندما تطورت روحه ونما فكره، ولم تستطع بياترس التعاطف مع ميوله، مال بالطبع بعيداً عنها، وهكذا أصبح، بعد عشرين عاماً، غريباً بالنسبة لها تقريباً. إن ذلك ليس أمراً مدهشاً!

ولكن لماذا فشل مع هيلينا؟

طن النحل بصوت متقطع فوق العشب المعطر الذي كان يتمايل من غير هدف تحت حرارة الشمس، وراقب سيغموند نحلة ذهبية وراتنجية اللون، وهي تغادر بتكاسل وردة برسيم بيضاء، وتستدير لامبالية باتجاه البحر، مهمهمة بصوت يزداد رقة بينما هي تتأرجح في الفضاء الممتد.

وقال لنفسه، وهو يراقب النقطة السوداء وقد ابتلعها الظلام:

«يا لها من حمقاء صغيرة!».

كان البحر المقوس مقفراً من السفن، بينما الضوء يتراقص في دوامة على الأمواج، وكل شيء آخر يراقب، بعيون مفتونة مثقلة بالحرارة، تأرجح الضوء المتوحش.

واستمر سيغموند مفكراً:

«حتى لو كنت حراً، فأنا وهيلينا سنبتعد عن بعضنا. إنها هي التي ستتركني. فهذه المرة سأكون بطيئاً بالنسبة لها، فهي شابة مفعمة بالحياة، أما أنا فقد ابتدأت أشيخ...».

«هل هذا سبب فشلي إذن؟ كان المفروض أن أمنحها من الحب ما يكفي لإبقائها إلى جانبي هذه الأيام القليلة، ولكني لست سريعاً، فأنا لا أتبعها ولا أفهمها بسرعة كافية، كما أني أخاف الإكراه دائماً، ولا أستطيع أن أجبر أيما شخص لكي يتبعني».

«وهكذا وصلنا إلى هذه الحال. أنا خارج من عمقي، مثل النحلة، مبهور بمنظر هذا الزخم من المتعة، بهذا الفراغ الأزرق، ولكني لا أجد الآن أثراً كيما أتبعه. لقد طرت إلى الحياة بأكثر من طاقتي على العودة. فمتى أستطيع أن ابتدئ الخطو عندما يختفي كل هذا؟».

ارتفعت حرارة الشمس، وببطء شديد غادرت صقور ذاكرة سيغموند تطارد فرائس أفكاره، واضطجع حاسر الرأس يراقب البحر، والشمس تحرق أعمق فأعمق وجهه ورأسه.

وفكر سيغموند مشدوهاً:

«أحس كما لو أنها تتأرجح داخلي، إنها يقيناً تستهلك بعضاً مني، ولعلها ستمرضني».

وفي ذات الوقت، وبإصرار، أدار وجهه وشعره الغزير نحو الشمس. أما هيلينا فقد تمددت في ظله، وأوقفت الحرارة كل فعاليات أفكارها. وفي هذه اللحظة قالت:

«الحرارة مزعجة يا سيغموند، ألا ننزل إلى الماء؟».

نزلا زائغي البصر على ممر الجرف وهما مخدران بالشمس تقريباً. اختار سيغموند منطقة رملية ساخنة تخلو من الظلال واضطجع عليها، فسألته هيلينا:

«ألا نذهب تحت الصخور؟».

فرد عليها:

«انظري. الشمس هناك تسقط على الجدران، فتجعل المكان أشد حرارة ويصبح الجو خانقاً».

وهكذا اضطجعا تحت توهج الشمس. هيلينا تراقب الزبد وهو يتراجع ببطء مع رذاذ ماء بارد، بينما سيغموند يفكر مع نفسه. كانت الحرارة مرعبة حقاً.

قالت له:

«أحس يا سيغموند كما لو أن ذراعي مغموستان في النار».

أخذهما سيغموند من غير أن ينبس ببنة شفة وخبأهما تحت سترته.

«أأنت متأكد أن ذلك لن يؤذيك؟ ألا يؤذي رأسك يا سيغموند؟ هل أنت متأكد من ذلك؟».

ضحك بغباء وقال لها:

«لا ضير في ذلك».

كان يدرك أن الشمس تحرق داخله وتؤذيه، ولكنه كان يريد ذلك التخدير. وحين كان يتأمل البحر وستارة ضباب هيلينا بأسى قال لها:

«أعتقد أن بإمكاننا البقاء معاً». ثم تهدج صوته وأضاف «... لو أنك بقيت إلى جانبي لفترة أطول، فأنا لم أحصل عليك إطلاقاً».

وأدركت من رنة الفشل في صوته أن الأمر متأخر جداً. كان ثمة رنين يأس في هدوئه، جعل هيلينا تلتصق به بتوحش وهي تطلق صرخة وحشية صغيرة كما لو أنها قد جرحت.

أوشكت أن تلتصق بجانبه. لا يمكن أن تفقده، ولن تستطيع

الاستغناء عنه، ولن تدعه يذهب. كانت هيلينا لحظتها مسعورة تماماً.

أمسك بها مطمئناً، وظل صامتاً حتى عاودها الهدوء، عندها همهم، وشفتاه على خدها، قائلاً:

«كان المفروض أن أكون قادراً، أليس كذلك يا هيلينا؟».

فصرخت به:

«أنت قادر دائماً، ولكني أنا التي لعبت معك لعبة الاختفاء».

فقال لها:

«أنا لم أمتلكك إلا قليلاً».

فهتفت به:

«ألا تستطيع نسيان الأمر يا سيغموند، ألا تستطيع نسيانه؟ إنه مجرد ظل؛ كذبة ولا شيء حقيقي، ألا تستطيع نسيان الأمر ياعزيزي؟».

وسألها:

«ألا يمكنك الاستغناء عني؟».

فأجابته بنبرة حاسمة سريعة:

«إذا أضعتك فإني سأضيع نفسي».

لم تكن على معرفة مسبقة بالبكاء، ومع ذلك كانت دموعها تبلل وجهه، فأمسك بها مهدئاً، وذراعاها مختبئتان تحت سترته، وخاطبت هيلينا نفسها قائلة:

«لن أرحم تلك الأشباح في المرة القادمة عندما تحول بيننا، يجب أن تذهب إلى الجحيم».

ظلت ملتصقة به، تواقة للاحتفاظ به كي لا يضيع منها. وأحس

سيغموند بالهدوء، فاضطجع شابكاً ذراعيه حولها، مصغياً إلى المدّ المتراجع. وكانت أفكاره مثل نحل يطير باتجاه البحر فيضيع.

«لو أني بقيت معها لفترة أطول لاستطعت فهمها تدريجياً، ولو كنا إلى جانب بعضنا لأمكن أن ننمو معاً. لو استطعنا أن نبقى هنا لأصبحت أقوى وأكثر اعتدالاً».

كانت تلك الفكرة هي مالك الحزين الذي اصطادته صقور أفكاره.

سقطت ساعة أخرى مثل زهرة قفاز الثعلب من ساقها، ولم يتبق إلا برعمان صغيران حمراوان، وستبدأ الساق بتكوين البذور. حنت هيلينا رأسها على صدر سيغموند وذراعاها متشابكتان تحت سترته وجسده الذي كان ممتلئاً وغاطساً بقوته العظيمة الهادئة، وفكرت هيلينا متمنية.

«لو أن ساعات العالم تتوقف كلها الآن وتتركنا على هذه الحالة، وجسد سيغموند القوي بين ذراعي».

ولكن الساعة استمرت تنبض في الجو الحار، وأشارت الدقائق بسقوط الأمواج التي كانت تعود برشاقة وفي إيقاع هش جعل الصمت لذيذاً.

وصلى سيغموند قائلاً:

«لو يمسح الموت الآن العرق عن جسدي، وتظلم الدنيا...» ولكن الأمواج أشارت إلى الدقائق بنعومة وهي تتراجع نحو الأفق، تاركة الصخور العارية كي يقصر لونها تحت أشعة الشمس والأعشاب كي ترتجف.

وبالتدريج، مثل ظل على ميناء الساعة، تسلط عليهما

الإحساس بأن وقت المغادرة قد حان، ورغم أنهما بقيا صامتين إلا أن كلاً منهما كان يعرف ما يشعر به الآخر وبالقدر نفسه، وتحرك الظل وأصبح فوقهما. كان البديل هو ألا يعودا وأن يتركا العقرب يدور ويذهب. ولكن هيلينا كانت تعرف أنها يجب ألا تدع الوقت يتجاوزها، وأن عليها أن تنهض قبل أن يتأخر الوقت، وأن تسافر قبل العقرب القادم، وتمنى سيغموند لو أنها لن تنهض، واستلقى منتظراً قلقاً، وفي النهاية نهضت على نحوٍ مفاجئ وقالت له:

«لقد أزف الموعد يا سيغموند».

لم يجبها ولم ينظر باتجاهها، بل استلقى كما تركته ومسحت وجهها بمنديلها منتظرة، ثم انحنت فوقه فلم ينظر إليها. رأت جبينه متورماً وملتهباً من حرارة الشمس. مسحت العرق المتلألئ برقة فأغلق عينيه، ثم مسحت خديه وفمه، ومع ذلك لم ينظر إليها. انحنت قريباً جداً منه وهي تحس بقلبها ينصهر حزناً عليه وهمست في أذنه:

«لابد أن نذهب يا سيغموند».

فرد قائلاً:

«حسن».

ولكنه لم يتحرك أيضاً.

وقفت إلى جانبه. رتبت نفسها، وحاولت أن تستنشق قليلاً من الهواء، وكان ضوء الشمس يُعشي بصرها.

استلقى سيغموند في الضوء المتألق بعينين مغلقين، ساكناً لا يتحرك، وجهه ملتهب ولكنه جامد مثل قناع.

انتظرت هيلينا حتى سيطر عليها رعب الإحساس بالزمن

المار، فرفعت يده التي كانت تستقر منتفخة بتأثير الحرارة على الرمل، وحاولت أن تسحبه برقة، وقالت له بنبرة حزينة:

«سنتأخر».

تنهد ونهض متأملاً البحر. ولم تطق هيلينا أن تتحمل منظره وهو مشدوه ساكن القسمات. وضعت ذراعها حول رقبته، وضغطت يده على تنورتها. كان سيغموند يعرف أنه يزيد الأمر عسراً عليها، فلملم شعاث نفسه إلى بعضها، وغض بصره عن البحر وقال:

«لماذا؟ ما الساعة الآن؟».

أخرج ساعته وأمسك بها، وكانت هيلينا ما تزال ممسكة بيده اليسرى وذراعها الأخرى حول رقبته، فقال لها:

«لا أستطيع رؤية الأرقام، وكل شيء يبدو معتماً كما لو أن الدنيا مظلمة».

فأجابت هيلينا بنبرتها المميزة المؤلمة الهشة:

«نعم، إني أعاني من الشيء نفسه. أعتقد أن ذلك بسبب ضوء الشمس الساطع». وكرر القول مدهوشاً:

«لا أستطيع. لا أستطيع رؤية أرقام الساعة. هل تستطيعين أنت؟»

انحنت ونظرت إلى الساعة قائلة:

«إنها الواحدة والنصف».

كره سيغموند صوتها عندما نطقت ذلك، فما يزال هناك متسع من الوقت للحاق بالقطار. نهض متهيئاً وهو يقول:

«أشعر أن بي دواراً من الحرارة ويصعب علي أن أرى، كما أن إحساساتي داخل جسدي تبدو متبلدة».

فردت هيلينا:

«نعم، أنا خائفة من أن الشمس قد تؤذيك».

ابتسم لها كما لو أنه نائم وقال:

«على أية حال، لقد حصلت على ما يكفي. فإذا كان ذلك كثيراً، فما يعني الكثير؟».

سلكا طريقاً ملتوياً يمر عبر الرمال وقد غشت الشمس عيونهما:

«إننا عائدان، إننا عائدان!».

ابتدأ قلب هيلينا يزداد وجيبه وهو ينبض بهذه الكلمات.

سلكا الطريق المتسلق نحو قمة الجرف بعناء، وعندما وقفا في القمة على حافة العشب، نظرا نحو الأسفل باتجاه الساحل وعلى امتداد البحر، وكان الشاطئ يبدو واسعاً وقد هجره البحر، مهملاً إلا من بضع صخور تقصرها الشمس، والرمال وأعشاب البحر تتنفس عطرها المؤلم تحت وهج الحرارة. زحف البحر مبتعداً وتضاءل حجمه في البعد، وانتصبت السماء صامتة. راقب سيغموند وهيلينا يائسين عالمهما الجميل المتوهج، ونظر أحدهما إلى الآخر بتعاسة. كان مزاج سيغموند هادئاً ونبيلاً، وابتسم بوهن إلى هيلينا، ثم استدار رافعاً يده إلى فمه ليضع قبلة للجمال الذي استمتع به وقال:

«أديو».

ثم استدار وهو ينظر عبر هيلينا باتجاه اليابسة، وقال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة:

«إنها تذكرني بقطعة ترافياتا الموسيقية، إذ ترد لازمة أديو في نهاية كل مقطع».

ابتسمت له باتساع فمها تقديراً لتهكمه الساخر. لقد كان يسخر منها، وأحس بوخز من تحفظها:

«أديو... أديو...».

صفر بين أسنانه، مهمهماً بمقطوعة الحب الإيطالية بطريقة جعلت هيلينا تشد قبضتيها، قالت وهي تبتلع وتستعيد صوتها كيما تتأكد من ازدرائها:

«أعتقد أن سفرتنا يوم الخميس ستكون سهلة».

ورد سيغموند:

«لا أدري».

فأصرت قائلة:

«لن يكون هناك الكثير من الناس».

قال لها بصوت هادئ جداً:

«أعتقد أن من الأفضل أن تدعيني أسافر بقطار الجنوب ـ غرب المنطلق من بورت سموث بينما تسافرين أنت بقطار برايتن».

فهتفت مدهوشة:

«ولكن لماذا؟».

أجابها:

«لأني لا أريد أن أجلس وأبحلق فيك طوال الطريق».

فهتفت قائلة:

«ولماذا تفعل ذلك؟».

ضحك لها، فأردفت:

«لا، أرجوك، سنذهب معاً».

وأجابها موافقاً:

«حسن».

استمرا بالتجوال صامتين متجهين نحو القرية. وعندما اقتربا من دائرة البريد الصغيرة قال لها:

«أعتقد أن من الأفضل أن أرسل لهم برقية أخبرهم فيها بميعاد وصولي الليلة».

فسألته:

«ألم ترسل أية كلمة؟».

ضحك لها. وعندما وصلا باب الدكان الصغير المفتوح وقف ساكناً من غير أن يدخل، وتساءلت هيلينا عما يجول في خاطره، وسألها:

«هل أفعل؟» قاصداً هل يبرق إلى بياترس؟ كانت طباعه غريبة بعض الشيء. تهدج صوت هيلينا قائلة:

«أعتقد ذلك».

واستدارت مبتعدة عنه كيما تتفرج على البطاقات البريدية، المعروضة في واجهة المحل، بينما دخل سيغموند إلى الدكان الذي كان مظلماً ومزدحماً بمناظر وزخارف صينية رخيصة ودمى. طلب نموذج برقية من السيدة الواقفة، وهمس لنفسه بمرارة وهو يتناول القلم: «يا إلهي...» إنه لا يستطيع التوقيع بالاسم المختصر الذي تستعمله زوجته. خربش اسم عائلته كما يفعل مع غريب، وعندما راقب المرأة البدينة الودودة وهي تحصي الكلمات بعناية مشيرة بإصبعها، أحس بالغثيان والمرارة.

قالت السيدة:

«كل شيء على ما يرام».

ثم أخذت البنسات الستة وأدخلت النموذج في الجهاز، واستطردت قائلة:

«يا له من جو رائع، سيجعلك ذلك تندم على مغادرتنا».

فكر سيغموند مع نفسه وهو يراقب قطعة الورق الرقيقة تقبع تحت يد سيدة البريد الثقيلة:

«هذا قرار سجني يتم إرساله».

ثم انحنى بلطف للسيدة وقال لها:

«نعم، إنه لأمر مؤسف حقاً».

فأجابته مبتسمة:

«إنه كذلك يا سيدي، وداعاً».

خرج من الدكان وهو مازال مبتسماً، وعندما أدارت هيلينا وجهها لتنظر إليه، سكنت خطوط الضحك على وجهه مثل قناع. ألقت نظرة على عينيه بحثاً عن علامة فلم تخبرها تقاطيع وجهه عن أي شيء. كانت عيناه مبهمتين جعلتاها تشعر بالحزن وسألت نفسها:

«بماذا يفكر يا ترى؟» وأعادت أفكارها الكرّة مرة أخرى: «ولم سألني على هذا النحو، وكان المفروض أن يرسل برقية إلى البيت».

سألها:

«هل رأيت الكثير من البطاقات البريدية؟».

أجابته:

«لا شيء يستحق الشراء، ربما تريد واحدة من هذه». وكانت تشير إلى بعض البطاقات البريدية ذات الألوان الشاحبة التي كانت مناظر خيالية لخليج الوم صُنعت من الرمل المبرقش. فابتسم لها سيغموند قائلاً:

«هل قطروا الرمل عليها بأنبوب زجاجي رقيق؟».

فردت هيلينا:

«أو بفرشاة».

وقال سيغموند لنفسه:

«إنها لا تفهم... يجب ألا أخبرها عن أي شيء أفعله، لابد أني اعتقدت بأنها ستفهم».

وعندما كان يمشي إلى جانبها، اختلط بإحساساته الأخرى استياؤه منها، لقد كرهها تقريباً.

الفصل العشرون

في البداية كانا وحيدين في عربة القطار. جلسا متقابلين متجنبين النظر إلى بعضهما، يحدقان عبر الشبابيك ويراقبان البيوت والتلال المستغرقة في النوم تحت الشمس، وكانت دكات سكة الحديد بأزهارها المستنفرة الساخنة تمر من أمامهما متباطئة ثم ما تلبث أن تختفي بعيداً عن بصرهما. أحسا كما لو أنهما قد اقتيدا كمجرمين، فظلا يحدقان عبر الشبابيك غير قادرين على الحديث أو التفكير. وكانت هيلينا تحاول من دون جدوى أن تكفكف دموعها، بينما سيغموند يصارع نفسه ليصبح قادراً على التنفس بانتظام.

عندما فتح باب العربة في يارموث، كانت هناك فوضى صاخبة ناجمة من الهرولة والصياح، وتمسك حشد صاخب بباب العربة الذي ملأه في الحال رجل بدين يدفع حقيبة جلدية أمامه وهو يصيح في جماعته باللغة الألمانية قائلاً إن ثمة متسعاً من المكان للجميع. جاهدت وجوه لا تعد ولا تحصى، ساخنة، زرق العيون لتحملق من فوق كتفيه بالفتاة المرعوبة والرجل المدهوش.

دخل ثمانية ألمان إلى عربة الدرجة الثانية تلك، خمسة رجال وثلاث سيدات، وعندما تم ترتيب الحقائب في النهاية، انحشر الجميع في المقاعد، وكان على الرجل الأخير في كل جانب من المقاعد أن ينزل بعناية مثل حافة سكين بين جاريه.

راقب سيغموند الرجل الذي يقود المجموعة، وهو يحشر نفسه

بين زوجته البدينة وهيلينا الضئيلة. ولقد لزت الأخيرة نفسها بجانب العربة كثيراً، بينما هبط جسد الألماني إلى الأسفل للتضييق عليها. حاولت أن تضغط نفسها باتجاه شباك العربة كي تهرب من ضغط لحمه الذي راحت تتسرب حرارته إليها، وبينما الرجل يضغط في الاتجاه المعاكس قال لها مبتسماً بطريقته الألمانية الشهمة النبيلة:

«أخشى أني أضايقك».

ألقت هيلينا نظرة خاطفة عليه، وأعجبت بعينيه الرماديتين ونبرة صوته اللطيفة ووقع كلماته المسر وأجابته:

«لا، إنك لا تضايقني».

وقبل أن تنهي كلامها تقريباً استدارت نحو الشباك، وبدا وكأن الرجل ظل متردداً للحظة، كما لو أنه يحاول أن يستفيق من هذا الصد قبل أن يتمكن من مخاطبة زوجته بملاحظة ساخرة بالألمانية قائلاً:

«لقد تم كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟».

بدأت المجموعة كلها بالثرثرة باللغة الألمانية بحيوية فائقة. قص أحدهم على الآخر عن الجوانب الطريفة لهذا الأمر أو ذاك، وأطلقوا النكات بصوت عالٍ عن بلي، وهو اسم الشهرة الذي أطلقه الألمان على إمبراطورهم، وعما سيقوله عن رحلة القيصر، وسأله بعضهم الآخر وأجابوا بعضهم الآخر بمتعة هائلة، عما يتعلق بالأمكنة التي سيذهبون لرؤيتها، مظهرين معرفة مدهشة، وكانوا مسرورين بكل شيء من حولهم.

ابتدأ جار هيلينا البدين الذي كان من مدينة درسدن على ما يبدو يحكي نوادر، كان محدثاً من النوع الساذج الذي يتحدث بوجهه ويديه وكل أجزاء جسمه. وبين الحين والآخر يتماسك قليلاً

في مقعده. وبعد واحدة من هذه الحركات، أصبح على وعي بوجود هيلينا التي أحست كما لو أنها تغلفت بفرن ناعم فحاولت أن تهرب من ضغطه، عندها انحنى قليلاً، ورفع قبعته، وابتسم لها متوسلاً قائلاً بطريقة مقنعة:

«أنا آسف، أنا آسف لأني أضغطك».

نظر من حوله بارتباك باحثاً عن مهرب أو علاج. وعندما لم يجد شيئاً من ذلك استدار إليها مرة أخرى بعد أن ضغط بشدة على زوجته كي يحرر هيلينا وقال:

«اغفري لي، أنا متأسف».

«لا بأس عليك».

ردت هيلينا مبتسمة على نحو مفاجئ بفتنتها النادرة، ولقد ارتاحت المجموعة بكاملها لهذه الابتسامة واكتمل مزاجها. قال لها الألماني ممتناً:

«شكراً لك».

استدارت هيلينا وابتدأ الحديث مرة أخرى مثل فرقعة الذرة، وعاد القاص يحكي نوادره من جديد، كان الجميع ينتظرون أن يضحكوا، وتعبت هيلينا بسرعة من محاولتها لتتبع القصة، بينما لم يقم سيغموند بأية محاولة في هذا الاتجاه، بل راقب مع الآخرين اعتذارات الألماني، ولشد ما أثرت فيه قسمات وجه حبيبته أكثر مما يستطيع البوح به.

كان يتلبسها في بعض الأحيان حزن طفولي غريب. وفي تلك اللحظة، اختُرق قلبه إحساس بعزلة خفية لا يدرك كنهها. بدا له وكأن المفروض ألا يعرفها مطلقاً. فقد كانت تبدو بعيدة عنه، وهناك نوع من الجفاء بينها وبين كل الأشياء اليومية الطبيعية، كما لو أنها انحدرت من جنس مجهول لا يستطيع مطلقاً أن يفك

مغاليق قصته. كانت هذه الأحاسيس تثير أعمق مشاعر الحزن في سيغموند وتتركه عديم الحيلة على نحو فظيع. كان الأمر يبدو في بعض الأحيان كما لو أنها تقدمه ضحية بدلاً من أن تعلن من جديد ولادتها الغريبة. كان فيها شيء ما استعصى على فهمه، وبالتالي، لم يستطع الادعاء مطلقاً أنه سيدها مثلما كانت هي سيدته.

وعندما ابتسمت واستدارت بعيداً عن الألماني خرساء قانعة مثل طفل عاقل يظهر أسى لا يتناسب مع سني عمره، احترق نفور سيغموند منها، وتوهج في داخله ألم مجرد نابع من الرثاء. كانت ضئيلة جداً، ولقد جعلتها تصرفاتها الهادئة، والتصاقها الطائش به في بعض الأحيان، تبدو صغيرة رغم أنها كانت قوية جداً، ولكن سيغموند رآها الآن صغيرة وهادئة وقانعة، تحيا من أجله، هو الذي كان يجلس وينظر إليها. ولكن ما الذي سيحدث لها عندما يتركها، فترجع وحيدة غريبة، مثلما كانت، في هذا العالم. أية اعتذارات تنفع عندما يصيبها الأذى الذي يكون قد أعماها فلا تستطيع رؤية ما يحدث لها. ستبقى هيلينا من بعده، لأن الموت لا يمثل حلاً بالنسبة له، وبالتالي فإنها لن تستطيع الهرب معه على هذا النحو من بيت الغرباء هذا الذي تسميه الحياة. عليها أن تستمر وحيدة مثل أجنبي لا يستطيع تعلم لغة غريبة. وخاطب سيغموند نفسه:

«ترى ما الذي ستفعله عندما تطبق وحدتها عليها كالرعب، ولن يكون لها أي شخص آخر لتلجأ إليه؟ ستعود إلى ذكرياتي فترة من الزمن، وسيستغرقها ذلك بعض الوقت حتى تنمو قدراتها. ولكن ما الذي يحدث بعدئذ؟».

لم يحر سيغموند جواباً. حاول أن يتخيل حياتها. وأنها ستستمر بعد وفاته بالطريقة نفسها لفترة من الزمن، ولكن ماذا

بعدئذ؟ لم تكن لديه أدنى معرفة مسبقة بالطريقة التي ستتطور حياتها بها، وعما ستفعله عندما تصبح في الثامنة والثلاثين، أي في مثل عمره. لم يكن يستطيع تخيل ذلك، ومع ذلك فإنها لن تموت وكان متأكداً من ذلك.

أدرك سيغموند، وعلى نحو مفاجئ، بأنه لا يعرف شيئاً عن حياتها، حياتها الداخلية الحقيقية، كانت كتاباً مكتوباً بحروف مبهمة بالنسبة له أو لأي شخص آخر، ولقد أرقته مشكلتها حتى استفحلت، فأحس كما لو أن قلبه يكاد ينفجر في داخله. ولقد جرب هذا الإحساس من قبل عندما كان طفلاً بعد تفكير دام ساعة في مسألة في درس الهندسة الإقليدية، لأنه كان يمتلك عندئذ قدرة فائقة على التركيز.

أحس أن هيلينا تراقبه. وعندما استدار وجد عينيها الثابتتين المستقيمتين مسمرتين عليه. فتقلص مرتبكاً أمامهما. ابتسمت له، وبحركة غريزية أشعرته أنها تريد منه أن يمسك يدها. انحنى إلى الأمام، ووضع يده فوق يديها، كانت يداها غريبتين صغيرتين ملمسهما حريري غريب ممتع وغالباً ما تكونان باردتين وتستقران ثابتتين على الدوام في راحتيه، ولكنهما عندئذ تصبحان مفعمتين بالحياة وغير خاملتين. وكان يشعر في بعض الأحيان بارتعاش غريب في نبضه يشبه الكهرباء كثيراً عندما يمسك يدها، وأحياناً كان ذلك يبدو مؤلماً، فيشعر كما لو أن حياة صغيرة تتسرب خارجة من دمه، ولكنه يطرد تلك الفكرة من ذهنه باعتبارها هراء.

كان الألمان ما يزالون يثرثرون ويتعرقون ويمسحون وجوههم بمناديلهم، وهم يضحكون ويتحركون داخل ملابسهم الملتصقة على جوانبهم، ولقد تخلى سيغموند عن مراقبتهم بعض الوقت، فقد كان مستغرقاً تماماً. أما هيلينا، ورغم أنها تتعاطف

مع رفاق سفرها، إلا أنها كانت منزعجة إلى حد يفوق قدرتها على الاحتمال، بسبب الضوضاء وحرارة جسد جارها وجو العربة المزدحم ومشاعرها العاطفية. كان الشيء الوحيد القادر على التخفيف عنها هو يد سيغموند عندما تربت عليها.

نظرت إليه بالثبات نفسه الذي جعل عينيها تبدوان ثقيلتين عليه وجعلتاه يجفل. أرادت قوة أعصابه كي تساعدها، واستسلم لها في الحال. كان هدفه أن يعطيها من نفسه أي شيء أرادت.

الفصل الحادي والعشرون

كانت حشود الزوارق الطويلة البيضاء تتجول على مبعدة من طرقات مدينة رايد. وكان موسم سباق الزوارق يكاد يحل، لذلك، فقد طارت تلك المخلوقات المتكبرة بزهو مع بعضها، وها هي تنتقل الآن بسرعة من مكان إلى آخر، مثل حشد من النساء الطويلات، وهي تتقافز على الأمواج بخطوها الرشيق. كانت تبدو جميلة جداً في عيني سيغموند، ولكنها كانت نائية عن تفكيره، مثلما يبدو راقصون يجتازون الشبابيك المضاءة في عيني شخص يراقبهم من الشارع. رأى مضيق سولنت وعالم السحر يحلق فرحاً مثل الثلج في الخارج، بينما كان سيغموند في الداخل بمفرده، تعباً وخاملاً وحزيناً.

تسلق هو وهيلينا لفات الحبال الموضوعة في مقدم سفينتهما، حتى يصلهما رذاذ الماء المتناثر فيجدد نشاطهما. كان البحر متألقاً جداً ومزدحماً، وكانت الأشرعة البيضاء منحنية قليلاً ومصطفة على الطرقات، وثمة زورقان طافيان بشراعين بلون الكهرمان يبدوان ساكنين وسط زرقة النهار المعتمة، وزوارق صغيرة ذات أعلام حمر وصفر ترفرف بسرعة ملونةً البحر. وهناك باخرة نزهة قادمة من كوي تشق طريقها البدين الهش وسط البواخر المبحرة. وفي الأفق كانت السفن الحربية تشكل خطاً طويلاً، تنتظم على كل واحدة منها مثلثات صغيرة من الأعلام في سماء مظلمة بعيدة.

خاطب سيغموند نفسه: «يبدو أن الجميع سعداء، لكنها سعادة وهمية على ما يبدو».

كان بعيداً عن كل ذلك تماماً، وأحس أنه منفصل عن الحياة ومحكوم بقدره. بدا الأمر كذلك دائماً، فليست لنا حصة من الجمال الذي يقبع بيننا وبين أهدافنا. راقبت هيلينا بأسى حاد تموجات اللون على ذلك الأصيل الأزرق. وتفجعت مرة أخرى:

«يجب أن نغادره، يجب أن نتخلى عنه». كانت تمتص كل متعة جديدة بلهفة شديدة، وقالت لنفسها وهي تراقب الباخرة المحملة المتجهة إلى بورت سمث «أنا أحب حركة سفينة الشحن ذات الشراع البني الوئيدة».

بينما كانا وسط السفن الصغيرة في «رايد»، لاحظ سيغموند وهيلينا زورقاً بخارياً صغيراً، عَبَر طريق سفينتهما، يتجه صوب زورق رفعت كل سارياته الطويلة النظيفة نحو السماء. كان الزورق المتلهف، بأنفه المرفوع كما لو أنه يتنفس، يتسابق فوق موجة مثل كلب مطارد. وكانت هناك سيدة ترتدي ملابس بيضاء بصحبتها صبي ذو شعر غامق يرتدي قميصاً صوفياً أبيض، ينحنيان على سور مقدمة السفينة، ورجل منكب على بعض المكائن في منتصف الزورق، بينما القبطان في مؤخرة السفينة يشرف على بعض الأمور. كانت الباخرة تتقدم إلى الأمام، هائلة الحجم فوق الماء، والزورق يبحر صوبها مباشرة. رأت السيدة الخطر القادم قبل الجميع، فمدت جسدها إلى الأمام، وأمسكت بذراع الصبي بشدة دون أن تصدر أيما صوت، بل اكتفت بمراقبة الخطر القادم من الباخرة التي بدت للعيان الآن.

صرخت هيلينا ممسكة بسيغموند الذي كان يراقب المشهد مسبقاً «انظر!».

ابتدأ جرس الباخرة بالرنين. نظر الرجل إلى الأعلى بوجه مجفل محترق. ومن ثم قفز إلى مؤخرة السفينة. انحرف الزورق

البخاري وأطبق هو والسفينة معاً مثل شقي المقص. نظرت السيدة، التي ما تزال ممسكة بالفتى، بوجه جامد، إلى الإزميل الجارف في مقدمة السفينة، ووقف الزوج متصلباً محملقاً إلى الأمام. ولم يسمع أي صوت باستثناء حفيف الماء تحت مقدمة السفينة. أغلق المقص واندفع الزورق إلى الأمام مثل كلب متخلصاً من السفينة مسافة ياردة أو اثنتين. ومن ثم، ومثل كلب، بدا وكأنه ينظر من حوله.

ألقى الرجل الموجود في المؤخرة نظرة رشيقة نحو الخلف. كان رجلاً وسيماً ذا شعر أسود وعينين غامقتين، وله وجه رمادي مرتب كما لو أنه نُحت من خشب السنديان، نظر إلى مقود زورقه، ولم يصدر أي شخص أيما صوت ولا حتى الزورق الصغير الذي راح يندفع على سطح الماء، بل خيم انتظار قَلِق على الجميع. توغل الزورق بعيداً عن الخطر، وأعاد الرجل بحركة سريعة الشخص المسؤول عن القيادة إلى موضعه مرة أخرى، بينما اتجه إلى الأمام نحو السيدة. كان رجلاً وسيماً، مختالاً بحركته جداً. أما هي فقد كانت أكثر كبرياء، وقابلته بلا مبالاة تقريباً.

استدارت هيلينا نحو سيغموند، فأمسك بيديها وضغطهما، بينما ظلت تنظر إليه بعينين ممتلئتين بالعاطفة. كانت شاحبة اللون حتى الشفاه، ترتجف مثل طوافة إثر باخرة، فقد سكتت ضوضاء الحياة في داخلها على نحو مفاجئ، وسمع كل امرئ للحظة صوت الموت. كان الجميع شاحبي الوجوه، لاهثين. ثم حاولوا، بكل جهدهم مرة أخرى، أن يملؤوا النهار بالضوضاء وألوان الحياة من جديد.

«والله كان ما حدث خطيراً جداً».

وقالت امرأة:

«نعم، لقد بتُّ خائفة».

ورد أحدهم:

«زورق فرنسي».

أما هيلينا، فكانت تنتظر صوت سيغموند، ولكنه لم يعرف ما يقول، فكرر مرتبكاً:

«كان الزورق قريباً جداً».

التصقت هيلينا به باحثة في وجهه. أحست باختلافه عنها، كان هناك شيء ما في تجربته يجعله هادئاً ومختلفاً ومتخذاً مظهراً غريباً كما لو أنه كان متألماً. أما هو فكان يخاطب نفسه:

«آه يا إلهي، كم يبدو هذا اليوم ممتعاً وجميلاً لهم. وما كانوا ليجفلوا أكثر لو أن الرب وضع يده فجأة على الشمس وابتلعنا في الظل. ليس لدى ذلك الرجل ذي الأطراف البيضاء الدقيقة والشعر الغامق أدنى شك في القوة الخفية التي تسند كل شيء. وها هو يتبختر بين زرقة البحر والسماء، مثل نورس قريب إلى أنثاه، وسط أعلام حمر تشبه الزهور، وبواخر تشبه الطيور الهشة، وزوارق بخارية كأنها وحوش بطيئة الحركة».

«أما أنا فنهاري شاحب وشفاف، وأستطيع أن أرى الظلام عبر بتلاته، ولكنه بالنسبة إليه يشبه زهر «جريس» طازج، يستطيع أن يتلمسه بمتعة مثل نحلة. وبالنسبة لي، يعني الارتجاف في فراغات الفضاء هو الظلام نفسه الذي يملأ روحي. فأنا أستطيع رؤية الموت وهو يحث نفسه داخل الحياة، والظل يسند الوجود. وتحترق حياتي في لهب خفي. إن تألق الضوء في داخلي، عندما أحترق بوقود الموت، غير كافٍ ليخفي عني المصدر والمنفذ. إذ ما الحياة غير لهب يتفجر على سطح الظلام، ليبدأ بالتلاشي في الظلام مرة أخرى؟ ولكن الموت الذي هو بمثابة المنفذ يختلف عن الموت الذي هو المصدر، فأنا على الأقل سأُغني الموت بظل قوي إن لم أُغنِ الحياة».

قالت هيلينا:

«أليست هذه المرأة رائعة؟».

فأجابها:

«إنها ساكنة تماماً».

قالت له:

«لم يدرك الطفل أي شيء مما حدث».

ضحك سيغموند ثم انحنى إلى الأمام مندفعاً باتجاهها وقال:

«أنا آسف دوماً لأن الجنس البشري مدفوع بشكل حتمي باتجاه فهم أعمق وأعمق للحياة».

نظرت إليه متسائلة عن السبب الذي أوحى إليه بمثل هذه الملاحظة وقالت ببطء بعد لحظة:

«أعتقد أن القبطان سيواجه موقفاً صعباً. لقد كان مهمِلاً جداً».

فرد سيغموند وقد كره أن يسمعها تتحدث بإدانة باردة:

«كان يهتم بشيء آخر آنئذ؛ كان يشرف على المكائن أو بعض الأمور الأخرى». فأجابته متهكمة تقريباً:

«ولكن هذا ليس واجبه الأساسي».

نظر سيغموند إليها. بدت قاسية في حكمها، عمياء في بعض الأحيان، فجاشت نفسه تجاهها بالبغضاء وسألها:

«أتعتقدين أن الرجل أراد أن يغرق الزورق؟».

فأجابته:

«كان على وشك أن ينجح في ذلك».

نشبت خصومة بينهما، وميز سيغموند في هيلينا العالم وهو ينصب محاكمة، فكره ذلك وفكر مع نفسه:

«ولكن بعد كل شيء، أعتقد أنها الطريقة الوحيدة لاستمرار الحياة من خلال محاكمة الحدث وليس الشخص، ثم إني أعاني من

مرض عاطفي اسمه عيب التبرئة».

ومع ذلك، لم يحب هيلينا كمحاكم، بل فضل المرأة الأخرى في الزورق. كان من الواضح أنها واحدة من أولئك النسوة اللواتي يراقبن مصدر الحياة. رآها عظيمة متجردة. سأل هيلينا:

«هل كانت المرأة تصرخ أو تحضن أو تقبل الفتى عندما صعدت إلى السفينة؟».

فأجابته:

«لا أعتقد، ولكن لماذا؟».

فقال لها:

«آمل أنها لم تفعل ذلك».

جلست هيلينا تراقب الماء وهو يتدفق من جانبي مقدمة السفينة. كانت مغرمة بسيغموند كثيراً، كان يوحي لها بأفكار عديدة ويحفزها. أما في ذهنها فلم تكن له تلك العينان الغامقتان المترددتان، بل كان سريعاً ومزهواً كالريح. ولم تستطع تمييز عجزه إطلاقاً.

كان سيغموند يستمد العزم من شجاعة المرأة الأخرى. فإذا كانت تمتلك كل هذه القدرة على كبح جماح عواطفها في ألا تصرخ أو تنذر الفتى، وإذا توافر لديها مثل هذا النبل الذي يمنعها أن تشتكي إلى زوجها، فإن بإمكانه بالتأكيد الإحجام عن كشف مخاوفه إلى هيلينا ومن ثم التفجع على قدره المزري.

أبحرا أمام الأبراج الملونة، وامتد البحر أمامهما شاسعاً، وأطلا يراقبان البحر من ناحية المشرق. تمنى سيغموند أن يطير، وتاق للهرب عبر الطرق المفتوحة أمامه. ومع ذلك كان يعرف بأنه سيُحمَل إلى لندن، راقب طرق البحر وهي تنغلق أمامه، واقترب الساحل منهما. وفي الجهة اليمنى انتصبت البيوت القديمة العالية،

والتف الساحل حولهما مثل منجل ليحصدهما نحو الميناء. وكانت هناك السفينة العجوز «فيكتوري» مغتبطة بأعلامها الناتئة العديدة، وقد حُصدت واستقرت في الميناء، واحتُفظ بها كتذكار.

وفكر سيغموند مع نفسه:

«يا له من شيء كريه أن تظل مثل النصب، عندما لم يعد هناك ما تفعله».

راقب منصة النزول تقترب منهما، وكانت القطارات تستعد هي الأخرى. وفي النهاية الثانية من القطار كانت هناك لندن.

كان من الصعب عليه أن يتحمل رؤية هيلينا أمامه ساعتين أخريين، ولسوف يكلفه قلق الوداع الطويل هذا كثيراً عندما يجلس مقابلها في القطار النابض، وهو يأمل أن يتحرر منها.

أنزلا حقائبهما، ووقفا قرب السلالم وسط حرارة المكائن ورائحة الزيت المحترق، منتظرين مرور الحشد كي يتسلقا ويهبطا من الباخرة إلى اليابسة.

سألها سيغموند متردداً، معيداً سؤال الصباح:

«ألا تدعيني أذهب بقطار الجنوب الغربي بينما تذهبين أنت بقطار برايتن؟».

نظرت إليه هيلينا عاقدة حاجبيها بشك وارتباك، وقالت له:

«لا، دعنا نذهب معاً».

تبعها سيغموند على السلم الحديدي إلى رصيف الميناء. ولم يكن هناك حشد ضخم من المسافرين في القطار ووجدا بسهولة مقصورة فارغة في الدرجة الثانية. وضع الحقائب على الرف، وجلس في مواجهة هيلينا وفكر مع نفسه.

«أتمنى لو كنت وحيداً الآن».

أراد أن يفكر ويهيء نفسه.

أما هيلينا فقد كانت تفكر في حيوية، ثم انحنت إلى الأمام وقالت:

«هل أذهب إلى كورنويل؟».

من رغبتها الجياشة لأن تفعل أي شيء من أجله، أدرك سيغموند أنها تضغط عليه بإلحاح. ولم يعد بمستطاعه احتمال فكرة تمديد فترة قلقه فأجابها:

«لقد وعدت لويزا، أليس كذلك؟».

فردت عليه بنبرتها المستخفة الغريبة التي تستخدمها عندما تريد أن تنقل إليه تفاهة أمر لا يعنيه:

«آه أجل!».

فقال لها:

«إذن، لابد أن تذهبي».

ولكنها بادرته بمزاج خشن:

«لا أريد الذهاب إلى كورنويل مع لويزا وأولِف. ثم شددت على الاسمين».

وأضافت: «بعد هذا الذي حصل».

فرد عليها بحزن:

«ستحرم لويزا من عطلتها، ولقد وعدتها».

نظرت إليه هيلينا وأدركت أنه قرر أنها يجب أن تذهب، فسألته:

«أتظن أن وعدي مهم إلى هذه الدرجة؟» وألقت نظرة غضبى على ثلاث سيدات كن يترددن في الصعود عند باب المقصورة. ومع

ذلك، دخلت السيدات وجلسن في النهاية المقابلة لها من المقصورة. لم يعرف سيغموند إذا كان قد انزعج أو تحرر من اقتحامهن المقصورة. فلو أنهن بقين خارجاً، فربما سيحضن هيلينا بين ذراعيه لساعة أخرى. وفي ذلك الوضع لن يكون بإمكانها إرهاقه بكلماتها. حاول أن يغض طرفه عنها، ويشغل نفسه بالتفكير.

تحرك القطار في النهاية من المحطة. وبينما كان يجتاز بورت سمث تذكر سيغموند قدومه يوم الأحد الماضي. بدا الأمر وكأنه حدث في زمن ماض سحيق. وشعر بالامتنان لأنه كان جالساً في جانب المقصورة المعاكس للمكان الذي احتله قبل خمسة أيام.

كان الأصيل، تحت السماء الصافية، ينضج متحولاً إلى مساء بالتدريج. واكتست المداخن وجدران بيوت بورت سمث بالمظهر المشع الذي يغير منظر نهاية النهار في المدينة.

وظهر تورد غني من الضوء على سطوح الطابوق والأحجار.

وخاطب سيغموند نفسه قائلاً:

«سأستمر سعيداً بهذه الأمسية وإلى الأبد. وسأفتقد كل ذلك».

ولكن ما إن تحرك القطار في ظلام محطة المدينة حتى ابتدأ سيغموند يفكر مرة أخرى. «ستكون بياترس متكبرة وصامتة مثل الفولاذ عندما أصل إلى البيت. وشكراً لله لأنها لن تفوه بكلمة واحدة، ولن أفوه أنا أيضاً. فذلك سيسهل المهمة. ولن تكون هناك مشاجرات...».

«ولكننا لن نستطيع الاستمرار معاً بعد كل الذي حدث. لماذا أبحث عن المبررات التي لصالحها أو ضدها؟ إننا لا نستطيع العيش معاً. ستذهب إلى البيت الريفي الذي حدثتها عنه مسبقاً، وسأخصص لها كل ما أستطيع توفيره من نقود، ومن البقية الباقية أستطيع أن أستأجر غرفة صغيرة لي في لندن».

«ولكن عندما أكون حراً، لن يكون بمقدوري العيش بمفردي، وسأحتاج إلى هيلينا وسأشتاق إلى الأطفال، وإذا امتلكت أحدهما فسوف أضجر من تفكيري بالثاني».

«إن هذا العبء على عقلي لن يخف، وهيلينا تقول إنها لن تأتي إلي مطلقاً، ولكنها ستأتي في النهاية شفقة علي، أعرف أنها ستفعل ذلك».

«ولكن ماذا بعد ذلك؟ ستكون بياترس مع الأطفال في الريف، ولن أتمكن من الاعتناء بالأطفال. وبياترس مسرفة، وسرعان ما ستجد نفسها في مشاكل لا نهاية لها. وسيكون ذلك خزياً وعاراً علي. وستظل مجروحة مني، ويكون اسمي على لسانها شيئاً مخزياً. فضلاً عن أنها ستمضي في الحديث بكل طاقتها، ولن تبذل أدنى جهد لفهم الأمر وستقول «هو الذي جلب لنا كل هذا، دعه يرَ نتيجة أفعاله». وستسير الأمور من سيء إلى أسوأ، وسيكون الأمر أكبر عارٍ لي».

«ولن أحصل من هيلينا إلا على المذلة، فعندما تكون نائمة، لن أستطيع حتى النظر إليها. إنها لمخلوق غريب نافر، ولكن يجب أن أكون مسؤولاً عنها، فهي تؤمن بي، كما لو أني امتلك قوة الرب، فما أنا فاعل بنفسي؟».

انحنى سيغموند، وأسند رأسه على الشباك يراقب الريف وهو يندفع أمامه بسرعة فائقة، ولكنه لم يرَ أي شيء. لقد فكر على نحو خيالي فحطمه خياله. تصور بياترس في الريف، وتخيل الصباح وضجة الإفطار في ساعة متأخرة، والأطفال الأكبر سناً وهم يندفعون من دون طعام، تعساء مشعثين والأطفال الصغار يراقبون مرتبكين استعداداتها السريعة المهملة للمدرسة. وتصور بياترس في المساء قلقة نزقة، قوائم ديونها متأخرة الدفع، والأعمال غير

منجزة، تهذر بانفعال متفجعة على قسوة زوجها الذي أورثها مثل هذا العبء بينما يمتع نفسه في مكان آخر.

كان ذلك التفكير منهكاً لقواه ولم يعد يطيقه، فتحول سيغموند للتفكير في حياته الخاصة في المدينة. سيذهب إلى أمريكا، فقد تم توقيع الاتفاقية مع مدير المسرح، ولكن أمريكا لن تكون إلا مجرد غلق مؤقت للفم والعينين، فسيظل ينتظر العودة إلى هيلينا وسوف تنتظره. كأن ذلك قدر لا مرد له، ومن ثم سيبدأ من جديد، ولكن يبتدئ بماذا؟ فهو لن يحصل على ما يكفي من النقود ليعيل هيلينا حتى إذا تمكن من إعالة نفسه، وستكون لقاءاتهما متباعدة وسرية. آه، إن ذلك أمر لا يطاق.

وقال لنفسه «آه لو كنت غنياً، لكان كل شيء واضحاً، إذ سأعطي لكل واحد من أطفالي ولبياترس ما يكفي، وسنفترق، ولكني الآن في حدود الأربعين، ولست عبقرياً، ولن أكون غنياً إطلاقاً...».

دارت أفكاره في حلقة مفرغة مثل ثور يدور فوق الدريس. يدرس الحبوب، فيتطاير التبن تدريجياً، وتتجمع حبوب القمح، صغيرة وصلبة على الأرض. وبينما كان يجلس مفكراً انحنت هيلينا عليه، ووضعت يدها على ركبته وقالت له بصوت أجش من الألم:

«إذا كنت قد صعبت الأمور عليك، فأرجو أن تسامحني».

جفل عند سماعه ذلك. وكان ذلك واحداً من تباريح الألم القاسية التي يمنحها الحب فتملأ العيون بالدم. تصلب سيغموند ثم ابتسم ببطء بينما كان ينظر إلى شفتيها الحزينتين الطفوليتين وعينيها الكبيرتين الممتلئتين بالألم وقال:

«أسامحك؟ أسامحك على خمسة أيام من السعادة المكتملة، السعادة الحقيقية الوحيدة التي عرفتها في حياتي».

شدت هيلينا إصبعها على ركبته، أحست نفسها تلسع بمتعة مؤلمة، ولكن واحدة من السيدات كانت تنظر إليها بفضول، فاستقامت في جلستها، واستدارت تراقب موجات القمح وهي تتأرجح في صفوف طويلة عبر امتداد بصرها.

أدار سيغموند الذي كان يرتجف أيضاً، وجهه إلى الشباك، حيث ساعد دوران ساحل البحر العريض حركة أفكاره. لقد قاطعته هيلينا، وظللت أفكاره عن صيدها، بحيث أنها اصطدمت هنا وهناك، وانقضت بتوحش على ضحايا صغيرة مسكينة عديمة الفائدة. وكانت النتيجة أجوبة عرقلت الوصول إلى قناعات نهائية. هتف سيغموند لنفسه:

«ترى ما الذي ستفعله؟ ماذا ستفعل عندما أختفي من الحياة؟ وما الذي سيؤول إليه حالها؟ ليس ثمة هدف محدد في حياتها الآن. ولن يكون عندها أي غرض. أهنالك فائدة من ذهابي إذا تركتها خلفي؟ أية عقدة صعبة الحل هذه، وما الذي ستفعله؟».

كان هذا سؤالاً أثارته هي من قبل، سؤال لن يستطيع الإجابة عنه مطلقاً، وهو ليس بالشخص الذي يجيب عنه بالتأكيد.

شقا طريقهما عبر ممرات التلال الجنوبية. وبينما كان سيغموند ينظر إلى الخلف، رأى المنحدر الشمالي للتلال وهو ينساب بنعومة ويهبط متحولاً إلى مرج واسع عريض يعانق جسد الأرض، فامتلأ سيغموند عندها بحب مفاجئ للأرض. كانت التلال العظيمة عارية مثل النهود، تمتد برقة باتجاهه، وكذا كانت الأرض كريمة دائماً، وهي تحبنا وترعانا مثل مربية. كانت التلال كبيرة الحجم، لكنها رقيقة وبسيطة. نظر سيغموند إلى الحقل، وفكر مع نفسه:

«يا لهم من محظوظين أولئك المزارعون. يعيشون بهدوء ولا يسمعون سوى دوي القطار المبهم الذي يحمله الآن إلى البيت»...

كانت حقول القمح، باتجاه أورين ديل، حمراء مثقلة بلون ذهبي. كان الوقت مساء، وقد تلاشى اخضرار الأشجار تاركاً أشكالاً معتمة، تنتصب متكبرة باتجاه الأفق، ولكن القمح الأحمر كان يصاغ في غروب الشمس حاراً ورائعاً. وحين راح يستنشق رائحة القمح الناضج، تأمل سيغموند ذلك بحبور، وفتح عينيه لإشعاعه القوي، وللحظة نسي كل شيء، وسط الحقول الذهبية الحمراء وهي تصاغ في دكان صياغة الغروب. ومثل الشرر كانت زهور الخشخاش تهب على امتداد سكة الحديد، مثل قطار قرمزي اللون. راقب سيغموند المروج وهي تمر بانتظار حقل القمح القادم. وعندما جاء بدا المشهد مثل رفع معدن أصفر حار من ظلام الأرض المعشوشبة.

استعادت هيلينا الطمأنينة بهبوط المساء فوق مدينة سكس، وتنفست رائحة الأرض بين الحين والآخر بينما كانت تراقب السماء. كان غروب الشمس يبدو فخماً، فقد حارب النهار ذا العيون الزرق والأطراف الطويلة وانتصر. وها هو يتسلق منتصراً على محرقته. وبأذرعه البيض المرفوعة أمسك باللهيب الذي يقفز مثل الدم حول قدميه. ومات النهار بنبل، هكذا فكرت مع نفسها.

ورفعت سحابة ذهبية كأسها تشجيعاً لها، وتبعت القطار. فقالت هيلينا وهي تراقبها بلهفة:

«هذه السحابة لنا بالتأكيد».

وتداخلت أشجار معتمة بينها وبين السحابة، وحين كانت تنتظر مشدوهة بزغت السحابة غير منقوصة من خلف الأشجار، فهتفت مرة أخرى:

«أنا متأكدة أنها لنا».

وتسربت فرحة في عينيها، وكانت السحابة ما تزال تتبع القطار. انحنت إلى الأمام باتجاه سيغموند ودلته على السحابة. كانت متلهفة أن تمنحه قليلاً من إيمانها.

«لقد تبعتنا من مسافة بعيدة. ألا تبدو لك وكأنها تسافر معنا؟ إنها اليد الذهبية، وهي بشير الفأل الحسن».

استمرت تقص عليه أسطورة الوين. أصغى سيغموند إليها مبتسماً، وقد أضفى غروب الشمس وسامة على وجهه. وكانت هيلينا سعيدة تقريباً.

قال سيغموند لنفسه: «لقد كنت على صواب، أنا مصيب في استنتاجي بأن هيلينا ستدبر أمورها من بعدي. أنا على صواب وهذه هي اليد التي تؤكد ذلك».

تحول المطر الثقيل إلى زخات مِزَن متقطعة، تتأرجح ككلب رمادي في الأفق باتجاه الشمال. كان سيغموند يفكر بطريقة آلية طوال الوقت، وكانت نفسه كلها تنبض بإيقاع رتيب. أحس أن ثمة قدراً معيناً من الهيبة في رحلته هذه، ولكن ما آلمه هو اتجاهها الملح نحو الكارثة. كان خائفاً. وتوجب عليه أن يستجمع كل شجاعته كيما يجلس هادئاً. ولقد اطمأن حيناً من الوقت. واعتقدَ بأنه يتجه نحو النهاية الصحيحة، وجال بصره عبر الريف والسماء سائلاً كل شيء من حوله:

«هل أنا على صواب، هل أنا على صواب؟».

لم يكن يهتم بما يحدث له إذا أحس بأنه على صواب. ولكن ما الذي يقصده بالصواب؟ لم يزعج نفسه بالتفكير في ذلك. ولكن السؤال بقي معلقاً. ولقد اطمأن لفترة من الزمن، ولكن الكآبة هبطت عليه مرة أخرى عندما تبلدت أفكاره، واستسلم لإيقاع القطار الذي كان يسِمه أعمق فأعمق بعلامة الكارثة.

هبطت الشمس نحو المغيب. وعلى الأفق الغربي ظهر تدفق لبريق يشبه نافورة ضوء تنفقع. والنجوم مثل بقع من زبد النهار، ملتصقة بالسقف الأزرق، ومعلقة مثل العناكب فوق الرؤوس، بينما مضيفو الجو الذهبي يسكبون العسل من المنحلة عبر الباب الغربي

الواطئ. وسرعان ما فرغت المنحلة، وأصبحت كقبعة مجوفة بنفسجية اللون، بينما تناثرت على الأرض هنا وهناك قرى تشبه رفيف أجنحة براقة. وفي الأعلى، ابتدأت النجوم، الشبيهة بالعناكب المضيئة بالركض، وفكر سيغموند مع نفسه متعباً:

«إذا ماتت نحلة واحدة من بين حشد النحل فماذا يهم، طالما أن الخلية بخير؟ فمن أنا قياساً بالليل الذهبي وهمهمة النهار ولونه؟ أنا لا شيء. أنا مجرد حصاة مقارنة بهذه الحشود المهمهمة الخارجة من الخلية إلى سهول الليل السوداء التي لا يعرف، إلا الله وحده، ماذا تجني. وسيزدحم النهار باللون الذهبي مرة أخرى، وستغطي الألوان جناح كل فراشة، وتعلو الهمهمة في كل حركة. إن الذهب واللون والرائحة الزكية وهمهمة الحياة أشياء موجودة حتى لو لم يكن هناك نحل. والذي يحدث هو أننا لا نرى التلون إلا على أجنحة النحل، ولكن التلون موجود بوجود النحل أو من دونه. لأن التلون وهمهمة الحياة موجودان دائماً، ولأنهما هما اللذان خلقاني. فأنا لست ضائعاً، وعلى الأقل أنا لا أهتم بالأمر، فإذا انطفأ الشرر فجوهر النار يكمن في الظلام. إلى جانب أني قد احترقت متوهجاً، وأنشأت خلية نحل رائعة في مكان ما، وإني لأتساءل أين؟ فنحن لا نستطيع أن نشير إلى ذلك المكان مطلقاً. ولكن ماذا يهم ذلك؟».

كانا قد دخلا التلال الشمالية، وهما يتجهان عبر دوركينك صوب ليذرهيد، وانتصبت مدينة بوكسل هل مظلمة في حلاوة الغسق. تذكرت هيلينا أنها قد جاءت إلى هنا مع سيغموند أثناء جولتهما الأولى معاً، وهي تود أن تأتي إلى هنا مرة أخرى. شاهدت أعشاش النجوم على النهر الصغير المرتبك وهي تركض بين الضفتين العاليتين. تذكر سيغموند أن هذه المنطقة مغطاة بأزاهير الشارون ونباتات سانت جون الذهبية الكبيرة التي تشبه الحرير الرائع. راقبها سيغموند وكان بإمكانه أن يميز الأزهار

المنتفخة الرقيقة التي أهملتها النجوم. وفي النهاية أصبح لديه ما يقوله لـهيلينا فسألها:

«أتتذكرين ورود الشارون على امتداد هذا الطريق؟».

فردت هيلينا سعيدة لأنه تحدث بهذا التألق:

«أتذكر، أليست جميلة؟».

وبعد بضع لحظات من مراقبة الزهور أضافت:

«أتعرف أني لم أجمع أياً منها. أعتقد أني أود أن أفعل ذلك. أريد أن أحس بها، لا شك أن لها رائحة البرتقال».

ابتسم لها دون أن يجيب، فنظرت إليه مبتسمة بتوهج، وسألته مخلوعة الفؤاد:

«هل سننزل إلى هنا في الصباح ونجمع بعضاً منها؟ أتود ذلك؟».

تجهم وجه سيغموند وقطب جبينه. ها هو الألم يستعيد نشاطه مرة أخرى، وأجابها بنبل:

«لا، أعتقد أن من الأفضل ألا نفعل ذلك».

وللمرة الأولى تقريباً لم يقدم لها تفسيراً لاعتذاره.

استدارت هيلينا نحو الشباك، وظلت تراقب دوران أضواء المدن خرساء حتى وصلا قرب سوتن، عندها نهضت وثبتت قبعتها، ثم جمعت قفازها وسلتها. كانت، على الرغم من نفسها، غاضبة قليلاً. وعندما أصبحت مستعدة لمغادرة القطار جلست تنتظر المحطة القادمة. كان سيغموند يعرف أنها منزعجة، ومرة أخرى، وللمرة الأولى، قال لنفسه:

«لابد أن يكون الأمر كذلك».

نظرت إليه، وعندما رأته حزيناً رقت في الحال، وقالت بشك:

«على الأقل سأراك في المحطة».

فسألها:

«في واترلو؟».

أجابته بنبرتها المعدنية:

«لا، في ومبلدن».

حاول أن يرد:

«ولكن...».

لكنها قاطعته بنبرة مقنعة هادئة:

«سيكون ذلك أفضل لكلينا، أفضل كثيراً من قطع لندن من محطة فكتوريا حتى واترلو».

أجابها موافقاً: «حسن جداً».

أخرج جدول مغادرة القطارات الصغير من جيبه ليختار لها قطاراً وقال:

«ستكونين في ومبلدن الساعة العاشرة وخمس دقائق، وتأخذين قطار العاشرة وأربعين دقيقة، ثم تغادرين واترلو الساعة الحادية عشرة والنصف».

فأجابته:

«حسن جداً».

صرت فرامل الوقوف، وانتظرا في قلق مضن وقوف القطار. وفكر سيغموند مع نفسه:

«يا ليتها تذهب الآن، إنها دقيقةٌ لا تطاق».

وعندما نهضت تحول كل شيء أمام عينيه إلى غشاوة حمراء. وقفت هيلينا أمامه، وضغطت على يده، ثم نهض ليناولها حقيبتها.

وعندما اتكأ على إطار الشباك ليودعها وهي واقفة على المنصة تنظر إليه، أصبح من الصعب عليه أن يتنفس، قال لنفسه وهو ينظر إلى أبواب العربة المفتوحة:

«كم سيطول ذلك؟».

كره بشدة تلك السيدة التي لم تستطع الحصول على حمال لينقل لها حقائبها، وكان بإمكانه عندئذ أن يقتلها وأن يقتل الحارس الكسول. وفي النهاية أطبقت الأبواب وأطلقت الصافرة وابتدأ القطار بحركة غير محسوسة، فقال سيغموند مخاطباً نفسه:

«لقد فقدتها».

وعندما نظرت إليه، كان وجهها شاحباً وكئيباً. قالت له وداعاً ثم أدارت وجهها.

عندما عاد سيغموند إلى مقعده، أحس بالتحرر ولكنه كان مريضاً وجسده يرتجف. إن البشر يكونون سعداء جداً عندما يتخلصون من اللحظات المشحونة.

ولكن لماذا استدارت بهذه الطريقة؟

وما الذي ستفعله؟

الفصل الثاني والعشرون

توجه سيغموند نحو محطة فكتوريا، ولم يكن يستعجل الوصول إلى ومبلدن. كانت لندن دافئة ومنهكة بعد قيظ النهار، ولكن هذا الفتور الغريب لم يسبب له إزعاجاً على الإطلاق، واختار أن يتمشى من محطة فكتوريا إلى محطة واترلو.

كانت الشوارع، مثل فولاذ البنادق اللامع، تتلألأ ببريق ذهبي. وسيارات الأجرة، مثل قطط متوحشة، تتدافع مسرعة فوق الأرض البراقة، وسرعان ما تختفي في الأفق، كما لو أنها تزدري العربات البطيئة الأخرى. سمع تأرجح العربات الممتعة، وأزيز الباصات وهي تندفع بسرعة على الطريق. وكانت قلوبها على ما يبدو، تنبض مرتعشة حين تقترب متنهدة من الرصيف، وتتوقف هناك لاهثة، هائلة الحجم، عصبية، خرقاء. كانت سرعة الباصات المتهورة المتخبطة تُفرح سيغموند دائماً، وكان يسره فرار السيارات هذا، وأي شيء آخر يشغل تفكيره. كان جذلاً لأن هيلينا لم تكن معه، فقد كان من الممكن أن تزعجها الشوارع بضوضائها الصاخبة. إن بإمكانها أن تقف لفترة طويلة تراقب الأرانب وهي تقفز وتعرج في العراء أثناء الليل، ولكن جري سيارات الأجرة واندفاع الباصات الهائلة سيكونان مؤلمين لها، وستصفها بأنهما «نشاز»، وكانت ستقول بأنها «بعد الأشجار والبحر، تحب تألق الشوارع فهي تشبه سبيكة رائعة من الذهب المسكوب على الأرض،

فتبدو الشوارع مثل شوارع الذهب الخالص في السماء، لكن هذه الضوضاء الصاخبة لا يمكن أن يوجد ما يشبهها في أرض العجائب».

لم يجفل سيغموند من الضوضاء، فقد كان دويها يطرد همومه الخاصة. وظل يتأمل سحر الطريق البراق الذي كانت الظلال تتسابق عليه، مسقطة نفسها بعيداً عنه في ظلال الليل. ثم راقب المارة، جنود بأحزمة قرمزية يتجولون مرحين في المقدمة. كانت هناك متعة غريبة في حركتهم، وحيوية مرنة في مشيتهم، ذكرت سيغموند بالتأرجح الهش والتذبذب الناعم لضوء شمعة متوازن، وهناك نسوة يتجولن فرحات على امتداد الطريق. وبين الحين والآخر كانت إحداهن تحملق فيه أثناء اجتيازها له. وكان، على الرغم من نفسه، يبتسم لها. لم يكن يعرف سبب ذلك. وكانت النسوة ينظرن إليه بإعجاب لأنه كان متورد الوجه، إلى جانب أن منظره كان يدل على الإهمال والذهول الناتجين من اليأس، وكانت عيونهن تقول له «إنك وسيم، إنك محبوب!»، وكان سيغموند يبتسم رداً على ذلك.

عندما اتسع الشارع في وست منستر، لاحظ أن سماء المدينة كانت ذات لون قرمزي غامق جميل، وأن الأضواء في الساحات العامة، تصدر بخاراً من ضوء ذهبي رمادي اللون. فخاطب سيغموند نفسه قائلاً:

«إنها ليلة مدهشة، لا تتكرر مرتين في السنة».

اتجه إلى الأمام، صوب حاجز سكة الحديد، وإحساس بالمتعة يملأ قلبه. كان هذا العالم الذهبي والرمادي والقرمزي، وهذا الدفء الملتهب المتأرجح الذي يبعثه الجند، وتألق النسوة الرشيقات كالأضواء البراقة. كان كل ذلك اكتشافاً جديداً بالنسبة إليه.

وعندما استند على حاجز السكة الحديد لم تختف دهشته، بل ازدادت. كانت القطارات تطوف بكبرياء، واحداً بعد آخر، فوق الجسر، وهي تطير، مثل نحلات كبيرات محترقات، في صف لانهاية له باتجاه الخلية، متجاوزات أولئك اللواتي كن يتسكعن حالمات على الطريق. بينما في الأسفل، وعلى سطح الماء المضطرب الأسود، كانت الأضواء مثل أفاع ذهبية تبرق وتتلوى إلى الأمام والخلف، فقال سيغموند لنفسه:

«آه، إن ذلك مدهش جداً، هنا وقرب البحر، الليل رائع وغريب، وبغض النظر عما سيحدث، فإن العالم رائع».

وهكذا، استمر ماشياً وسط معجزة الحركة الهائلة في ليل المدينة، واندفاع الماء إلى البحر، وحركة النجوم البطيئة، وطوفان السيارات المضاءة الرشيقة وهي تندفع عبر الجسر المظلم، مثل جيش من الملائكة يقف في صف واحد أثناء واحدة من حملات الله، والهمهمة السريعة لسيارات الأجرة وظلال الناس الراقصة.

استمر سيغموند ببطء مثل طلقة بطيئة تتجه نحو قلب الحياة. لم يفقد إحساسه بالدهشة، لا في القطار ولا أثناء ما كان يتجه نحو البيت في الظلام البهيم.

عندما أغلق الباب خلفه، وعلق قبعته، قطّب وجهه، ولم يعد يفكر في أي شيء على نحو محدد، ولكن تقطيبته عنت له، فخاطب نفسه:

«هذه بداية الجحيم».

اتجه صوب غرفة الطعام حيث مصدر الضوء والهمس القَلِق. وكانت الساعة تعلن، بصوتها المستنكر الرقيق، تمام العاشرة مساء. فتح سيغموند باب الغرفة، وكانت بياترس تخيط بعض الملابس، غير أنها لم ترفع رأسها. أما فرانك، الذي كان صبياً طويلاً ونحيلاً في الثامنة عشرة، فقد كان منحنياً على كتاب ولم يرفع بصره. ودفعت فيرا أصابعها في شعرها، واستمرت تقرأ في

المجلة الموضوعة على المائدة أمامها. نظر سيغموند إليهم جميعاً، ولكنهم لم يظهروا أية علامة تدل على أنهم قد أحسوا بدخوله. كان هناك فقط ذلك الانشداد المصطنع لناس يخفون تأثرهم. حملق في ما حوله ليرى أين يجب أن يذهب. كان كرسيه، المصنوع من الخيزران، ما يزال قرب الموقد، وظل نعلاه مستقرين تحت الخزانة الجانبية كما تركهما. جلس سيغموند في الكرسي الذي كان يصر، وابتدأ يشعر أنه مريض ومتعب، وقال:

«لابد أن الأطفال في الفراش؟».

استمرت زوجته تخيط، كما لو أنها لم تسمعه، في حين قلبت ابنته، بجلبة، صفحة من المجلة واستمرت تقرأ، كما لو أنها كانت مهتمة ومستمتعة بقراءتها ولم يقاطعها أحد. انتظر سيغموند ونعله يتدلى من يده، منقلاً بصره من واحد لآخر. ورد فرانك في النهاية من دون أن يرفع عينيه عن كتابه:

«لقد ذهبوا للنوم قبل ساعتين».

كانت نبرته مزدرية، وفي صوته نوع من الصرير الذي لم يصل بعد إلى اكتمال صوت الرجل.

وضع سيغموند نعليه وابتدأ يفتح شريط الحذاء الآخر، وكان إخراج القيطان من الثقوب يصدر جلبة عالية غير مبررة، وقد أزعج ذلك زوجته. أخذت نفساً عميقاً لتتحدث، ولكنها أحجمت عن ذلك، شاعرة على نحوٍ مفاجئ بازدراء ابنتها يكبحها. استقر سيغموند وذراعاه فوق ركبتيه، وجلس منحنياً إلى الأمام، ينظر إلى الموقد العاري الذي تحول إلى مزبلة ممتلئة بالأوراق وقشور الموز والبرتقال.

سألته بياترس:

«أتريد عشاء؟».

أجفلته الخشونة المفاجئة في صوتها، ومنعته من النظر إليها، كانت تدير وجهها رافضة أن تراه، وغطس قلب سيغموند بالتعب واليأس من رؤيتها، وسألها:

«هل أكلتم شيئاً؟».

لم تكن المائدة جاهزة، وكانت سلة خياطة بياترس، وهي سلة فواكه صغيرة مصنوعة من الخيزران وممتلئة بالمقصات والدبابيس وقطع من قماش الهولاند وبكرات من خيوط القطن وقطع من قماش الصرج الخضر، منثورة فوقها، وانحنت فيرا ووضعت كلا ساعديها على المائدة.

وبدلاً من أن ترد عليه، اتجهت بياترس صوب الخزانة الجانبية، وأخرجت منها شرشفاً للمائدة، ثم دفعت أدوات خياطتها جانباً، ونشرت الشرشف فوق إحدى نهايات المائدة، عرضت فيرا المجلة على أمها وهي تؤشر عليها بيدها وسألتها:

«هل قرأت هذه القصة عن مدرسة الراهبات الفرنسية يا أمي؟».

وسألتها بياترس:

«أين؟».

«في هذا العدد من مجلة ناش».

ردت بياترس:

«لا، فإن ما أخصصه من وقت للقراءة أقل بكثير من أي شيء آخر».

«يجب أن تهتمي بنفسك أكثر من اهتمامك بالآخرين».

ولفظت فيرا (الآخرين) بسخرية ثم نهضت قائلة:

«دعيني أقوم أنا بذلك بدلاً منك، وارتاحي فأنت متعبة يا أمي».

اتجهت أمها صوب المطبخ دون أن تجيب، ثم تبعتها فيرا،

وبقي فرانك وحيداً مع والده، وابتدأ يتحرك مضطرباً، وأحنى كتفيه النحيفتين فوق كتابه، وبقي سيغموند وذراعاه على ركبتيه، يحملق في الموقد، ومن المطبخ جاءت قعقعة الأواني وتسربت رائحة القهوة. وطوال تلك الفترة كانت فيرا تتحدث بنوع من التألق المنفعل مع أمها، مخاطبة إياها بنبرات ممتلئة بالحب، مستخدمة كل حصافتها لتستعيد بعض الأحداث الصغيرة الطريفة حتى تسردها لها. وكانت بياترس لا تجيب إلا لماماً، وبأقصى درجات الاختصار.

جاءت فيرا حاملة صينية الطعام، ووضعت كوباً من القهوة وصحناً يحتوي على قطع قرمزية اللون، رقيقة من لحم الخنزير المسلوق، من النوع الذي يُشترى جاهزاً من المخازن، وبعض الخبز والجبن، ثم جلست وابتدأت تقلب، بصوت عال، أوراق مجلتها. ألقى فرانك نظرة على المائدة، ولاحظ أنها جُهزت لوالده فقط. نظر باشتهاء إلى الخبز واللحم. ولكنه كبح جماح نفسه واستمر يقرأ أو متظاهراً بفعل ذلك. ودخلت بياترس بإبريق زجاجي صغير يلمع على نحو رائع.

كان كل شيء مرتباً، سكين وشوكة وملعقة وإبريق زجاجي، وكلها نظيفة، والأواني رائعة والخبز والزبد رقيق. وفي الحقيقة كانت ستبدو كذلك في عيني غريب أيضاً، ولقد أدهشت سيغموند هذه الأناقة البراقة المفاجئة في أدوات منزلية كانت فيما مضى مهملة قذرة، وحيث كان تقليداً معتاداً أن يكون شيء ما قد نسي أو فُقِدَ أثناء الوجبات.

وضعت بياترس السكين والشوكة قرب صحن لحم الخنزير، وعندما اطمأنت أن كل شيء على ما يرام، ذهبت لتجلس ثانية، ولم تَبدُ على وجهها أية عاطفة. كانت هادئة ومتكبرة، وابتدأت تخيط ثانية. وقالت فيرا كما لو أنها تستعيد محادثة مقطوعة:

«ما قولك يا أمي؟ هل سنذهب إلى هانتن كورت أم إلى ريجموند يوم الأحد؟».

فردت بياترس:

«أقول كما قلت من قبل: لا أستطيع الخروج».

«ولكن يجب أن تجربي يا أمي، وسيشهد يوم الأحد القادم البداية».

وقالت بياترس:

«هنالك الكثير من الأشياء التي ينبغي التفكير بها».

فرفعت فيرا وجهها الوسيم وابتسمت بفرح لأمها وقالت:

«لا يا أمي، إننا نريد تغيير كل هذا، ونحن ذاهبون في (طلعة) صغيرة ممتعة يا أمي».

شددت بياترس على كلمة (طلعة) مبتسمة قليلاً وقالت:

«أعتقد أنه لن تكون هناك (طلعة) بالنسبة لي، كما أنك تتحدثين بالعامية يا فيرا»(*).

«إنه مصطلح جميل يا أمي، وأنت تبدين متعبة».

نظرت بياترس إلى الساعة وقالت:

«سآوي إلى الفراش عندما أنتهي من تنظيف المائدة».

جفل سيغموند الذي مازال جالساً ورأسه منحن إلى الأمام يحملق في الموقد، واستمرت فيرا في الحديث، بينما نظر فرانك إلى المائدة، وقال بصوته الذي يصر:

«هذا عشاؤك يا أبي».

(*) استخدمت فيرا كلمة عامية للدلالة على الرحلة في حديثها، فاستخدمنا كلمة (طلعة) بمعناها العامي العراقي مقابلها.

توقفت المرأتان عن الكلام ونظرتا من حولهما، وطأطأ سيغموند رأسه، بينما استمرت فيرا بحديثها، ثم ما لبثت أن سكنت وخيم الصمت. كان سيغموند جائعاً، فقال لنفسه قبل أن يجند كل شجاعته لينهض ويتجه نحو المائدة:

«يا إلهي... هذا خبز المذلة الليلة».

كان يبدو وكأنه يتقلص من الداخل. نظرت المرأتان إليه بسرعة ثم أدارتا وجهيهما في الحال. وعندما صر كرسيه ونهض كان فرانك يراقبه من تحت حاجبه.

ابتدأ سيغموند محنة الأكل والشرب بوجود عائلته، ولو أنه لم يكن جائعاً لما استطاع أن يفعل ذلك، رغم أنه كان راضياً بأن يسمع الإهانة هذه الليلة.

ابتلع القهوة بجهد، وعندما انتهى، جلس متردداً بعض الوقت، ثم نهض واتجه نحو الباب قائلاً:

«ليلة سعيدة».

لم يجبه أحد، وتحرك فرانك في كرسيه، وأغلق سيغموند الباب خلفه واختفى.

خيم صمت مطبق على الغرفة حتى سمعوه يفتح صنبور الماء في غرفة الحمام. عندها ابتدأت بياترس تتنفس على نحو متقطع، ممسكة أنفاسها، كما لو أنها ستبكي، ولكنها كبحت جماح نفسها، وتصلب وجها الصبيين بالكره.

قالت فيرا:

«إنه لا يستحق حركة من خنصرك يا أمي».

وتحركت بياترس بيدين متلمستين حزينتين، تلملم أدوات خياطتها وخيوطها، وقال فرانك بنبرة ازدراء:

«على أية حال، لقد عاد، وهو خجول بما فيه الكفاية، مثل السلمون المسلوق».

لم تجِزْ بياترس جواباً. ونهض فرانك واقفاً وظهره باتجاه الموقد، مقلداً وضع أبيه المفضل وقال ساخراً:

«لقد رجعت متسللاً جباناً».

مد جسمه إلى الأمام، ووضع قطعة من لحم الخنزير بين قطعتين من الخبز، وابتدأ يلتهم الشطيرة بلقم كبيرة. جاءت فيرا إلى المائدة، وابتدأت تصنع لنفسها شطيرة لذيذة. راقبها فرانك بعينين حسودتين.

قالت بياترس له:

«هنالك المزيد من لحم الخنزير إن أردت. لقد احتفظت لك بقسم منه».

فأجابها:

«حسن يا أمي، اجلبيه».

توجهت بياترس إلى المطبخ، وصاحت فيرا وراءها:

«واجلبي الخبز والزبد أيضاً».

وقال فرانك هامساً بينما كانت أمه خارج الغرفة:

«الجبان اللعين، يا له من جبان نتن!».

لم تجبه فيرا ولكنها كانت موافقة ضمنياً.

دللا أمهما بينما كانت تنتظرهما ليفرغا من العشاء. وفي النهاية تثاءب فرانك وتململ للحظة أو اثنتين، ومن ثم اتجه صوب أمه ووضع يده على ذراعها. ولقد جعل ملمس ذراع أمه المدور تحت كمها الحريري الأسود الدموع تترقرق في عينيه، فقال بصوت يصر أكثر من أية مرة سابقة:

«لا تهتمي يا أمي، سيكون كل شيء على ما يرام».

ثم انحنى وقبلها وأضاف: «ليلة سعيدة يا أمي».

قالها بشكل أخرق وهو يغادر الغرفة، وابتدأت بياترس بالبكاء.

الفصل الثالث والعشرون

قال سيغموند يخاطب نفسه وهو يغلق باب غرفة الطعام خلفه ويصعد إلى الطابق العلوي في الظلام:

«لن أستطيع أن أعيد استقراري في هذا البيت، فأنا مجرم عائلي الآن. قد تتصالح بياترس معي في النهاية، ولكن حكم الأطفال القاسي لا يطاق، وأنا مثل كلب يزحف حول البيت الذي هرب منه فرحاً من قبل. وليس لدي مكان آخر ألتجئ إليه. فلماذا عدت إلى هنا؟ ولكني بحاجة إلى النوم ولن أزعج نفسي الليلة».

توجه صوب الحمام واغتسل، ولقد منحه كل شيء فعله إحساساً بالامتنان رغم وضعه التعيس. غمس ذراعيه عميقاً في الماء البارد لعله يشعر بمتعة أكبر. وغسل عنقه مرة بعد أخرى. وبدا له وكأنه يضحك من فرط الإحساس بالمتعة الناتجة من سقوط الماء عليه. ولكن المنشفة ذكرته بالتهاب جبينه ورقبته. إذ كان كلاهما متقرحاً، وقد سلخ جلدهما بفعل الشمس، فمسّهما بحذر شديد ليجففهما، جافلاً ومبتسماً في آن واحد، بسبب طريقته في لمسهما وفزعه الطفولي لما يسببانه له من ألم.

ورغم أن غرفته كانت مظلمة جداً، غير أنه لم يشعل الضوء، وبدلاً من ذلك خرج إلى الشرفة الصغيرة، وكان قميصه مفتوحاً عند النحر والرسغين فسحبه أكثر كاشفاً صدره إلى الليل الناعم اللذيذ.

وقف يحدق في الظلام بعض الوقت. ورغم أن القمر لم يشرق بعد غير أن الليل كان مضاءً ببعض الضوء الصادر من الأفق. كانت النجوم ضئيلة الحجم. وفي القرب انتصبت أشكال كبيرة من الأشجار. وأضاءت شجر الظلمة مجموعة من المصابيح التي تشبه حزمة من الفطر. كانت هناك ضوضاء جشاء مبهمة تملأ السماء، مثل الهمس في صدفة فارغة، وغالباً ما ينتفخ تنفس الصيف متحولاً إلى تنهدات قلقة عندما يهمهم قطار في البعد.

فكر سيغموند مع نفسه:

«يا له من ليل واسع، والليل يجمع كل شيء تحت خيمته، ترى ما يخفي تحتها؟!».

وأحس أن روحه مثل حالق(*) النبات تمتد بلهفة إلى الخارج لتمسك بشيء ما. أي شيء يستطيع الإمساك به في هذا الليل العظيم الذي يتنفس بصوت أجش؟».

سقط نجم، وبدا وكأنه ينفجر في الليل مقابل عينيه تماماً ببريق أصفر، نظر إلى الأعلى متردداً فيما إذا كان قد رآه أم لا. ولم تكن هناك ثغرة في السماء. وقال لنفسه:

«إنه فأل حسن. شهاب ساقط، علامة طيبة لي. فأنا أعرف أني على صواب، وتلك كانت علامتي».

وبعد أن طمأن نفسه، رجع إلى الداخل، وأخرج ملابسه من حقيبته وسرعان ما أوى إلى الفراش، وقال لنفسه:

«هذا فراش رائع، والملاءات نظيفة جداً».

تمدد للحظة، ورأسه منحن إلى الأمام، يحدق من وسادته، في النجوم. ومن ثم استغرق في النوم.

(*) الحالق هو الجزء اللولبي الرفيع من النبتة المعترشة يساعدها على التعلق بإسنادها.

فتح عينيه على نحوٍ مفاجئ عند الساعة السادسة والنصف صباحاً، وسأل نفسه:

«ما الأمر؟» ومن دون توقف تقريباً أجاب نفسه: «يجب أن أثابر على هذا حتى النهاية». صور له نومه هاجساً مكتملاً، لكنه مثل الحلم، فقد نسيه عندما استيقظ. لكن هذا السؤال التافه وجوابه هما اللذان فضحا ما حدث في نومه. وفي اللحظة التي استيقظ فيها اختفت معرفته الطفيفة هذه.

كان نهار جميل آخر يتقدم مزهواً. وأول شيء فعله سيغموند هو أن حيّا الصباح بسبب تألقه. والشيء الثاني هو أنه استرجع في ذاكرته منظر الخليج في جزيرة وايت، وقال لنفسه: «كيف يبدو الآن؟». كان عليه أن يمنح قلبه بعض السلوى للألم الغريب القابع فيه بسبب نومه، لذلك ابتدأ يحن على نحو مؤثر إلى المكان الذي كان يقضي فيه صباحاته المنصرمة.

تخيل الحديقة بورود «الجوري» وأزهار «السلبوت»، وتذكر الطريق المشمس المؤدي إلى الساحل وامتداد البحر المعلق بنعومة بين الجروف البيض الطويلة.

وصرخ في داخل نفسه:

«لا يمكن أن يكون كل ذلك قد اختفى، لا يمكن أن يذهب. لقد انتظرته كما لو أنه لن يأتي مطلقاً، ولا يمكنه أن يختفي الآن، إن هيلينا لم تَضِع مني بالتأكيد».

وابتدأ يحاول تثبيت جمال حياته المغادر. أدار جواهر الذكرى وجهاً بعد آخر، فجرحته بجمالها البراق. ورغم أن الألم كان حميماً، غير أنه كان شبه ممتع. وفي الحال، سمع الجلبة التي أحدثتها زوجته عندما فتحت باب الغرفة المجاورة إلى غرفته وسمعها تقول:

«ستتأخر يا فرانك، إنها الثامنة إلا ربعاً».

وتذمر الشاب قائلاً:

«حسناً يا أمي، لماذا لم توقظيني مبكراً؟».

«لقد استيقظت لتوي. إذ لم أنم إلا مطلع الفجر، عندها غلبني النوم».

نزلت بعد ذلك إلى الطابق الأسفل، وأصغى سيغموند لابنه منتظراً إياه أن يخرج من السرير. مرت الدقائق، وقال سيغموند لنفسه بغضب:

«تباً لهذا الحمار، لماذا لا يخرج؟».

استدار ضاغطاً على السرير بغضب ومذلة، لأنه لا يمتلك الآن أية سلطة تؤهله أن يأمر ابنه كيما يقوم بواجبه. انتظر سيغموند وهو يتلوى بألم الغضب والقلق والعار. وعندما دقت الساعة بصوت هش مهذب، خرج فرانك من الغرفة بصوت مكتوم. وكان بإمكانه أن يسمعه وهو يرتدي ملابسه في عجلة خرقاء. فصاحت بياترس من أسفل السلم:

«أتريد ماء ساخناً؟».

فأجابها ابنها رافعاً صوته في نبرة مصطنعة متكسرة:

«تعرفين أن لا وقت لدي للحلاقة الآن».

امتلأ البيت برائحة لحم الخنزير المطبوخ. وسمع سيغموند ابنته الثانية مارجوري التي تبلغ التاسعة من عمرها تتحدث إلى فيرا التي كانت تشغل الغرفة معها. كانت الطفلة على ما يبدو تسأل، والفتاة الكبرى تجيبها باختصار. ثم حدث انقطاع في الضوضاء التي تصدرها أواني المنزل، وتمزق الصمت فجأة بصوت مارجوري وهي تصرخ من أعلى السلالم:

«أمي». ثم انتظرت قليلاً وصاحت «أمي!»... ولكن بياترس لم تسمعها.

«أمي... ماما». كانت بياترس في حجرة غسل الصحون.

ابتدأ صبر الطفلة ينفد، فرفعت عقيرتها وصرخت:

«أمي... ماما» ولكن من دون جواب، فأطلقت حينئذ صرخة طويلة:

«ماما...».

ولم يستطع سيغموند السيطرة على نفسه إلا بصعوبة.

صاحت فيرا بنزق من غرفة النوم، وفي الوقت نفسه أجابتها بياترس غاضبة أيضاً:

«ماذا تريدين؟».

صرخت الطفلة بأعلى صوتها:

«أين جواربي؟».

أجابت الأم:

«ولماذا تسألينني؟ هل هي هنا في الأسفل؟ ولماذا تصرخين؟».

تهادت الطفلة وهي تنزل السلالم، ثم عادت في الحال. وعندما وصلت إلى غرفة فيرا تذمرت قائلة:

«إنها لم تُرتَقْ حتى الآن!».

سمع سيغموند صوتاً زاد وجيب قلبه له. وكان الصوت صادراً من حركة المهد عندما تسلقته كوين طفلته الصغيرة وهي تخرج منه. بقيت صامتة لفترة من الزمن. تخيلها خلالها وهي تجلس على

السجادة البيضاء وتسحب جواربها، ومن ثم وصلته حركة أقدامها الصغيرة المكتومة الوقع وهي تنزل إلى الطابق الأسفل.

سمعها سيغموند تقول بينما تنزل السلالم:

«ماما، هل عاد أبي؟».

وضاع سؤال الطفلة وجواب الأم في المسافة التي تفصله عن المطبخ. ولقد جعل السؤال القلق الصغير وحركة أقدام كوين السريعة سيغموند يتمدد ساكناً وهو يتمزق. لم يرد أن يسمع شيئاً أكثر. فاضطجع متقلصاً داخل نفسه، وبدت روحه وكأنها مستعدة للجنون. وأحس بأنه لن يستطيع، بغض النظر عما سيحدث، أن ينهض ويقابلهم جميعاً.

أُغلق الباب الأمامي، وسمع صوت فرانك السريع:

«وداعاً».

كان الفتى على ما يبدو في مزاج سيء.

أصغى سيغموند لصوت القطار، وبدا وكأنه لم يسمعه منذ دهر ولكن الفتى سيلحق به. ثم سمع صوت جريان الماء في إناء غسل اليدين. هذه كما افترض كانت فيرا التي على ما يبدو لن تذهب إلى المدينة اليوم. وعند تفكيره في ذلك كرهها سيغموند تقريباً، وأصغى لحركتها حين هبطت السلالم.

كانت الساعة التاسعة تقريباً عندما تسلقت خطوات بياترس السلم، وضعت شيئاً ما في غرفة الحمام، قدّر أنه ماءه الحار. أصغى سيغموند متيقظاً، ولم يدر إن كانت ستأتي لتطرق بابه أو تتحدث معه. اقتربت بسرعة، ثم طرقت الباب وانتظرت. جفل سيغموند للحظة ولم يستطع الإجابة، فطرقت بصوت أعلى. فرد عليها:

«حسناً».

هبطت السلالم في الحال. وتمدد يوبخ نفسه ويعذبها مدة نصف ساعة أخرى حتى جاء صوت فيرا بنبرة باردة من تحت شباكه في الأسفل:

«لابد أن ترفعي كل شيء إذن، إذ لا يمكن أن تبقي صحون الفطور على المائدة لمدة أسبوع».

تحجر قلب سيغموند ونهض بفم مقفل واتجه صوب غرفة الحمام. وهناك جفل مرة أخرى عندما رأى كوين تقف في وعاء الغسيل، وظهرها باتجاهه، وهي تغسل وجهها بحذر شديد. كان شعرها المشعث قد ترتب في ضفيرة طويلة صلبة تخرج من رقبتها الطفولية النحيلة، وكانت ذراعاها عاريين حد الكتفين، وهي ترتدي صدرية من قماش الفلانيليت القرنفلي تصل بالكاد إلى ركبتها. أحس سيغموند بالبهجة لرؤية ربلات ساقيها البدينتين الصغيرتين ثابتتين قريبتين من بعضهما. غسلت بعناية خديها وفمها ورقبتها وشعرها غير أنها لم تغسل أذنيها، ومن ثم، ضغطت الإسفنجة متعمدة واستمرت تمسح الصابون.

ولسبب أو آخر تلفتت من حولها، والتقت عيناها المجفلتان بعينيه، كان لها أيضاً عينان زرقاوان غامقتان جميلتان. وقفت والإسفنجة على عنقها، تنظر إليه بتأمل، فأحس سيغموند بنفسه وهو يتقلص تحت نظرة طفلته الثابتة الهادئة المبهمة. قال أبوها:

«مرحباً! هل أنت هنا؟».

أدارت الطفلة ظهرها دون أن تغير ملامحها، واستمرت تغسل عنقها. أسقطت الإسفنجة في الماء، وتناولت المنشفة من حائط الحمام، ثم استدارت لتنظر مرة أخرى إلى سيغموند الذي يقف أمامها مرتدياً منامته، وفمه مطبق بشدة، ولكن عينيه كانتا متقلصتين وحزينتين. كانت على ما يبدو تحاول أن تكتشف شيئاً ما فيه.

قال لها مازحاً:

«هل غسلت أذنيك؟».

لم تعره أيما انتباه، لكنه لاحظ عندئذ أن وجهها كان يخفي ابتسامة مكتومة وهي تنظر إليه. كانت تشعر بالخجل غير أنها استمرت تراقبه بفضول.

قال لها:

«هناك بعض الشوكولاتة على منضدتي».

لكنها سألته على نحو مفاجئ:

«أين كنت؟».

فرد مبتسماً:

«ذهبت إلى البحر».

سألته بنبرة متهمة:

«إلى برايتن؟».

أجابها:

«أبعد بكثير من ذلك».

«إلى وورثنك؟»

«أبعد، لقد سافرت في باخرة».

«ومن ذهب معك؟».

أجابها:

«ولماذا؟ لقد ذهبت بمفردي».

فسألته:

«وحيداً؟».

أجابها ضاحكاً:

«وحيداً!».

«ألا تستطيع أخذي معك؟».

أجابها:

«سأفعل في المرة القادمة».

غير أن الطفلة مازالت تنظر إليه غير مقتنعة، ثم سألته وهي تنظر إليه بشك:

«ولكن لماذا ذهبت؟».

«كي أرى البحر والبواخر والسفن الحربية ذات المدافع».

فردت الطفلة موبخة:

«كان المفروض أن تأخذني معك».

«نعم، كان المفروض أن أفعل. أليس كذلك؟».

قال لها ذلك، كما لو أنه كان متأسفاً عما حدث، وكانت كوين ما تزال تنظر، إليه ثم قالت له:

«أنت محمرّ؟».

نظر بسرعة إلى نفسه في المرآة وأجابها:

«ذلك بسبب الشمس. ألم يكن الجو حاراً هنا؟».

«أجل، لقد تقشر أنفي، وقالت فيرا إنها ستقشرني مثل البطاطا الجديدة».

ثم ضحكت الطفلة واستدارت بخجل منه.

قال سيغموند:

«تعالي هنا، أعتقد أن سناً جديدة قد بزغت لكِ. أليس كذلك؟»

كان حذراً جداً ورقيقاً معها، بيد أن الطفلة انسحبت نافرة بعيداً عنه. فقال لها:

«تعالي ودعيني أر».

ابتعدت أكثر عنه، وظهرت الابتسامة المكبوتة نفسها على وجهها، خجولة، شاكة، ومتهمة.

سألها بينما كانت الطفلة مترددة قرب الباب:

«ألم تذهبي لأخذ الشوكولاتة؟».

ألقت نظرة على غرفته وأجابت:

«يجب أن أذهب إلى أمي لترتب لي شعري».

أحس بالإهانة في الصميم من خشونتها وعصيانها. ونزلت الطفلة دون أن تذهب إلى غرفته.

لقد صُدّ سيغموند من قِبَل الشخص الوحيد في البيت الذي توقع الصداقة منه. وابتدأ يحلق ذقنه ببطء شاعراً بالغصة في قلبه، بقي لفترة طويلة في الحمام، وعندما خَلع ملابسه في النهاية ليغتسل، أحس وكأنه يستطيع أن يستنشق رائحة البحر. حنى رأسه ولحس كتفه، فكان طعم جسده مالحاً، وقال لنفسه:

«من المؤسف أني سأغسل ذلك».

عندما خرج وهو يقطر من ماء الحمام البارد أحس للحظة بارتعاش. مسح جسده بالمنشفة وقال وهو يتأمل نفسه:

«أبدو شاباً كما لو أني في السادسة والعشرين».

استدار إلى المرآة، فرأى نفسه رجلاً كاملاً ناضجاً في الأربعين من عمره، وسنوات المعاناة الحزينة ترتسم على محياه.

قال يخاطب نفسه:

«لقد اعتدت أن أردد بأني عندما سأصبح في سن الأربعين سأجد كل شيء باستقامة الأنف في وجهي، وأصرف أموري بالسهولة التي أريد. أما الآن فلم أعد متأكداً من نفسي، ولا أجد ثقة في نفسي أكثر من ثقة فتى في العشرين من نفسه، ما الذي سأفعله؟ يبدو أن الإنسان يحتاج إلى أم طوال حياته. وإني لأشعر بأني لا أشبه الإله الخالق كثيراً».

عند وصوله إلى هذه الملاحظة الساخرة، هيأ سيغموند نفسه لينزل إلى الطابق الأسفل. لقد تجاوز حساسيته وأصبحت أعصابه أشد صلابة. وعندما ارتدى ملابسه هبط إلى الطابق الأرضي وتوجه صوب المطبخ مباشرة دون أيما تردد، ولم يعد مهتماً بزوجته أو أطفاله. لم يبادله أحد الكلام عندما جلس إلى المائدة. ولقد سره ذلك، إذ لم يرد أن يمسه أحد. تناول إفطاره وحيداً، بينما زوجته تتنقل بسرعة في الطابق العلوي، وفيرا تدور في غرفة الطعام.

ثم ما لبث أن انسحب إلى وحدته في غرفة الاستقبال، وكردة فعل ضد فعاليته الشعرية، أحس كما لو أنه أصبح أكثر تبلداً وعمىً. إذ أنه لم يلاحظ أي شيء من حوله، ولا حتى وعاء الورد المسرف الذي وضع على بيانوه، وهو أمر لم يكن ليسمح به، ولا كمانه الذي وضع على نحو مهين على الأرضية اللامعة الباردة قرب الشباك، واكتفى بالجلوس في كرسيه وسرعان ما شعر بالمرض.

اختفى كل قلقه غير الطبيعي وتحفزه الشعري الذي تملكه خلال الأيام القليلة الماضية. جلس مسترخياً بينما حياته تتصارع داخله بعد تخدير الحب والهواء والجمال وشروق الشمس. لقد كان منهكاً تماماً. ومثل نباتٍ بَرْعَمَ بجنون وغزارة حتى ضيع كل أنسجة قوته، ها هو الآن يصارع حياته في أخدود مغلق متهدم.

جلس سيغموند ممسكاً برأسه بين يديه، منحنياً على المنضدة. كان من الممكن أن يكون خاملاً على نحوٍ غبي فلا يشعر بالاشمئزاز والمرض لو لم تكن لأعصابه هذه الحساسية الكثيفة التي تقلق وعيه. وقال لنفسه:

«أعتقد أن ذلك من جراء تعرضي للشمس، نوع من ضربة الشمس».

وأحس بجفاف لا يطاق في مخه، وخدر في رأسه، وأضاف: «هذا بشع».

كانت ذراعاه ترتجفان بألم كثيف. ولقد بذل أقصى جهده ليوقفهما، ومن ثم ابتدأ الألم الحاد في بطنه، فتململ في كرسيه دون أن يغير موضعه. لم يعد يقوى على النهوض أو الحركة فتململ مثل حشرة مثبتة في موضعها.

عندما فتح الباب، جفل بشدة، ومع ذلك لم يُظهر أية حركة محسوسة. دخلت فيرا متظاهرة بأخذ ألبوم الصور لتضع فيه صورة من مجلة لندن أوبنين. ولكنها في الحقيقة كانت تريد أن ترى ما يفعله والدها، إلا أنه لم يحرك عضلة واحدة، بل انتظر، متحاملاً على نفسه، خروجها حتى يرتاح. خرجت فيرا من غرفة الاستقبال تهمهم مع نفسها، ورغم تظاهرها بأنها لم تر أباها، غير أنها ألقت عليه نظرة متفحصة، وقالت لأمها:

«إنه يجلس ورأسه بين يديه».

وردت بياترس:

«أنا سعيدة إذ ليس لديه شيء آخر يفعله».

وقالت فيرا:

«أعتقد أنه يرثي نفسه».

فأجابت بياترس:

«إنه بارع في فعل ذلك».

تقدمت كوين إلى الأمام، وأمسكت بتنورة أمها، ونظرت إليها بلهفة وقالت:

«ما الذي يفعله يا أمي».

أجابت الأم:

«لا شيء، لا شيء، إنه يجلس في غرفة الاستقبال».

وأصرت الطفلة القلقة:

«ولكن ما الذي يفعله؟».

«لا شيء. لا شيء أستطيع إخبارك به. لقد أفسد حياتنا فقط».

وقفت الطفلة تراقب أمها في حيرة وحزن واضحين وسألتها:

«ولكن ما الذي سيفعله يا أمي؟».

«لا شيء. لا تهتمي بذلك. اركضي والعبي مع مارجوري. أتريدين خوخة لذيذة؟».

أخذت خوخة صفراء من المائدة، فتناولتها كوين دون أن تنبس بكلمة واحدة. كانت مرتبكة كثيراً. وسألتها أمها:

«ماذا قلت؟».

«شكراً لك».

تنهد سيغموند بارتياح عندما تُرك وحده مرة أخرى، وتململ في كرسيه، وتنهد مرة أخرى وهو يحاول أن يُخرج مخلب الألم المبرح من بطنه وقال لنفسه:

«آه، هذا مرعب».

شنج عضلاته ليسكن الألم وسأل نفسه: «لم أشعر بمثل هذا من

قبل أبداً. ماذا دهاني يا ترى؟» ولكن السؤال مات في الحال، إذ يبدو أنه غير ذي نفع، ومن المؤلم أن يجد إجابة عنه.

بدأ يبحث عن عزاء. لو أنه يستطيع أن يفعل شيئاً، أو أن يحصل على شيء يريده، فلسوف يكون الأمر أفضل. سأل نفسه:

«ماذا أريد؟».

وبلهفة صارع نفسه كي يجد الجواب.

كل شيء اقترحه على نفسه جعله يشعر بالألم والتعب والنفور: ساحل البحر، أرض غريبة، حياة جديدة لم يحلم بها من قبل، الفِلاحة في كندا.

وأجاب نفسه:

«أعتقد أني سأكون على الحال نفسها هناك، وسيراودني ذلك الشعور الممرض نفسه. أنا لا أريد شيئاً».

واقترح على نفسه مرتجفاً:

«هيلينا؟».

ولكنه أحس برعب أعمق فقط.

لقد جعله تفكيره يتقلص متشنجاً:

«لا أطيق كل هذا. إذا كانت هذه حالتي، فإن من الأفضل لي أن أموت، ألا تكون لدي أية رغبة أو أي مطلب. هذه هي بداية الموت».

استراح بعد ذلك لفترة من الزمن. كانت فكرة الموت وحدها هي التي تسليه، فقال لنفسه:

«ليس ثمة شيء أستطيع الالتجاء إليه».

وفي حالته النفسية تلك، لم يعد هناك من شيء آخر:

اقترح مرة أخرى، متأملاً نفسه بتوسل:

«هيلينا؟».

لكنه صرخ جافلاً بشدة كما لو أنه ينسحب من لمسة تتقدم نحوه فوق مكان متقرح:

«أوه، لا».

أنَّ قليلاً بينما كان يتنفس وأحس بغثيان مروع، وسمع صوت تَلَمّس يدٍ على مقبض الباب. لم يجفل سيغموند ولكنه سحب نفسه إلى بعضها. دفعت كوين الباب، ووقفت ممسكة بمقبض الباب تنظر إليه وقالت:

«بابا، ماما تقول إن الغداء جاهز».

لم يجبها سيغموند، فانتظرت الطفلة ضائعة بضع لحظات قبل أن تعيد بنبرة مترددة:

«الغداء جاهز».

قال سيغموند:

«حسن. اذهبي!».

عادت الفتاة الصغيرة إلى المطبخ والدموع تترقرق في عينها، فسألتها بياترس:

«ما الذي قاله لك؟».

وأجابت الصغيرة وهي تبكي:

«لقد صرخ فيّ».

احمرت بياترس خجلاً، وترقرقت الدموع في عينيها، واحتضنت الطفلة بين ذراعيها وهي تقبل جبينها:

«هل فعل ذلك؟ لا تهتمي يا عزيزتي لا تهتمي».

جعلت الدموع في صوت الأم الطفلة تبكي بمرارة. بينما جلست فيرا ومارجوري صامتتين عند المائدة.

وفقدت قطعة اللحم والبطاطا المهروسة، بخارهما وأصبحتا باردتين.

الفصل الرابع والعشرون

عندما وصلت هيلينا مساء الخميس إلى البيت وجدت كل شيء مثيراً للاشمئزاز. وكانت كل روائح الشارع النتن، الذي يجب أن تجتازه، معلقة فوق الرصيف وقد زحفت في حرارة الجو. كان البيت عارياً وضيقاً، وقد ذكرها هذا الإحساس بالأطفال الذين يجلبون لها فراشات محبوسة في علب الكبريت، وبينما كانت تطرق الباب، أحست أنها مثل فراشة مخدرة، يدفعها طفل من جناحها، لتستقر في علبته.

فتحت أمها الباب، وهي امرأة ذات فم غائر وخدين متوردين وعينين بنيتين سريعتي الحركة، أعطتها ملامحها مظهر طير يمشي وينقر فجأة هنا وهناك. وعندما دخلت هيلينا على مضض، لملمت الأم نفسها واسترخت في الحال، وبدت وكأنها تنقر قائلة:

«حسن؟».

أجابت الابنة بنبرة مستسلمة:

«ها أنذا هنا».

كانت أمها تود أن تكون رؤوفة بها، غير أنها أصبحت باردة بالقدر نفسه. وهتفت السيدة فيردن وهي تحرك رأسها بطريقة مازحة غريبة:

«هذا ما أرى. وكيف قضيت وقتك؟».

ردت هيلينا بطريقة أكثر هدوءاً:

«أوه، على ما يرام».

«هم!».

تأملت السيدة فيردن ابنتها عن قرب، وميزت فيها النظرة الطفولية الغريبة المقطبة التي تعرفها على نحو ممتاز، لذلك فقد بذلت جهداً كي تمنع نفسها عن إلقاء الأسئلة وقالت:

«إنك تبدين على ما يرام».

ابتسمت هيلينا بتهكم، وسألتها الأم بالطريقة الحنون المؤثرة التي اتخذتها:

«وهل أنت جاهزة للعشاء؟».

ردت الابنة:

«إذا كان العشاء جاهزاً فسأتناوله».

«إنه ليس جاهزاً».

أطبقت الأم فمها الغائر بشدة، وراقبت ابنتها بنوع من التحدي الساخر، وأضافت: «لأني لم أعرف متى تعودين».

ثم حركت ذراعها مثل خطيب يتلفظ كلمات لا جدال عليها، وأضافت بعد وقفة مسرحية مملة:

«ولكني أستطيع أن أعده في الحال. فماذا تشتهين؟».

أجابت هيلينا:

«قائمة مخزن طعامك الواسع كلها».

نظرت إليها السيدة فيردن مرة أخرى، وسألتها معبرة عن الموضوع باقتضاب:

«أتريدين شراب الكاكاو أم ليموناً؟».

فردت هيلينا:

«ليموناً».

دخل السيد فيردن في هذه الأثناء. كان رجلاً قصيراً ذا لحية بيضاء وصوت ناعم. وقال بطريقة متحفظة هادئة:

«لقد عدت إذن يا نيللي».

أجابته:

«كما ترى يا أبي».

«هم!».

همهم مع نفسه وتحرك مبتعداً عنها.

لم يتجرأ أي من والديها على سؤالها. لقد كانا يتحركان من حولها على أطراف أصابع أقدامهم خلسة. ولكنهما مع ذلك لم يمدا لها يد المساعدة. وقد جعلتها همهمة والدها الصامتة، وسؤال أمها المقتضب تنسحب نحو الداخل، مثل قوقعة لا تستطيع التراجع أكثر مما فعلت بعيداً عن العيون المتهمة. تظاهرت على نحو مهمل بأنها تأكل. وكانت مثل طفل ارتكب خطأ ولكنه لن يعاقب بل سيُترك للإذلال. وسُمعت طرقات سريعة رشيقة على الباب فتوجهت السيدة فيردن لتفتحه.

«هل جاءت؟».

تلت ذلك السؤال خطوات سريعة على بلاط الممر، ثم دخلت لويزا وألقت بنفسها على هيلينا وقبلتها، وسألتها بصوت يرتعش بالحنان.

«متى وصلت؟»

أجابت هيلينا:

«منذ عشر دقائق».

فوبختها لويزا قائلة:

«ولماذا لم تخبريني بموعد وصول قطارك كيما أستطيع أن آتي إلى المحطة لاستقبالك؟».

فتشدقت هيلينا بالجواب:

«ولماذا؟».

نظرت لويزا إلى صديقتها بصمت، فقد تأثرت بعمق من سخريتها.

صعدت هيلينا بأسرع ما يمكن إلى الطابق الأعلى، وقضت لويزا تلك الليلة معها. إذ أنهما ستذهبان في اليوم التالي معاً إلى كورنويل لقضاء عطلتهما الصيفية المعتادة، وستصحبها فتاة ثالثة، صديقة بعيدة للويزا، وعلى معرفة طفيفة بهيلينا.

لم تنم أي من الصديقتين خلال الليل، إذ كثيراً ما كانت هيلينا تبوح بأسرارها إلى لويزا التي تحتضن الحب والمأساة اللذين يغلفان الفتاة التي تحبها كثيراً. وفي الوقت نفسه دارت أفكار هيلينا في حلقات عديدة، الواحدة تلو الأخرى، مقيَدة بالأيام الخمسة التي قضتها على البحر، ساحبة إلى الأمام قدر استطاعتها موعدها يوم غد مع سيغموند ولكنها لم تكن تستطيع الوصول إلى أقرب من ذلك.

كان يوم الجمعة يوماً لا يطاق بسبب الصمت الذي لم تمزقه إلا محاولات صغيرة رقيقة وانفجارات مازحة حنون من جانب الأم، وقد صُدت جميعها بسرعة من قبل هيلينا. أما الوالد فلم ينبس ببنت شفة، وتجنب النظر إلى ابنته، ولكن كان هنالك نبل واضح في تحفظه المتواضع، جعل عدم رضاه أصعب من أن يحتمل، وأكثر

تأثيراً من التساؤلات الفاضحة المكررة في عيني الأم. لكن النهار انتهى على أية حال، وتظاهرت هيلينا بأنها تقرأ، ثم جلست تفكر وعزفت قليلاً على كمانها بطريقة آلية، وخرجت إلى المدينة وتجولت فيها. وفي النهاية خيم الليل.

قالت هيلينا إلى أمها:

«أعتقد أن من الأفضل أن أحزم أمتعتي».

فهتفت السيدة فيردن مبالغة في دهشتها:

«ألم تفعلي ذلك بعد؟ لن تتمكني من فعل ذلك، ومن الأفضل أن أساعدك». ثم سألتها:

«متى سيغادر القطار؟».

ابتسمت هيلينا وأجابت:

«الساعة العاشرة إلا عشر دقائق».

ألقت أمها نظرة على الساعة، وكانت تشير إلى الثامنة والنصف فقط. كان هنالك متسع من الوقت لكل شيء وقالت:

«ومع ذلك، فإن من الأفضل أن تكوني مستعدة».

استدارت هيلينا تعبة من مبالغة أمها التي اقترحت قائلة:

«سآتي معك إلى المحطة. سأرى آخر جزء منك وأنت تغادرين، لم نعد نراك كثيراً هذه الأيام».

استدارت هيلينا من حولها في دهشة، وأجابت خائفة من دون أن تجعل رفضها يبدو واضحاً جداً:

«أوه، لا داعي لذلك».

«نعم، سأفعل وسأودعك».

كانت حيوية السيدة فيردن وتدليلها أمرين جديدين. إذ أنها في العادة جافة ومتحفظة في التعبير، ولكنها في مناسبات مثل

هذه، وعندما تذكر بالعلاقات المثالية بين الأم والابنة، فإنها تمثل دور الأم الحنون على نحو مبالغ فيه يؤدي إلى كآبة عامة في العادة.

أشعلت هيلينا شمعة وذهبت إلى غرفة نومها حيث حزمت سلة ملابسها بسرعة. وعندما وقفت أمام المرآة لترتدي قبعتها. التقت عيناها المهمومتان في المرآة، فأدارت وجهها بسرعة كما لو أنها اكتوت وقالت لنفسها:

«كم أبدو غبية!، وسيغموند كيف حاله الآن؟ كيف مر عليه اليوم؟ وما الذي حدث له، وما الذي أحس به، وكيف يبدو الآن؟» فكرت به وحاولت وقايته.

بعد أن حزمت سلتها حملتها إلى الطابق الأسفل حيث كانت أمها جاهزة في انتظارها، وهي تضع وشاحاً أبيض حول عنقها. وبعد فترة قصيرة جاءت لويزا ووضعت سلتها في الممر، واستقرت في أحد الكراسي، وقالت بعد بضع لحظات من الصمت:

«لا أريد الذهاب يا نيللي».

فسألتها هيلينا غير دهشة ولكنها متنازلة كما لو من أجل طفل:

«لماذا؟».

قالت الأخرى متنكرة:

«لا أعرف. أنا تعبة!».

فردت هيلينا وهي تستعجل حزم الحقائب:

«بالطبع أنت كذلك، ماذا تتوقعين بعد نهار مثل هذا؟».

وهتفت السيدة فيردن بطريقتها المبالغة، وهذه المرة بتوبيخ ممزوج بالمزاح:

«ثم الاستعجال في حزم الحقائب».

وكررت لويزا القول مكتئبة:

«أوه، لا أعرف. لا أعتقد أني أريد الذهاب يا عزيزتي».

أجابت هيلينا وهي تنهض:

«حسن، لقد آن لنا أن نغادر، هل ستحملين السلة أم الكمان يا أمي؟».

نهضت لويزا وحملت حقيبتها الخفيفة وعلى وجهها تعبير بائس.

كان الأفق الغربي المواجه للباب يتوهج بغروب الشمس، ولم يكن الظلام غير دخان معلق خانق فوق الحرارة الحمراء الهابطة في ذلك النهار المشرف على الانتهاء، وكذلك كان توق هيلينا الطويل لليل. كانت عربة الترام مزدحمة. وفي إحدى زواياها، كانت أولِف الصديقة الثالثة، التي نهضت بلهفة كي تحييهم. جلست هيلينا خرساء، بينما العربة تتأرجح خلال أضواء محلات الدرجة الثالثة الصفر المبتذلة. سمعت أولِف تعلق على وجهها وذراعيها المحترقتين بالشمس، وأحست بالالتهاب المتجدد فيهما، وسمعت صوتها الغريب يجيب. كان كل شيء من حولها في حالة انشداه. ومع وقع حركة العربة، وبينما كانت بقع المحلات الصفر تمر أمام عينيها تمتمت مع نفسها:

«مائتان وأربعون ميلاً».

الفصل الخامس والعشرون

أمضى سيغموند فترة الظهيرة في حالةٍ من الغيبوبة. وعندما حان وقت الشاي تفجرت بياترس، التي كبحت جماح نفسها حتى تلك اللحظة، في نوبة من الهستيريا الغاضبة، وسألته ببرود:

«متى يبدأ عقدك مع المسرح الكوميدي؟».

وأدرك أنها تسأله عن النقود، فأجابها:

«غداً إذا كان سيبدأ».

كانت تعرف أنه يكره ذلك العمل. ولسبب أو لآخر، تفجر غضبها مثل برق مفاجئ عند قوله «إذا كان سيبدأ»، فصرخت به:

«وما الذي يمكنك أن تفعله لنا، إذا اعتقدت أنك فعلت ما فيه الكفاية، فلا يمكننا أن نفعل ما يحلو لنا دائماً. حقاً لا نستطيع ذلك. لقد أشبعت نزوتك، أليس كذلك؟ أشبعت نزوتك وتريد الاستمرار. ولكن تذكر أنك لست الوحيد في هذا العالم. تذكر ذلك. هنالك أطفال أيضاً دعني أذكرك بهم. ومن هم. إنك تتحدث عن التهرب من المسؤولية، ولكن من سيكون، في اعتقادك، مسؤولاً عن أطفالك؟ من تعتقد؟».

أجابها سيغموند ببرود شديد:

«لم أقل أي شيء عن التهرب من المسؤولية».

«لا، لا حاجة لأن تقول ذلك، أنا أعرف ماذا تعني. أنت تجلس هنا متكاسلاً طوال النهار، وأنا ماذا يجب أن أفعل؟ علي أن أهتم بالأطفال، وأكدح وأخدم من يوم لآخر دون انقطاع. ولكني أخبرك الآن، بأني سأتوقف عن فعل ذلك، وسأفعل ما أشاء وسأغادر البيت أيضاً. ولكن لن أكون جبانة مثلك، وأنت تعرف ذلك، أنت تعرف أني لن أترك الأطفال الصغار للخدمة في المنازل أو لأي شيء آخر. إنهم أطفالي، ولكنهم ربما ليسوا أطفالك».

ورد سيغموند بازدراء:

«لا داعي لكل هذا».

ابتدأ الضغط في صدغيه يؤلمه، وأحس أنه مريض على نحو كريه: قدحت عينا بياترس الغامقتان بالشرر، وصرخت مرة أخرى:

«لا داعي لكل هذا؟ ... لا داعي؟ لا بل هناك داع لأكثر من هذا، أنا لا أعرف ماذا تتصورني، ولا أعرف إلى أي حد تعتقد أن بإمكانك الاستمرار. أنت لا تريد أن تتذكرنا، فتجلس مستغرقاً مسترخياً لأنه يجب عليك العودة إلى أطفالك. إلى متى تظن أني سأتحمل؟ ومن تظنني حتى استمر على هذه الحال؟ ماذا تحسبني؟ هل أنا خادمة حتى آكل من بين يديك؟»».

صرخ سيغموند بها:

«اصمتي، ألا أعرف من تكونين. اصغي إلى نفسك!»».

وفجأة صمتت بياترس. كان صمت غضب أبيض حانق إلى درجة أن سيغموند تملكه الفرح عندما سمع صوتها مرة أخرى. وعندما تحدثت، كان ذلك بنبرة واطئة مرتجفة:

«أيها الجبان التعيس! إذن فأنا المخطئة، وأنا الملومة على كل ذلك. أيها المخلوق التعيس، ليس لدي شك أنك تعرف من أنا!»».

نظر سيغموند إليها بينما كانت كلماتها تتلاشى. ونظرت إليه مرة أخرى بعينين غامقتين مروعتين يشع منهما الحقد. كانت عيناه محمرتين ماكرتين، وفمه مفتوحاً في شبه تكشيرة ممتلئة بالكره والبغضاء. كانت تنخسه في الظلام الذي سحب نفسه إليه مثل كلب مريض كيما يموت أو يستعيد عافيته. ولقد عذبته حتى ابتلع الغضب مرضه، فتألق بسببها محمراً بينما كان يدفع كرسيه لينهض. ومع ذلك، فقد ارتجف كثيراً. سقطت ذقنه على صدره مرة أخرى. وتسمرت بياترس في مكانها عندما سمعت صوت اقتراب أقدام، ثم ارتجفت قليلاً وسكنت عيناها.

دخلت فيرا مع الطفلتين، وتسمرت الفتيات الثلاث في الحال، كما لو أنهن وجدن أنفسهن في مواجهة شيء يهددهن، وعالجت فيرا الموقف بأن سألت في نبرة منزعجة:

«هل انتهيتما من المائدة كي أرتبها؟».

كان كوب أبيها نصف فارغ، فقد نزل متأخراً كي يشرب الشاي بعد أن غادر الآخرون المائدة، ومن الواضح أنه لم يكمله بعد، ولكنه لم يجبها، وكذلك فعلت بياترس. نظرت فيرا بازدراء إلى والدها، بينما تسللت كوين جانبياً صوب أمها، وحاولت أن تبدد سحابة الارتباك فقالت:

«أمي، كانت هناك سيدة بصحبتها كلب، ولقد تسلل الكلب إلى دكان القصاب ولعق اللحم...».

جلست بياترس ساكنة ولم تعرها أدنى انتباه. نظرت الطفلة إليها وانتظرت بعض الوقت، ثم عاودت الحديث برقة:

«أمي، كانت هناك سيدة بصحبتها كلب...».

وصاحت فيرا بنبرة حادة:

«لا تزعجيها».

التفتت الطفلة إلى أختها دَهِشة وممتعضة، بينما فيرا ترفع الأواني عن المائدة بسرعة وتضعها على صينية. استقرت عينا كوين للحظة أو اثنتين على رأس والدها المنحني، ومن ثم، استدارت متعمدة ناحية أمها مرة أخرى، وأعادت في نبرة مقنعة ناعمة جداً:

«يا أمي، لقد رأيت كلباً يدخل دكان قصاب ويلعق قطعة من اللحم، أمي، يا أمي». لم يكن هناك رد من الأم، وتوجهت كوين إلى الأمام ووضعت يدها على ركبة أمها وتوسلت بها مخلوعة الفؤاد:

«أمي».

ولكن ليس هناك رد.

«أمي».

كانت يائسة تماماً. ثم ما لبثت أن وقفت على أطراف أصابع قدميها، وسحبت صدر أمها بيديها الصغيرتين وهمست بصوت ثاقب:

«أمي».

أما أمها، وفي محاولة لنكران الذات، فقد تخلت عن استغلالها للمأساة، وشبكت ذراعيها حول كتفي الطفلة وسحبتها نحوها. اطمأنت كوين بعض الشيء ولكنها لم تقتنع، ورفعت وجهاً جاداً ونظرت إلى وجه أمها جامد القسمات، وبدأت تهمس متوسلة، متملقة ملاطفة:

«أمي، كانت هناك سيدة بصحبتها كلب...».

استدارت فيرا بحدة لتوقف الهمس الذي لم تعد أعصابها تطيقه، ولكن الأم منعتها. ثم أخذت الطفلة بين ذراعيها، وأبعدت وجهها، ووضعت خدها على خد الطفلة، وتركت دموعها تنساب

بحرية. كانت كوين مكتئبة جداً لدرجة البكاء، لذلك تجمعت الدموع على مهل في عينيها، وتساقطت دون أن تحرك عضلة في وجهها.

بقيت فيرا في حجرة غسل الأطباق تمسح دموعها في غضب وأسى وخزي بالمنشفة. كان الصوت الوحيد الذي يسمع في الغرفة هو تنفس بياترس الحاد، بينما جلس سيغموند ساكناً تماماً من دون أثر لأيما حركة ودون أن يتنفس تقريباً. كان رأسه مطرقاً إلى الأسفل، ولم يتجرأ أن يرفعه إلى الأعلى أو يعطي إشارة تدل على وجوده.

وضعت بياترس الطفلة بعد ذلك، وذهبت لتلحق بفيرا في حجرة غسل الأطباق ومن هناك جاء صوت المرأة الواطئ وهي تتحدث بنبرة غاضبة منذرة بالسوء. وتبعت كوين أمها، وكان صوتها الناعم يُسمع، وهي تقول:

«أمي هل أخطأ والدي، ماذا فعل؟».

وصاحت فيرا:

«ليس هذا من شأنك، إنك مخلوقة صغيرة مزعجة. خذي هذا إلى غرفة الطعام وإياك أن تسقطيه».

لم تطع الطفلة بل ظلت واقفة تنقل بصرها بين أمها وأختها، فدفعت الأخيرة الصحن بين يديها وقالت بهدوء وهي تدفع الطفلة إلى الأمام:

«هيا اذهبي».

غادرت كوين ثم ترددت قليلاً في المطبخ. كان والدها مايزال ساكناً، وتمنت الطفلة أن تذهب إليه وتتحدث معه، ولكنها كانت خائفة. اجتازت المطبخ ببطء وهي تحضن الصحن، ثم عادت ببطء مترددة، ومشت جانبياً صوب المطبخ، واستدارت من حول المائدة بوصة بعد بوصة، مقتربة قليلاً قليلاً من والدها، ثم توقفت على

مسافة ذراع من كرسيه. أما هو، فقد كان يستطيع من تحت حاجبيه أن يرى قدميها الصغيرتين في نعليها البنيين، وهي تنتظر متحركة بعصبية بالقرب منه، فلملم شتات نفسه مثلما يفعل امرؤ يراقب مبضع الجراح معلقاً فوق جرحه. هل ستتحدث الطفلة إليه، هل ستلمسه بيديها الصغيرتين؟ أمسك أنفاسه، وبدا كما لو أنه يمسك قلبه عن الوجيب. لم يكن يعرف ما يجب أن يفعله!

انتظر في دوامة القلق، بينما الطفلة تراوح بين قدم وأخرى. كان بإمكانه أن يرى هدب سروالها التحتي الأبيض. لقد أراد، أكثر من أي شيء آخر، أن يأخذها بين ذراعيه، أن يحصل على أي شيء يخفي وجهه فيه. ومع ذلك كان خائفاً. وفي الكثير من الأحيان، وعندما ينقلب العالم ضده، كان يجدها ممتلئة بالحب، ولقد اعتاد أن يخفي وجهه في جسمها بينما تنام بين ذراعيه مثل قطة بلون زهر التفاح. آه، لو أنها تأتي إليه الآن، وتوقف قلبه قلقاً مرة أخرى - ولم يكن يعرف ماذا سيفعل. لعلها ستفتح ورم ألمه. وكان يرتجف بشدة تواقاً كي يعرف ما يخشاه وما يراه وما يأمل فيه.

صاحت فيرا متسائلة عن أسباب تأخرها:

«كوين! كوين!».

وأجابت الطفلة:

«نعم».

ورأى سيغموند قدميها ترتفعان وتترددان وتتحركان ثم تستديران.

لقد ذهبت! وهبطت لهفته بسرعة، وعاوده المرض على نحو أقسى، وأصبح أشد رعباً، وأكثر عرضة للتعب من أي وقت مضى. وللحظة واحدة كان الأمر من السوء بحيث خشي معه أن يفقد وعيه.

عندما تحسن قليلاً، استجمع نفسه وصعد إلى الطابق الأعلى. كانت قبضتاه قد أطبقتا بإحكام وأغلقت أصابعه على إبهاميه حتى هرب الدم منهما. ثم استرخى على السرير.

ولساعتين ظل متمدداً في حالة ذهول يشبه النوم. وفي النهاية ابتدأ وعيه يلح عليه بشدة بأنه يجب أن يقابل هيلينا كما وعدها. وكانت تلك فعالية منفصلة عن رغبته أو وعيه ابتدأت تهزه وتوقظه.

عند الساعة الثامنة نهض سيغموند من الفراش، وأدهشه ألم متشنج في إبهاميه، فتفحصهما على نحو آلي ثم أغلقهما مرة أخرى تحت أصابعه بالوضع ذاته الذي بدأ يناسبهما بعد ساعتين من الكبت المشابه. وفتح سيغموند قبضتيه مرة أخرى مبتسماً وقال لنفسه:

«يقال إنها من علامات الشخصية الضعيفة المخادعة».

كان رأسه مخدراً على نحو غريب، وكان يحسه ثقيلاً من الخلف كما لو أنه قد بطّن بالرصاص. ولم يستطع أن يفكر إلا بجملة واحدة منفصلة على فترات، وبينها كان يشعر بنوع من الفراغ الذي يشبه النوم الرمادي أو الإغماء، فقال لنفسه:

«يجب أن أذهب وأقابل هيلينا في ومبلدن».

وفي الحال أحس بمتعة غريبة كما لو أنه قد ضحك في مكان ما في داخله. وتمتم مع نفسه:

«ولكني يجب أن أكون مستعداً، لا يمكنني أن أخيب ظنها».

بعثت فكرة مقابلة هيلينا فيه الرغبة في الراحة. ود لو أنه يقول لها:

«لا تذهبي بعيداً عني، بل تعالي معي إلى مكان ما». عندها ربما يستطيع أن يسترخي إلى جانبها، وربما ستضع يديها على رأسه، لو أنها تستطيع أن تأخذ رأسه بين يدها ـ لأن لديها يدين

ناعمتين حريرتين، تستكينان بضغط خفيف، وتغلفان ضعفه بالحياة - عندها لشفي رأسه بالتدريج، ولاستطاع أن يرتاح في النهاية. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يعيد إليه الحياة، فتريحه بنبلها الصبور الذي لا يعرف الكلل، ولقد تاق بكل معنى الكلمة إلى يدي هيلينا وهدوئها، وقال يخاطب نفسه، محملقاً في منامه مثل رجل مخمور:

«لكن هذا لا ينفع! ما الساعة الآن يا ترى؟».

كانت الساعة التاسعة إلا عشر دقائق وستكون هيلينا في ومبلدن الساعة العاشرة وعشر دقائق. هذا هو الوقت الذي يجب أن يكون مستعداً فيه. ومع ذلك بقي جالساً في السرير، وقال لنفسه:

«لن أنسى مرة أخرى، ولكني لا أريد الذهاب، فما الفائدة من ذلك؟ يجب أن أرتدي قناعاً في هذا اللقاء، وهذا فوق ما أطيق».

ثم انتظر وانتظر، وسقط رأسه إلى الأمام في نوع من النوم، وفجأة جفل متيقظاً إذ كانت مؤخرة رأسه تؤلمه بشدة. وقال يخاطب نفسه:

«يا إلهي، لقد ابتدأت الدنيا تظلم بسرعة!».

وكانت الساعة العاشرة إلا ثلثاً!

اندفع مرتبكاً إلى غرفة الحمام ليغتسل في ماء بارد يعيد إليه إحساسه. كانت يداه متقرحتين، ووجهه ملتهباً بضربة الشمس. ارتدى ملابس أنيقة كما هي عادته، وعندما انتهى كانت الساعة العاشرة إلا عشر دقائق. سيتأخر كثيراً، فقد كان الجو مظلماً تماماً، رغم أن تلك النهارات البراقة كانت تبدو أبدية. وتساءل فيما إذا كان الأطفال في الفراش رغم أن الوقت متأخر جداً لمثل هذا التساؤل.

أسرع نازلاً وتناول قبعته. وبينما كان يمشي في الممر، فُتح باب من خلفه بسرعة، وركضت فيرا وهي تصرخ:

«هل أنت خارج، إلى أين ذاهب؟».

وقف سيغموند صامتاً ينظر إليها وقال لنفسه وهو يبتسم متهكماً إنها خائفة!

«ذاهب في جولة، يجب أن أذهب إلى ومبلدن، ولن أتأخر كثيراً».

فردت فيرا بنبرة حادة ممتلئة بالشك:

«ومبلدن، في مثل هذه الساعة؟».

«نعم، أنا متأخر وسأعود بعد ساعة».

كان متأسفاً من أجلها، ولقد عرفت بأنه قد أعطاها وعد شرف.

قالت له:

«لا داعي أن تتركنا يقظين في انتظارك».

لم يجبها بل أسرع إلى المحطة.

الفصل السادس والعشرون

تسلقت هيلينا ولويزا وأولِف درجات السلم حتى يذهبن إلى محطة انتظار قطار الجنوب الغربي، وهن محملات بسلال الملابس والمظلات والرزم الصغيرة. وكانت أولِف ولويزا على الأقل تتمتعان بمعنويات طيبة. توقفت أولِف أمام جدول مغادرة القطارات وأعلنت بنبرتها الرنانة:

«سيصل القطار القادم من واترلو الساعة العاشرة والنصف، والساعة الآن العاشرة واثنتا عشر دقيقة».

فردت هيلينا قائلة:

«سنأخذ قطار العاشرة وأربعين دقيقة، إنه الأفضل».

فاستدارت أولِف وهي تنظر إليها بطريقة ماكرة وقالت:

«حسن جداً يا عزيزتي. لقد علمت أن ثمة مراسيم توديع يجب أن نؤديها، إننا نتعاطف يا عزيزتي، ولكننا نأسف للأمر، فالشروع بالعطلة يمثل دائماً كرباً طويلاً، ولكني قوية بدرجة كافية كي أتحمله».

وصاحت لويزا بطريقة لعوب:

«إنك تبدين أهلاً للأمر. إذ يبدو كما لو أن بإمكانك مصارعة ثور».

فردت أولِف بنبرتها الجهورية:

«لا يغرنك مظهري يا عزيزتي لويزا. إنك تنخدعين به بالتأكيد، فحالتي ينطبق عليها قول الشاعر:

«إن ذروة فرحها هي عندما تكون حزينة

وذروة حزنها هي عندما تكون سعيدة».

ثم تلفتت من حولها لترى تأثير ذلك. أما هيلينا التي كان من المتوقع أن تقول شيئاً فقد أكملت الشعر بطريقة ساخرة:

«... وأن هذا لا شيء بالقياس إلى جنونها!».

وهتفت أولِف مضيفة:

«لاسيما عندما تكون ذاهبة لقضاء عطلتها يا عزيزتي».

وصاحت لويزا:

«استمري بجنونك».

«ماذا؟ ألا يعجبك الأمر؟ اعتقدت أنك ستشكرين السماء لأنها أعطتني جرعات كبيرة من العقل».

ضحكت لويزا وقالت:

«... وجرعات صغيرة من العطل. لا، أنا أحب جنونك إذا كنت تسمينه جنوناً، فأنت جادة تماماً».

وأعلنت أولِف:

«ليس من اللياقة التحدث عن حبال المشانق في بيت المشنوق يا عزيزتي».

قالت ذلك وتلفتت من جانب لآخر وهي تحس بالانتصار، وابتسمت هيلينا معترفة بالمفارقة في الأمر.

وقالت لويزا وهي تبتسم بقلق:

«ولكني لا أستطيع أن أتبين الأمر، ما المشكلة؟».

فردت أولِف:

«لكي أكون واضحة يا عزيزتي، أعتقد أنك لست عادلة تماماً حين تتهميني بالحزن والجدية من بيننا نحن هذا الثلاثي!».

ضحكت لويزا وهزت رأسها بينما أضافت أولِف:

«فكري في الأمر، ألا ترينه كذلك؟».

تنهدت هيلينا وهبطت من الرصيف. كان قلبها ينبض مهموماً حتى أصبح التنفس عليها عسيراً، وكانت مصابيح المحطة معلقة على نحو واطئ مشكلة سقفاً من الحرارة والضوء المغبر اختنقت تحته. وللحظة أحست بالهستيريا وكان إحساسها مشابهاً لما نشعر به عندما يدهمنا المرض في ليل صيفي حار، كما لو كان سيصيبها الجنون حقاً، وكانت متلفعة ببطانية صوفية رمادية وقد كتمت الحرارة أنفاسها. لقد تأخر سيغموند، فالساعة الآن العاشرة وخمس وعشرون دقيقة، وعندما اتجهت نحو غرفة التذاكر، وصل سيغموند إلى المنصة وقال لها:

«ها أنذا... أين لويزا؟».

أشارت هيلينا إلى المقعد من دون أن تجيب. كانت تنظر إلى سيغموند الذي كان مشدوهاً بتأثير اللحظة، بحيث أنها لم تستطع فهمه فأضافت:

«أولف هناك أيضاً».

توقف سيغموند ساكناً محملقاً حتى يرى المرأتين الأخريين الجالستين وسط سلال الملابس الخيزرانية الشاحبة والسجادات ذات الألوان الغامقة. ولقد جعل وجود المرأة الغريبة الأمور أكثر تعقيداً.

وسألها:

«أتعرف صديقتك الأخرى الأمر؟».

فردت هيلينا بنبرة واطئة بينما كانت تقوده إلى الأمام كي تقدمه لهما:

«إنها لا تعرف شيئاً».

وردت أولِف بصوت رقيق جداً:

«مرحباً، أحذر البواسل الثلاث وأشراكهن. أتود التفرج على مغامراتنا؟».

فأجاب سيغموند مبتسماً:

«سأفعل، لأني قد لا أفعل شيئاً أكثر». ثم أضاف قائلاً:

«وكيف حال الأخت لويزا؟».

فصاحت لويزا منتصرة متشفية:

«إنها بخير جداً. شكراً لك، لقد جاء دورها الآن».

كان هناك نوع من العداء الخفي في موقفها تجاه سيغموند باستمرار. ولقد فهم ذلك وابتسم لعدوانيتها، لأن الاثنتين كانتا صديقتين حميمتين.

«دورك الآن!».

أعاد الكلمة مبتسماً ثم أدار وجهه.

ابتعد متمشياً مع هيلينا على المنصة وسألها:

«كيف وجدت الأمور في البيت؟».

أجابت غير مكترثة:

«كالمعتاد، وأنت؟».

أجابها:

«الشيء نفسه».

ثم فكر للحظة أو اثنتين وأضاف:

«الأطفال أكثر سعادة من دوني».

واحتجت هيلينا بتعاسة:

«يجب ألا تقول شيئاً كهذا. إن ذلك ليس صحيحاً».

فأجابها:

«لا بأس يا عزيزتي». ثم أضاف بعد توقف قصير: «طالما أنهم سعداء. ولكني لست على ما يرام الليلة».

ضغطت هيلينا بشدة على ذراعه. وكان قد وصل إلى نهاية المنصة. فتوقف هناك يتأمل الأفق الذي أصبح أشد ظلمة تحت ضباب الأضواء. كان ثمة حشد من أضواء الإشارة الحمراء العالية المعلقة في الأعلى، وفي البعد هناك أيضاً شبكة من مصابيح الإشارة الخضر والحمر البراقة التي تبدو مثل برق مرتجف يهبط من تفجر صاروخ في السماء. ثم قَدِم قطار بتوهجه الدافئ المنبعث من عمود الدخان السميك وهو يجأر صوب العاشقين. أحسا بالحواجز الصفر لشبابيك العربات تندفع متذبذبة أمام وجهيهما. واهتزت الأرض وارتجف الهواء. عندها استدار سيغموند حتى يراقب الأضواء الحمر والخضر في مؤخرة القطار، وهي تتضاءل تدريجياً في الظلام، وبينما كان يحملق في المسافة التي خلفها القطار المبتعد قال لها:

«أريدك أن تعديني يا عزيزتي بأنه مهما حدث لي فإنك يجب أن تواصلي الحياة، وتذكري أن خطأين لا يمكن أن يصنعا شيئاً صحيحاً».

واجهته هيلينا مروعة تنظر في عينيه، ولكنه كان في الظل

ساعتئذ، فلم تستطع أن تتبينه، غير أن نبرة صوته الرتيبة كان ينقصها الرنين ـ النبرة الميتة الخرساء ـ ولقد جعلتها تكاد تفقد عقلها. فحملقت فيه مرعوبة. وسألته بحدة:

«ماذا تعني؟ ماذا حدث؟ هل حدث مكروه لك؟ أحدث شيء ما في البيت؟ وما الذي تنوي فعله؟».

كانت تنبض بالرعب، لأنها أحست وللمرة الأولى بأنها عديمة الحيلة، وأن سيغموند بعيد عن متناولها. كانت خائفة منه. وأفلت من قبضتها وقال مجهداً.

«لا شيء جديداً قدر تعلق الأمر بالبيت، أقسم على ذلك».

كان عليه أن يجلد بسوط العاطفة مرة أخرى فأضاف:

«كما أني لم أقرر بعد، ولكني لا أستطيع التفكير في الحياة من دونك، وإن الحياة يجب أن تستمر».

قالت بحنق وهي تستدير نحوه:

«وأنا أقسم بأني لن أعيش يوماً واحداً من بعدك».

حنى سيغموند رأسه، فها هو ربيع عاطفته الميت يسخن وينتفخ حاراً مرة أخرى! عندها قال بصوت يكاد يكون غير مسموع:

«لا تتحدثي معي بهذه الطريقة يا عزيزتي، فقد فات أوان غضبك. وعندما يغادر قطارك الليلة فلن يبقى منك أي شيء!».

نظرت إليه هيلينا خرساء من الرعب، متبلدة غاضبة، ثم سمعا أصوات الحمالين وهم يصرخون بصوت عال بأن قطار واترلو سيغادر من منصة أخرى.

قال سيغموند وهو يسرع باتجاه لويزا وأولِف:

«من الأفضل أن نسرع».

وصرخت لويزا وهي تركض إلى الأمام معلنة الأنباء بإشارة من يديها:

«يجب أن نغير المنصات».

فأجابت هيلينا شاحبة وجامدة:

«نعم»، بينما حمل سيغموند الحقائب.

وصرخت أولِف وهي تندفع كي تمسك بهيلينا ولويزا من الذراع:

«انظرا... انظرا إلى تلك القبعة».

كانت هناك سيدة في المقدمة، تضع على قبعتها صفاً غريباً وأشعث من ريش الطاووس. وأضافت أولِف بصوت أجش:

«إنه منظر العمر، لن ادعه يفلت منكما!».

فقالت هيلينا وهي تستدير في سخط متوحش كي تنظر إلى السيدة:

«بالتأكيد لا. متعي بصرك يا أولِف، ودعينا نحصل على انطباع ذهني جيد يلازمنا طول العمر».

فقالت أولِف جاهلة سبب هذا الانفجار:

«هذا صحيح يا عزيزتي!».

حمل سيغموند أثقل حقيبتين. وكان بإمكانهن أن يرينه أمامهن متسلقاً درجات السلالم. حولت أولِف نفسها من الوضع المفعم بالحيوية إلى السخرية الهادئة، وقالت وهن يسرعن في مؤخرة الحشد:

«على كل حال يا عزيزتي. ليس شيئاً رديئاً على الإطلاق أن نحصل على رجل». وضحكت لويزا بصوت عال من هذا التصور العامي لسيغموند. واتفقت لويزا معها قائلة:

«الآن على الأقل»...

عندما وصلوا المنصة، مر القطار من أمامهم. وبحثت هيلينا بقلق عن عربة فارغة ولكنها لم تعثر على واحدة، وفكرت مع نفسها:

«ربما ذلك أفضل. إننا لا نحتاج أن نتحدث، فهنالك ثلاثة أرباع الساعة حتى نصل إلى واترلو، فإذا كنا لوحدنا فإن أولِف ستجبر سيغموند على الحديث».

وجدت عربة فيها أربعة أشخاص فاحتلتها بسرعة. وتبعها سيغموند بالحقائب التي وضعها على الرف، ومن ثم تناول بسرعة السجاجيد والمظلات والأمتعة من المراتين الأخريين ووضعها جميعاً على المقاعد أو في مكان آخر، بينما هيلينا تقوم بترتيبها. ولقد شغلها ذلك للحظة أو اثنتين وامتلأت بالخوف ودخل ناس آخرون كانت أمتعتهم متنافرة جداً كي ترتَّب.

عندما استدارت من حولها، وجدت لويزا وأولِف جالستين، ولكن سيغموند على المنصة في الخارج والباب مغلق. رأى وجهها يتقلص كما لو أنها ستصرخ ولكنها كبحت نفسها ونادته في الحال:

«ألست قادماً معنا؟ ألا تأتي إلى واترلو؟».

ولكنه هز رأسه بالنفي وقال لها:

«لا أستطيع القدوم».

وقفت تنظر إليه مشدوهة بعض الوقت، غير قادرة على الوصول إلى الباب بسبب حقيبة سفر مثبتةٌ عليها بعض المظلات والقضبان تجثم على القاع بين رجلها وبقية الركاب. كانت عديمة الحيلة وكان الهذيان يغشي ذاكرة سيغموند.

«أوه، اذهبي، اذهبي، متى ستذهب؟».

لم يكن يستطيع تحمل شفقتها، وكان وجودها يجعله يشعر بالجنون.

وسألها رجل برقة:

«أتودين أن تأتي قرب الشباك؟».

ابتسمت هيلينا فجأة باتجاهه من دون أن تعي ما تفعل. وسحب الرجل حقيبة السفر تحت رجليه وتقدمت هيلينا إلى الأمام. وقفت قرب الباب منحنية إلى الأمام برقة محتفظة بنبلها القديم المتحفظ. كانت لطيفة ومتحفظة. انحنت إلى الأمام تنظر إلى سيغموند، ولكن وجهها بدا فارغاً بسبب التعاسة والاندهاش. وقفت تنظر إليه غير قادرة على أن تقول شيئاً. كان جبينه مسفوعاً بالشمس ومنتفخاً. ولاحظت بأسى أن الجلد كان متقرحاً تحت إحدى عينيه أيضاً. وكانت عيناه حمراوين ومكسوتين بنوع غريب من اللامبالاة، وقد ملأها ذلك بالرعب.

نظر إليها لأنها أرادت ذلك، أما هو فلم يكن يستطيع رؤيتها. كل ما يستطيعه هو أن يبتعد عنها، ولقد كان كل ما تمناه هو أن يخفي نفسه وحيداً في الظلام. ومع ذلك، فقد أرادته واستجاب هو إلى هذا الحد، ولكن الذهاب إلى واترلو أمر لا يطيقه.

انزعج الناس في العربة من هذا الوداع الغريب الأخرس، ومرت بضع لحظات متوترة من الصمت. ولم يتملك أحد القوة ليقطع هذه المسافات من الحزن القَلِق. وفي النهاية صفر الحارس، وتشابكت يدا هيلينا وسيغموند، وانساب تدفق دافئ من الحب، وتغلب حزن معافى على سيغموند للمرة الأخيرة.

بدأ القطار بالحركة ساحباً يد هيلينا منه وهمست:

«الاثنين».

«الاثنين!».

وكانت تقصد أنها ستستلم رسالة منه يوم الاثنين القادم. هز رأسه ثم استدار متردداً؛ نظر إليها واستدار، ثم اختفى بعيداً بينما بقيت في الشباك تراقبه وهو يغادر، وقالت أولِف في نوع من الهمس:

«والآن يا عزيزتي بقينا بدون رجل».

ولكن محاولتها في التنكيت سقطت ميتة. كان الجميع صامتين ومنزعجين.

الفصل السابع والعشرون

أسرع هابطاً المنصة، جافلاً في كل خطوة من ذكرى منظر هيلينا الأخير، وتوقها المهموم الأبكم. شد قبضتيه حتى ارتجفتا، وانسحق إبهاماه مرة أخرى تحت أصابعه. ومثل صورة مرسومة على قماش أمامه، كان ما يزال يرى وجه هيلينا أبيض مدوراً بملامح بكماء جامدة تماماً، أضفت عليه عيناها الحزينتان المتوسلتان بصمت المزيد من الأسى.

فكر بها وهي تبتعد وتبتعد، صامتة عند شباك العربة تنظر إلى الخارج عبر الليل، مندفعة غرباً فغرباً باتجاه أرض اسولد. وانتابت سيغموند أشياء أشبه بالهذيان، ولم يكن يعرف إلى أين يسرع، وكان وجه هيلينا أمامه دائماً، كما لو أنه مرسوم على قماش، وفي مكان ما، خلف القماش، كانت كورنويل تبدو مثل مكان منعزل بعيد حيث يهبط الظلام بشدة. وفي بعض الأحيان، يرى شبحاً صغيراً معتماً بعيداً جداً في ظلام كورنويل، ثم يطل وجه هيلينا أبيض جامداً مثل قناع، بعينين مهمومتين، بينه وبين الشبح.

وكاد يجفل عندما وجد نفسه في رواق بيته. فتح الباب وتذكر بأنه سمع صوت أقدام سريعاً مكتوماً، ولقد كانت فيرا. ألقت نظرة عليه بيد أنها لم تقل أي شيء. لقد جفلت منه غريزياً، ومر من دون أن يلحظها، بينما وقفت على سجادة الباب محاولة إقفاله، باحثة

عن شيء تقوله، ثم قالت، وقد انزعجت أكثر عندما اكتشفت بأن صوتها يرتجف، ولم تكن تعرف سبب ذعرها:

«لقد مر أكثر من ساعة على خروجك».

ورد عليها:

«نعم».

واتجه إلى غرفة الطعام، ورمى بنفسه على كرسيه، ورأسه بين يديه، ثم تبعته فيرا بعصبية وسألته:

«هل تريد شيئاً ما لتأكل؟».

نظر إلى المائدة كما لو أن العشاء الموضوع هناك كان غريباً وغامضاً. وأظهرت الطريقة الهذيانية التي رفع بها جفني عينيه، بؤبؤيه المظلمين وبياض عينيه المشوب بحمرة الدم. أمسكت فيرا أنفاسها من الخوف. وأنزل سيغموند رأسه مرة أخرى من دون أن ينبس ببنت شفة. جلست فيرا وانتظرت، ومرت الدقائق ببطء ولكنه لم يتحرك أو يتحدث. وفي النهاية دقت الساعة معلنة منتصف الليل. وكانت فيرا متعبة من النعاس ومتبرمة من الانزعاج وسألته:

«ألا تذهب إلى الفراش؟».

سمعها سيغموند دون أن يعيرها انتباهاً. كان يبدو أنه سمع بنصف سمعه. فانتظرت فيرا للحظة ثم أعادت السؤال بطريقة جافة.

«هل ستذهب إلى سريرك يا أبي؟».

رفع سيغموند رأسه، ونظر إليها. لقد كره فكرة أن يتحرك، ولكنه نظر إليها مرتبكاً وقال:

«نعم، أنا ذاهب».

ثم سقط رأسه مرة أخرى. كانت فيرا تعرف أنه لم يكن نائماً،

ولكنها لم تتجرأ على تركه دون أن يذهب إلى غرفة نومه، فجلست تنتظره مرة أخرى ثم ما لبثت أن صرخت في النهاية:

«أبي».

فحملق فيها ممسكاً بذراعي كرسيه مرتجفاً:

«نعم. أنا ذاهب».

نهض وصعد مترنحاً إلى الطابق العلوي وتبعته فيرا في الحال وهي تفكر مع نفسها: «إذا سقط وتدحرج إلى الخلف فإنه سيقتلني». ولكنه لم يسقط. وبحكم العادة توجه إلى غرفة الحمام، وبينما كان يحاول أن يفرّش أسنانه، أسقط فرشاة الأسنان على الأرض، فقال لنفسه مستمراً في هذيانه:

«سألتقطها في الصباح، يجب أن آوي إلى فراشي، يجب أن آوي إلى فراشي، أنا متعب جداً»، ثم تعثر فوق سجادة الباب داخلاً إلى غرفته.

كانت فيرا تقف خلف باب غرفتها، فسمعت صوت سقاطة بابه، ووصلها صوت الماء الذي ما يزال يجري في غرفة الحمام وهو يقطر مُصْدراً صوتاً غريباً في جوف الليل البهيم. استجمعت شجاعتها وذهبت لتغلق صنبور الماء، ثم وقفت مرة أخرى في غرفتها كيما تكون قريبة من تنفس أختها النائمة، مصغية لما يفعل. خلع سيغموند ملابسه بسرعة، وكان هاجسه الوحيد هو الذهاب إلى الفراش. قال محدثاً نفسه وهو يسقط ملابسه على الأرض:

«على المرء أن ينام».

ولم يكن يستطيع الاهتداء إلى طريقة لارتداء سترة منامته، ولقد جعله ذلك يلهث تعباً. إذ كان أي شيء مهماً كان صغيراً يعيق

أو يعترض تصرفه الآلي يزيد من مرضه، حتى عقله كان على وشك الانفجار. تمكن من ترتيب الأمور في النهاية، وأصبح في فراشه.

وفي الحال سقط في نوع من الغيبوبة التي كان يسميها نوماً. ولكن الأمر لم يكن كذلك. وطوال الوقت كان يستطيع الإحساس بعقله وهو يعمل دون توقف مثل آلة تتحرك مسرعة دون توانٍ. ثم استمر على ذلك الحال دون أن تقاطعه إلا بضع موجات من الوعي لثلاث أو أربع ساعات، وفي كل مرة يعاوده فيها بصيص من الوعي كان يتساءل فيما إذا كان يُصدر أي ضوضاء. ما أنا فاعل؟ ما الأمر؟ هل أنا فاقد للوعي؟ هل أصدر أي ضوضاء؟ هل أزعجهم؟ كان يتساءل ويحاول أن يتذكر كيما يجد سجل انطباعه الآلي. اعتقد أنه يستطيع تذكر أصوات الهمهمة الخرساء في حنجرته. وفي الحال تذكر أنه يستطيع الإحساس بحنجرته وهي تصدر الأصوات، ولقد أخافه ذلك... وفوق كل شيء كان خائفاً من إزعاج عائلته. نهض لكي يصغي. كان كل شيء يتنفس بصمت. وبينما هو يصيخ السمع إلى الصمت غاب مرة أخرى في نوع من النوم الخاص به.

عندما استيقظ في النهاية على صوت تنفسه، كانت درجة حرارته مرتفعة على نحو مرعب، إذ أن الوسادة وشراشفه وشعره بدت جميعها وكأنها تصدر نوعاً من البخار الحار، بينما كان جسده غارقاً في العرق. ثم ابتدأ النور بالظهور. وفي الحال أغلق عينيه مرة أخرى واستقر ساكناً. لقد أصبح واعياً الآن، ونَشِط عقله على نحو مزعج، ولكن جسده كان شيئاً مستقلاً ومضجراً وثقيلاً وحاراً، لا يسيطر عليه إلا قليلاً.

تمدد سيغموند ساكناً، وعيناه مغلقتان متحملاً العذاب الشديد الناتج من انسياب قطرات العرق. كانت القطرات تتجمع أولاً ثم تجري وتشق طريقها المتعرج بلهفة باتجاه تجويف العنق. وراحت أعصابه جميعاً ترتجف بفعل ذلك. ومع ذلك أحس بأنه لن يستطيع

الحركة أكثر من أن يشنج حنجرته قليلاً. وبينما كانت الأعصاب الممتدة في طريق قطرة العرق ترتجف بحساسية شديدة، كانت قطرة أخرى تبدأ من الجانب الآخر من صدره، وتجري نحو الأسفل على العضلات الصغيرة لجنبيه حتى تقطر على السرير. كانت حركتها مثل مشية عنكبوت فوق جسده الحساس الساكن. لماذا لا يمسح نفسه؟ لم يكن يعرف السبب. تمدد ساكناً متحملاً هذا التقطير المزعج الذي يبدو أنه يلسعه في الأعماق بدلاً من أن يبذل جهداً ليتحرك، فقد كره أن يفعل ذلك، وسقطت قطرات من جبهته على صدغيه، وهي قطرات لم يعرها اهتماماً لأنه كان متبلد الإحساس في ذلك الموضع من جسده. ولكنه جفل مرة أخرى في تشنجات شديدة صغيرة على جانبي صدره وتحت إبطيه وأسفل جوانب فخذيه الداخلية، حتى بدا وكأن هنالك حشداً من الحشرات يدب فوق جسده الحساس الرطب الحار. كانت أعصابه ترتجف كلها بالغضب والقلق المفعم، وأصبح الأمر لا يطاق بالنسبة إليه. أحس لو أنه تحمل ذلك للحظة أخرى فإنه إما أن يصرخ أو يختنق أو ينفجر.

جلس في فراشه بسرعة، ورمى الشراشف فخرجت منها نفحة بخار حادة، وبدأ يمسح جنبيه ورجليه بمنامته. مسح بجنون لبضع لحظات ثم تنهد بارتياح. جلس على جانب الفراش مبتعداً عن الرطوبة الحارة حيث كان يستلقي.

وللحظة فكر في أن يستغرق في النوم. ولكن عقله بدأ يطرق طرقات اليقظة في الحال. جلس ساكناً، كارهاً أكثر من أي وقت مضى أن يتحرك. ولكن عقله لم يعد مشوشاً بضباب حار بل كان صافياً. جلس منحنياً إلى الأمام على جانب السرير، وسترة منامته مفتوحة، وتسلل الفجر إلى الغرفة، واندفع هواء الصباح العليل عبر الشباك المفتوح على مصراعيه. أحس بشعور غريب بالذنب والخطأ لأنه قفز بهذه الطريقة من سريره، كما لو أن المفروض أن

يتحمل حرارة جسده والجريان الجهنمي لقطرات العرق. ولكن عندما فكر في الأمر حرك يديه ممتناً فوق جنبيه اللذين كانا جافين وناعمين وهشين وباردين قليلاً على سطح الجلد، ربما لأنه أحس فجأة برجفة من تماس جسده الدافئ مع يديه.

جلس سيغموند في الباب المؤدي إلى الشرفة الصغيرة، كان الهواء بارداً عذباً، وتحسس صدره ليتأكد أنه ليس دبقاً، فكان ناعماً مثل الحرير. ولقد سره ذلك كثيراً. نظر إلى الليل في الخارج مرة أخرى وجفل. ففي مكان ما كان القمر يشرق في جزء مخفي من السماء، لكن مقابله تماماً في الشمال الغربي هناك ضوء صامت مرتعش. انتظر، متقطع الأنفاس، ليتأكد من حقيقة ما رآه. ومرة أخرى قفز الضوء الشاحب إلى قمة الليل المتراجع مثل طير أبيض يخفق بقلق على عشه.

ابتدأ الليل ينقشع ويشحب متحولاً إلى لون رمادي. والضوء مثل طير، كان المفروض أن يكون قد طار قبل أن يتحرك ذراع النهار على عشه في أغصان الظلام. فرفع نفسه وحرك جناحيه الشاحبين بسرعة وهبط مرة أخرى، كارهاً أن يطير. راقب سيغموند ذلك بدهشة ومتعة.

كان النهار يدفع أغصان الظلام جانباً باحثاً عن القمر المسكين الذي سيصطاده عندما تلقى الشبكة. وخرج سيغموند إلى الشرفة كيما يراقب ذلك. وهناك كان القمر مثل فأر أبيض بائس، نصف قمر جاثم على تلة في طريقه، وهو سيتسلقها نحو المنحدر الغربي حيث يسقط هناك في الشبكة، وستضحك الشمس مثل قطة كبيرة صفراء وهي تمزح مع ضحيتها بمخالبها البراقة، وقبل أن يقوم القمر بركضته الأخيرة اضطجع جاثماً نابضاً. وزحفت الشمس إلى الأمام ضاحكة وهي ترى ضحيتها عاجزاً عن الهروب. وقفز الضوء، مع ذلك، من العش، مثل طير قرر أن يذهب ويطير بعيداً. ولم يعد سيغموند يراه وهو يفتح ويغلق جناحيه بتردد وسط

فوضى الفجر، وبدلاً من ذلك كان هناك تدفق من نور، فقد اختفى الضوء الأبيض وارتفعت فراشات شروق الشمس وغروبها بنفسجية اللون من حقول الظلام، ورفرفت واطئة في السحب، وفي الغرب أيضاً طارت حشود وردية نحيفة ما لبثت أن انفصلت متباعدة وحلقت في الأعالي. بعضها يرتفع إلى الأعلى فيصبح ذهبي اللون، وبعضها يصبح بلون الذهب المورد عندما يطير صوب القمر. ومثل القمر الذي يشبه الفأر من الذعر. وفي الحال اختفت الفراشات البنفسجية تاركة امتداداً قرمزياً مثل حقل من الخشخاش في المستنقعات، ومثل ريح كان ضوء النهار يهب من الشرق، نفحة بعد أخرى، مالئاً بالبياض الفراغ الذي كان الليل يحتله. جلس سيغموند يراقب آخر ساعات الصباح وهي تهب عبر حقول الظلام حتى انكشف العالم كله، وأصبح القمر مثل فأر ميت يطفو على الماء.

وعندما هتفت بضعة طيور في ذلك الصباح من أيام آب، وأنهت الديكة صياحها، واستيقظت همسات الفجر، ارتجف سيغموند بائساً، وأحس بالتعب مرة أخرى. ومع ذلك كان يدرك أنه غير قادر على العودة إلى النوم، فقد كان الفراش يرفضه. جلس في كرسيه عند الباب المفتوح متحركاً بقلق. لماذا يكون النوم ألماً وقلقاً؟ استدار وتأرجح في كرسيه وسأل نفسه وهو يطل على الصباح في الخارج:

«أين هيلينا؟».

كان كل شيء في الخارج وهمياً مثل صندوق الدنيا. وكانت هيلينا ممثِلة في مكان ما في بريق ذلك المنظر. وكان هو الوحيد الذي بقي خارج المشهد. تنهد بنكد ضاغطاً كتفيه إلى الخلف كما لو أنه يتألم، ولقد آلمه ذراعاه بشدة أيضاً، بينما رأسه يبدو وكأنه يهسهس بنزق غاضب. ولفترة طويلة جلس وأسنانه مطبقة، كابحاً نفسه بقوة. وفي حالة الانزعاج هذه كان كل شيء يحدث لعقله

يؤججه بالكره أو الازدراء، هيلينا والموسيقى، ورفقة أصدقائه، وشروق شمس الريف، كان كل شيء يعرض نفسه على أفكاره يقابله بازدراء غاضب ويرفضه باحتقار. وبما أن لا شيء يمكن أن يسره أو يثير انتباهه، فإن الشيء الوحيد الباقي هو أن يزيد من هذا الاشمئزاز. أحس كما لو أنه طرف مفصول من جسد الحياة، وتصور في خياله أنه مجرد إصبع منفصل ومنتفخ وعديم اللون يمزقه الألم. وكان السؤال هو كيف يعيد نفسه إلى المفصل؟ كان جسد الحياة بالنسبة إليه يعني بياترس والأطفال وهيلينا والأوبرا الساخرة وأصدقاءه في الأوركسترا، كيف يمكن أن يعيد نفسه مرة أخرى في مفصل مع كل هذه الأشياء؟

كان ذلك أمراً مستحيلاً، كان عليه أن يحمّل نفسه الإذلال نحو أسرته، وذلك أمر مثير للسخرية، إذ يجب عليه أن يهجر هيلينا وهو أمر لا يقوى عليه، وعليه أن يعزف بنشاط ليلة بعد أخرى موسيقى (السويسرية الصغيرة الأنيقة)، وهي موسيقى مملة، وفي النهاية كان كل شيء مملاً ومستحيلاً. حسن إذن. إذا كان الأمر كذلك، فما الذي بقي ممكناً؟ لماذا لا يذهب؟ إذا كانت هذه اليد تعتدي على الأخرى فاقطعها. إن عليه أن يقطع نفسه من الحياة. كان الأمر واضحاً وصريحاً.

ولكن ماذا يحدث لبياترس وأطفاله الصغار من بعده؟ لقد ارتبط معهم بعهد ألا يعرضهم إلى العار. حسن. إن عليه ألا يعرضهم له، ولكن ماذا بعدئذ؟ الاحتقار في البيت، وهجر هيلينا، والموسيقى الساخرة ليلة بعد أخرى. إن ذلك أمر مستحيل ولا يطاق. وسيكون مثل رجل مربوط بحبل لا يقوى على تحرير نفسه. فهو لا يستطيع هجر هيلينا والعودة إلى الحياة الذليلة في البيت، كما لا يستطيع التخلي عن أطفاله والذهاب إلى هيلينا.

إن ذلك مستحيل! عندها بقي باب واحد يمكن أن يفتح في سجن الحياة هذا. نظر سيغموند من حوله في الغرفة. إن

باستطاعته أن يحصل على شفرة أو بإمكانه أن يشنق نفسه. لقد فكر في الأمرين من قبل. أما الآن فلا خيار له. كانت حقيبة السفر تنتصب عند أرجل السرير وحزامها مفتوح. إن حزام حقيبة السفر سيكون مفيداً. إذن ليكن حزام حقيبة السفر!

«لقد حل الأمر. ومن الأفضل أن أكتب إلى هيلينا وأخبرها وأقول لها: إنها يجب أن تستمر. من الأفضل أن أخبرها».

جلس لفترة طويلة مع دفتر ملاحظاته وقلمه بيده، ولكنه لم يكتب أي شيء، وفي النهاية تخلى عن الفكرة وقال لنفسه:

«ربما سيكون ذلك أفضل، لقد قالت بأنها ستأتي معي، وربما سيكون ذلك أمراً مفيداً. إنها ستذهب إلى البحر عندما تصلها الأخبار، وسيأخذها البحر. إن عليها أن تعرف».

أخرج بطاقة تحمل اسمها وعنوانها في كورنويل من دفتره الجيبي ووضعها على منضدته وقال لنفسه:

«إنها ستأتي معي» وأحس بالتحرر في قلبهِ، فأضاف: «إن هذا لجبن».

وظل ينظر بشك إلى البطاقة متسائلاً فيما إذا كان يتوجب عليه أن يدمرها.

«الأمر بيد الله، إن بياترس قد ترسل أو لا ترسل لها خبراً في تنتكال. الأمر بيد الله».

عندها جلس مرة أخرى وخاطب نفسه قائلاً: «ولكن ماذا بشأن الخوف من شيء ما بعد الموت؟» ورد على نفسه قائلاً: «إن ذلك ليس خوفاً، فقد يكون الفعل نفسه مرعباً ومخيفاً، ولكن مسألة ما بعد الموت ليست أكثر من صراع من أجل اليقظة مثلما كنت مريضاً وخائفاً في الأحلام». إننا مصنوعون من مادة تشبه المادة التي تصنع منها الأحلام. جلس سيغموند يفكر في ما بعد الموت،

وبدا الأمر بالنسبة إليه مريحاً بشكل مدهش، وامتلأ بالراحة والاطمئنان والتجدد، ولم يتعرض إلى أية نوبات صوفية، لقد كان متأكداً من رقة الموت المدهشة، رقة وصلت عبر الحياة رغم أنه لا يستطيع استعادة نفسه منها مرة أخرى. كان سيغموند دائماً يؤمن بأن قلب الحياة ينبض برقة نحوه، وعندما يكون ساخراً وعابساً، كان يعرف في الحقيقة أن ذلك هو الجانب الظاهري من الأمر.

إن قلب الحياة عنيد في رقته، فهو قد لا يتأثر بارتعاشات الرثاء، ويواصل التأرجح غير مكترث بصرخات الكرب أو الحقد المتواصلة.

كان سيغموند شاكراً صرامة الحياة، إذ ليس هناك من تردد غير مجد بين الهلاك والرثاء، وبالتالي، فإن بامكانه الاستسلام وامتلاك الإيمان. إذا كان كل رجل يستطيع بصراخه أن يحرف الكون البطيء المجرد، فأي إحساس بالذنب سيتملكه إذا انحرفت الحياة عن مدارها شفقة به، وأي رعب سينتج من ذلك التردد، ومن الذي يتمنى تحمل مسؤولية هذا الانحراف.

وشكر سيغموند الله لأن الحياة قاسية وقوية على نحو يكفي لتسلب كنوزه من بين يديه، وأن تطرده خارج الغرفة، وإلا فكيف يذهب إلى الموت بإيمان. وسيحس بالتحرر غير المجدي لشاب يجد والديه، اللذين يقدمان النصح إليه، أضعف منه، وهمهم مخاطباً نفسه:

«أعرف أن قلب الحياة رقيق، إني لأشعر بذلك، وإلا فإني سأعيش في تحد، ولكن الحياة أعظم مني ومن أي شخص آخر. إننا نعاني ولا نعرف السبب في الغالب، فالحياة لا تفسر ذلك، ولكني أستطيع الإبقاء على إيماني بها مثل كلب يمتلك إيماناً بسيده. على أية حال الحياة رقيقة تجاهي مثل رقتي تجاه كلبي. فأنا أمتلك المقدار نفسه من المتعة، وإن غرضي تجاه كلبي غرض

نبيل، وأنا لا أحتاج إلى أن أيأس من الحياة». وفكرسيغموند بأنه يستحق هزء الملحدين به، فقد كان يتجنب تحمل مسؤولية نفسه محولاً إياها إلى مسؤولية الرب. وقال:

«لا أستطيع فعل أي شيء آخر، وأنا لا أشعر بأني مسؤول عن ذلك».

طلع النهار خلال هذه التجليات، وكان سيغموند واعياً، على نحوٍ مبهم، باستيقاظ البيت. وفي النهاية جفل عندما أصبح على وعي بالوجود الحاضر من خلال صيحات فيرا عند بابه:

«رسالتان لك يا أبي».

نظر من حوله بارتباك، لقد مرت الساعات في نوع من الغيبوبة. ولم تكن لديه أدنى فكرة عن الوقت أو المكان، فأجابها:

«أوه، حسن».

كان دائخاً جداً كي يعرف ماذا عنت. وسمع صوت أقدام ابنته وهي تنزل، من ثم، وبسرعة، عادت نبضات الألم إلى رأسه وذراعيه، والصرير المتنافر لأجزاء جسده وسأل نفسه «يا ترى، ما الذي جعلها تجلب الرسائل لي؟» لقد كان ذلك اهتماماً غير عادي. فأجابه قلبه متجهماً جداً وخجلاً: «أرادت أن تتأكد من أني على ما يرام». ونسي سيغموند كل تنظيراته بشأن حب الخير الإلهي. ولقد تغلب نشاز وضعه الحالي على كل تناسق، ولكنه لم يأخذ الرسائل، بل خاطب نفسه قائلاً:

«هل الوقت متأخر؟ ألم يعد هناك ما يكفي من الوقت».

ذهب لينظر إلى ساعته. كان الوقت الساعة التاسعة إلا ربعاً. وبينما كان يتمشى عبر الغرفة ارتجف، فقد جعل المرض عظامه تؤلمه وكأنها مكسرة، فجلس على السرير مرة أخرى. «ما أنا فاعل؟».

وابتدأ يرتجف عندئذ بسرعة، وتملكه إحساس غريب كما لو أن معدته قد تلاشت، وجعله ذلك يود لو يضغط بقبضتيه على بطنه. وبقي يرتجف كرجل مخمور غير قادر على التفكير أو الحركة. صدرت طرقة أخرى من الباب، فجفل في نوع من الارتجاج. وقالت بياترس بنبرة باردة:

«هذا ماء حلاقتك. الساعة الآن التاسعة والنصف».

فقال لها سيغموند وهو ينهض من فراشه مرتبكاً:

«حسن».

وسألته والاحتقار ما يزال يشوب صوتها:

«في أية ساعة تريد الغداء؟».

فأجابها:

«في أي وقت، فأنا لن أخرج اليوم».

وتفاجأ عند سماعه نبرة صوته الباردة لأنه كان يرتجف بطريقة لم يستطع السيطرة فيها على نفسه، وكان ينشج تقريباً. وفي وضع مرتبك مشوش مرتجف ابتدأ ينفذ غرضه. كان غير واع تقريباً بأي شيء فعله. ولم يستطع إبقاء يديه ثابتتين خلال نوبات الارتجاف العنيفة، كما لم يستطع استعادة ذاكرته ليفكر. كان في حالة من فوضى الارتجاف حسب، ومع ذلك نفذ غرضه على نحو دقيق، وأكمل كل شيء كما لو أنه كان يطيع إرادة قاسية. بدا الأداء أداء تنويم مغناطيسي كان فيه الوسيط يرتجف بألم متشنج.

الفصل الثامن والعشرون

أغضب تأخر سيغموند في سريره بياترس كثيراً. وكلما تأخر في نومه ازداد غضبها. لقد صعدت إليه بماء حلاقته في الساعة التاسعة والنصف، ثم استمرت في ترتيب غرفة الطعام، تاركة الإفطار مفروشاً في المطبخ. كانت فيرا وفرانك قد ذهبا إلى المدينة، وسيعودان إلى البيت للغداء الساعة الثانية بعد الظهر. أما مارجوري فقد أرسلت في مهمة بعد أن صحبت كوين معها. ولم يكن هناك مبرر لعودة الأطفال إلى البيت في الحال. ومن المحتمل جداً أنهم سيلهون في الحقل أو الشارع لساعة أو اثنتين، وهكذا كانت بياترس وحيدة في الطابق الأسفل.

كان صباحاً حاراً ساكناً، بينما كل شيء في الخارج يلتمع ببريق يخطف الأبصار. أما الأشياء في الداخل فقد كانت مغلفة بالبرد واللون. ولكن بياترس غاضبة، تتحرك بسرعة وإصرار حول غرفة الطعام، ترمي الصحف القديمة والمجلات بين الخزانة والجدار، وتلقي الأوساخ في الموقد الذي كان نظيفاً. كان يوم الجمعة هو يوم التنظيف النهاري، لهذا كانت تمر بسرعة وخفة على الأثاث وبيدها الريشة. أما يوم السبت فهو اليوم الذي لا تعمل فيه كثيراً، بل تخرج مع فيرا بعد الظهر. ومع ذلك، فإن تنظيف الأثاث لم يكن ما يشغل بالها في تلك اللحظة. لقد صممت على أن تتوصل إلى حل مع سيغموند حول كيفية استمرار الأمور بينهما، فهي لن تسمح أن تبقى الأمور مثلما كانت عليه خلال السنوات

الثلاث الماضية، لقد تأزم الأمر ولابد من وجود بديل لذلك. إن بياترس ستخوض معركة، وبالتالي فعليها أن تسرع في عملها حتى تثير نفسها إلى درجة حرارة دم مناسبة. وبينما كانت ترمي الأشياء بعيداً عنها، أو ترتب أغطية الفراش، كانت تصغي إلى سيغموند بانتظار أن ينزل إلى الطابق الأسفل ولكنه لم يفعل، ولقد أجج ذلك غضبها. فقالت تخاطب نفسها:

«إنه لا يجد غضاضة في أن ينام هرباً. وأنا هنا منذ السابعة أتشاجر مع نفسي. أعتقد أنه يرثي حاله، ولكن يجب عليه أن يفعل شيئاً أفضل. عليه أن يخرج للعمل كل صباح كأي رجل آخر ومثلما يفعل ابنه. إن عمله قليل جداً، ولكنه يتصرف على هواه كثيراً، إلا أن هذا يجب أن يتوقف الآن، فلن أعمل خادمة ومدبرة في بيته بعد الآن».

ذهبت بياترس كي تنظف درج الباب الأمامي، وضربت السطل على الأرض بصوت عال. كان غضبها يزداد في كل دقيقة، وانتهى ذلك العمل أيضاً فذهبت إلى المطبخ. كانت الساعة العاشرة والثلث، ووصل غضبها نقطة الانفجار. رفعت كل الأشياء عن المائدة وغسلتها. وبينما كانت تفعل ذلك بلغ غضبها شدته غير أنه لم يشتعل في لهيب بل بدأ يتسرب متحولاً إلى نوع من القلق. حاولت أن تتخيل ما يفعله سيغموند وما سيقوله لها. وحين رفعت كوباً أسقطته، وقد أثارها الحطام بحيث أن يديها ارتجفتا إلى حد منعها من إكمال تجفيف الأشياء وترتيبها. وفي النهاية نجحت في فعل ذلك. وكانت خطوة عملها اللاحقة هي ترتيب الأفرشة. أخذت سطلها وذهبت إلى الأعلى، وكان قلبها ينبض مهموماً في حنجرتها بحيث كان عليها أن تتوقف كي تسحب أنفاسها، فهي تخشى الاصطدام به. وفجأة، وبعد أن سيطرت على نفسها، قالت بصوت عالٍ عند باب غرفته، وكان صوتها عدائياً بارداً:

«ألا تنهض اليوم؟».

لم يكن هناك أي صوت في البيت. ووقفت بياترس في ظلمة السلالم، وقلبها ينبض في أذنيها، وصاحت به:

«الوقت الآن العاشرة والنصف، ألا تنهض اليوم؟».

انتظرت مرة أخرى. كانت هناك رسالتان غير مفتوحتين تستقران على المنضدة الصغيرة، وفجأة وضعت سطلها ودخلت غرفة الحمام فوجدت وعاء ماء الحلاقة في محله على الرف دون أن يُمس. عادت وطرقت بسرعة على باب غرفة زوجها وهي صامتة. انتظرت ثم طرقت مرة أخرى بصوت أعلى ولفترة طويلة. ولقد جعلها صدى ما في طريقة طرقها خائفة أن تحاول ذلك مرة أخرى.

فلقد كانت الضوضاء مكتومة ومعتمة لا تتردد عبر البيت على نحو طبيعي.

نزلت إلى الطابق الأسفل مرعوبة. وخرجت إلى الحديقة الأمامية. ومن هناك نظرت إلى باب غرفته. كان الشباك مفتوحاً، وكل شيء يبدو هادئاً. وقفت بياترس مترددة، ثم التقطت بضع حصى صغيرة ورمتها بيدها على بابه. فتناثرت على قضبان الشبابيك بحدة، وسقط بعضها بصوت مكتوم في الغرفة، واصطدمت إحداها بإناء غسل اليدين، ولكن لم تكن هناك استجابة لذلك. قلقت بياترس على نحو مرعب، وركضت، وعيناها السوداوان تتألقان، وخصل من شعرها الأسود تتطاير حول صدغيها الرقيقين، خارجة إلى الطريق. رأت منظف زجاج الشبابيك مصادفة، وهو يدفع سلمه خارجاً من بيت قرب بيتها فأسرعت إليه، وناشدته مرعوبة:

«ألا تأتي معي لترى ما إذا حدث شيء ما لزوجي؟».

فأجابها منظف الشبابيك الذي يعرفها، كما أنه كان مألوفاً لديها:

«لماذا يا سيدتي. هل هو مريض أو أصابه شيء ما. نعم، سآتي».

كان رجلاً طويلاً نحيفاً، ذا لحية بنية، وكانت ثيابه فضفاضة، وبنطلونه واسع، مما يعطي المرء انطباعاً بأن أطرافه هي مجرد عظام، وأن جسده هو هيكل عظمي حسب. دفع السلم بقوة، وسألها بينما كانا يغذان الخطى على الممر الجانبي:

«أين هو يا سيدتي؟».

«في غرفة نومه. ولم أتلق منه أي جواب».

فقال منظف الشبابيك وهو مستمر في دفع عجلة سلمه:

«إذن، سأحتاج إلى سلم».

كان في نشاط دؤوب، وهو يعرف غرفة سيغموند، إذ غالباً ما كان يرى سيغموند وهو ينهض من عدة الموسيقى التي كان يدَرّسها ويغادر غرفة الجلوس عندما يبدأ بتنظيف شبابيكها، ويجده بعدئذ في غرفة النوم الأمامية الصغيرة، وكان يعرف أيضاً أن هناك مشاكل زوجية، إذ أن بياترس لم تكن متحفظة حول الأمر. وسألها المنظف:

«إنها الغرفة الأخيرة في الأمام، أليس كذلك؟».

فأجابت بياترس:

«أجل، فوق الشرفة».

ودفع الرجل سلمه وقال لها:

«الأمر سهل، فالباب مفتوح وسرعان ما سأكون على الشرفة».

ثبت السلم بدقة. ولعنته بياترس في أعماق نفسها لأنه كان أحمق وبطيئاً وفضولياً، فحص السلم كيما يتأكد من صلاحيته. ومن ثم تسلقه بحذر شديد، وفي القمة، وقف وهو يمد رأسه منحنياً

فوق السلم كي يرى ما في الغرفة. وكان بإمكانه أن يتخيل كل أنواع الأشياء لأنه كان خائفاً. وصاح بصوت عال بينما بياترس في حالة انشداه مرعب:

«هل من أحد هنا؟».

وصرخت به:

«اصعد، اصعد، هل هو هناك؟».

تقدم الرجل بحذر شديد، ووضع قدماً على الشرفة وحدق إلى الأمام، ولكن الضوء في الباب الزجاجي انعكس في عينيه، فألحق رِجله بالرِجل الأخرى، وزحف إلى الأمام مستعداً للهرب في أية لحظة. وصرخ فجأة في رعب وهو ينسحب:

«هاي... هاي».

وكانت بياترس على وشك أن تفتح فمها لكي تصرخ عندما هتف المنظف بصوت واهن كما لو أنه كان شاكاً:

«أعتقد أنه قد شنق نفسه».

وصرخت بياترس:

«لا... لا... لا...».

وكرر الرجل:

«أعتقد أنه كذلك».

وصرخت بياترس بينما بقي الرجل ساكناً في المدخل يحملق بثبات، ثم أضاف شاكاً:

«أعتقد أنه كذلك».

وصرخت بياترس:

«لا، اذهب وانظر».

دخل الرجل إلى الغرفة خائفاً متردداً. واقترب من الجسد مرتجفاً كما لو أنه كان مسحوراً. أمسك به حول الخصر وحاول أن يرفعه وكان ثقيلاً جداً. وقال لنفسه، وقد بدا مشغولاً جداً، إذ أن عليه أن يقوم بعمل ما «أنا أعرف كيف أنزله». أخرج سكيناً من جيبه، وحصر الجثة بينه وبين الباب لكي لا تسقط، وبدأ يمرر يده عبر الحزام الجلدي. أمسك بالجسد مسقطاً سكينه، بينما بياترس في الحديقة تصغي لصوت القعقعة. وابتدأت تصرخ مرعوبة. سحب الرجل جسد سيغموند وشد الحزام بقوة حتى حرره، ثم ألقى نظرة عليه. كان الرجل الميت مستلقياً على السرير بوجه كالح منتفخ، ومنامته متكتلة تحت إبطيه تاركة خاصرتيه عاريتين. وكانت بياترس تصرخ في الأسفل. أسرع الرجل نازلاً من الغرفة إلى الأسفل، بينما اضطجع سيغموند متكوماً على الفراش الذي كان مجعداً ومتكتلاً من حوله، وكان من الصعب تمييز وجهه.

الفصل التاسع والعشرون

كانت هيلينا يراودها الوسن على خليج تنتكال، إذ كانت هي ولويزا وأولِف يضجعن على الرمال الباردة في الظل، ويغمسن أنفسهن باسترخاء في غيبوبة باردة يعطرها البحر.

كانت الرحلة إلى هناك مزعجة جداً. إذ بعد انتظار دام نصف ساعة في فوضى منتصف ليلة الجمعة تلك من شهر آب في محطة واترلو، تمكّن من الحصول على عربة فارغة لفترة قصيرة فقط، إذ التحق بهن خمسة رجال ريفيين مخمورين من شمال إنكلترا. احتلت أولِف وهيلينا ولويزا ثلاث زوايا من العربة وتوزع الرجال بينهن. ولم تكن النسوة الثلاث خائفات، فقد اكتشفن أن مرافقيهم السكارى مزعجون ولكن على خلق أمين صريح جعلهم فوق الشك.

سحب القطار نفسه باتجاه الغرب، وابتدأت هيلينا تعد الأميال التي تفصلها عن سيغموند. وأصبح الرجال الشماليون الريفيون أكثر مرحاً، وكانوا يتحدثون بصوت عال بلغتهم الإنكليزية الفظة، ويغنون الأغاني ويشربون الويسكي باستمرار، ومع ذلك، فقد كانوا مؤدبين مع الفتيات. أما أولِف ولويزا فكانتا منحنيتين تتهامس الواحدة منهما مع الأخرى، وقد جلستا في مقعديهما يخفين ضحكاتهما بإدارة ظهورهن إلى الرجال الذين أربكهم هذا المرح. استمر القطار أسرع فأسرع، وعكست أعشاش من المصابيح

البيتية الصغيرة حياة الريف الهادئة، واستدارت المصابيح ببطء عبر الظلام. نعس الرجال، ووضعت أولِف منديلاً فوق وجهها وغطت في النوم. واهتزت لويزا وترنحت مستغرقة في النوم هي الأخرى، بينما جلست هيلينا متعبة تراقب تدحرج المسافرين النائمين وفراغ الليل المعتم في الخارج. لم يبدُ الرجال أو النساء نائمين جيداً، فقد كانوا يتمايلون ويهتزون بطريقة غبية. وتذكرت رواية الآباء والبنون لبازاروف، ووافقته على وصفه مظهر النيام ـ الجميع باستثناء سيغموند. أكان سيغموند نائماً؟ وتخيلته وهو يتنفس بانتظام على الوسادة. وكان بإمكانها أن ترى تقوس حاجبيه، وشكل منخريه الجميلين وتقوس شفتيه، وانحنت بخيالها فوق وجهه.

تسلل الفجر ببطء، وكان بارداً بعض الشيء. لفّت أولِف نفسها في قطعة من القماش واستغرقت في النوم مرة أخرى. ارتجفت هيلينا وحملقت في الخارج عبر الشباك حيث ابتدأ الليل بالشحوب، وأحست هيلينا بالكآبة، إنها كئيبة بطريقة تستعصي على الوصف، ثم انتشر تورد في الأفق مثل سرب من طيور النحام وهي ترفرف فوق بحيرة مظلمة، وابتدأ العالم ينبض عندما أشرقت الشمس من جديد.

أيقظت هيلينا الرجال السكارى في إكستر، فقد سمعتهم يقولون بأن عليهم أن يبدلوا قطارهم هنا، ثم ذهبت إلى المنصة منهكة تماماً، واندفع القطار مرة أخرى. كانت رحلة متعبة جداً، لكن الحقول مزهرة والصباح مشرق على نحو رائع. ولكن ماذا تعني كل هذه الأشياء بالنسبة لها. إنها تريد الظلام والنوم والنسيان.

في الساعة الثامنة، وقت الفطور، كانت الشجاعات الثلاث

يركبن عربة صغيرة وسط سطوع شمس لاهث متألق فوق أرض ريفية عارية شرسة وقاسية.

وسألت هيلينا نفسها:

«لماذا أفعل هذا؟».

اغتسلت الصديقات الثلاث وأبدلن ملابسهن وتناولن طعام الفطور بعد وصولهن. كان الجو حاراً جداً إلى حد لا يستطعن معه أن يستقررن في البيت، لذلك تمشين صوب الساحل متعبات مجهدات. وأحست كل واحدة منهن أنها في مزاج سيء. ولكن هيلينا وجدت متعة هائلة بعد استقرارها في تنتكال. فقبل كل شيء اكتشفت أن الخليج يتطابق بشكل تام تقريباً مع مشهد «والاهالا» في مسرحية «الجولة»، والأمر الثاني، أن «تريستان» كان هنا، في ذلك الريف المأساوي ممتلئاً بأزاهير الصيف الكورني المتأخر، وهذه حقيقة ثابتة، والأمر الثالث أن البحر ذو غروب رائع مدهش وحمامات صباحية منعشة وبرك مائية ممتلئة بالحياة وتأرجح رقيق لزبد البحر. وتحت ضوء الشمس كانت أرضاً مسحورة لعشاق متباعدين.

وهمهمت هيلينا بمقاطع من «تريستان» وهي تقف على الصخور. غنت بطريقتها الناعمة شبه المتقطعة مقاطع من «حب إيزوولد» ومقاطع من حزن «تريستان» إلى سيغموند.

لم تستلم رسالة منه يوم الأحد. ولكن ذلك لم يقلقها كثيراً، رغم إحساسها بخيبة الأمل. وفي يوم الاثنين كانت تعيسة بسبب صمت سيغموند، ولكن كان هناك الكثير من التسلية في تنتكال، وكانت أولِف ولويزا في مزاج مرح بحيث أنساها الأمر في أغلب الأوقات.

ليلة الاثنين. في الساعة الثانية بعد منتصف الليل تقريباً،

حدثت عاصفة عنيفة من البرق والرعد. جفلت لويزا في سريرها عند أول قصفة رعد، وأيقظت هيلينا. ونبضت الغرفة ببرق أبيض لمدة ثانيتين. وتألقت المرآة الموضوعة على مائدة الملابس بضوء خاطف. أمسكت لويزا بصديقتها، وسرعان ما حل الظلام مرة أخرى، ثم ضرب الرعد بشكل مباشر. وصرخت لويزا متحدثة عن البرق:

«انظري، أليس هذا رائعاً ومدهشاً؟».

قرقع الباب وانفتح. ودخلت أولِف بمنامتها الطويلة البيضاء وأسرعت بالدخول إلى السرير وهتفت:

«عزيزتي، إني أفضل رفقتكما أثناء هذا الحادث الصغير».

وصرخت لويزا:

«ألا يعجبك. أعتقد انه رائع، رائع!».

وابتدأت نوبة أخرى من البرق، وكأن الليل فُتح وأُغلق من جديد. كان منظر شاحب لعالم شبحي يكمن بين ستائر الليل المعلقة. التصقت لويزا وأولِف إحداهما بالأخرى بتشنج وهتفت الأولى لاهثة:

«انظري. إن هذا رائع. ألا ترين ذلك يا هيلينا؟».

وأمسكت بيد صديقتها الممتدة بنشوة إلا أن جواب هيلينا أُخمد بانفجار الرعد وعلقت أولِف محتلة مكانها في السرير:

«لا أهمية للذوق. لا أستطيع القول إني معجبة بالبرق. ماذا بشأنك يا هيلينا؟».

فأجابت هيلينا في محاولة ساخرة للدعابة:

«أنا لم أصعق بعد!».

ورددت أولِف:

«شكراً لك يا عزيزتي، لقد شرفتني بإكمالك ما بدأت».

فضحكت هيلينا بسخرية، بينما سألت لويزا مستغربة:

«إكمال ماذا؟».

فأجابت أولِف وهي تلخص كلامها كثيراً كي تشرح لصديقتها:

«ألم تفهمي يا عزيزتي. عرضت على هيلينا بداية تورية لغوية ولقد أكملتها. ما أسرعها! أتعرفين، ليس الأمر لأني خائفة...».

وأخمد الرعد بقية حديثهما.

تمددت هيلينا على حافة السرير مصغية إلى ابتهاج إحدى صديقاتها وإلى شطحات الأخرى. ورغم إحساسها الساخر فإن الرعد أعطاها إحساساً بالقدر. انفتح الليل كاشفاً عن مناظر شبحية سرعان ما أُغلقت بالظلام مرة أخرى، ثم اشتد الرعد، وأحست هيلينا كما لو أن سراً يكشف لها أيضاً بسرعة وعنف كي تفهم. ضج الرعد على نحو مرعب، وتأكدت أن شيئاً ما قد حدث، وانسحبت العاصفة ببطء وهطل المطر مدراراً، بصوت طاحن على الأرض والأوراق.

وهتفت لويزا:

«يا له من طوفان!».

ولكن أحداً لم يرد عليها. كانت أولِف مستغرقة في النوم. ولم تكن هيلينا في مزاج للإجابة. فاضطجعت لويزا تراقب الشباك الأسود وتداري حزنها حتى استغرقت في النوم هي الأخرى. كانت هيلينا مستيقظة، فقد ولّدت لديها العاصفة إحساساً مؤكداً بالكارثة، وأحست بالانسحاق. وطحن صوت المطر الثقيل

الأرض في الخارج فمثّل ذلك أحاسيسها. ولم تستطع التخلص من إحساس الكارثة الساحق.

اضطجعت تتساءل عما حدث، وعن أسباب عدم كتابته لها، وعما يمكن أن يكون قد حدث له. كانت خيالاتها مرعبة كلها، وأضفت عليها الكثير من الخيال، لأنها تمت بصلة قرابة لهيدا كابلر(*).

وخاطبت نفسها:

«ولكن لا... من المستحيل أن يكون قد حدث له مكروه، وإلا لكنت عرفت. كنت عرفت في اللحظة التي غادرت فيها روحه جسده. كان سيأتي إلي ولكني نمت من دون أحلام في الليلة الماضية، وأنا متأكدة أن ليس ثمة مصيبة حدثت هذا اليوم. فمن المستحيل أن يكون حدث مكروه له من دون أن أعرف».

كانت واثقة أنها في حالة موت سيغموند سيراودها إحساس بذلك. وابتدأت تفكر في كل الأسباب التي يمكن أن تمنعه من الكتابة إليها. ثم قالت في النهاية:

«ومع ذلك، إذا لم أسمع عنه شيئاً غداً فسأذهب وأراه».

لقد كتبتْ إليه يوم الاثنين الماضي، فإن لم تستلم منه رداً صباح الأربعاء فإنها ستعود إلى لندن. وعندما توصلت إلى هذا القرار استغرقت في النوم.

مر اليوم التالي من دون أخبار. وكانت هيلينا في حالة شديدة من الكآبة. ولقد مسّ أساها المرأتين الأخريين بشكل صميمي، واعتنت بها لويزا وكانت حنوناً وقلقة أيضاً. أما أولِف فقد أصبحت مزعجة بسبب فضولها غير المشبع، مما توجب إخبارها بجزء من الحقيقة.

(*) مسرحية للكاتب النرويجي هنريك إبسن تعد بطلتها المكافئ الأنثوي لهاملت.

اختارت هيلينا قطاراً للعودة. فقد تأكدت عندئذ من أن شيئاً قدرياً بانتظارها، وفي صباح اليوم التالي ودعت صديقاتها مؤقتاً قائلة بأنها ستعود في ذلك المساء. ورحل القطار في الحال. واندفعت لويزا إلى غرفة الانتظار الصغيرة في الحال وانخرطت في البكاء. وسفحت أولِف دموعها تعاطفاً ورثاء لنفسها، رثت نفسها لأنها ستقضي عطلة كئيبة. ثم توقفت لويزا عن البكاء فجأة ونهضت وهي تقول:

«أعرف أني خنزيرة يا عزيزتي، ألست كذلك؟ أفسد عطلتك، ولكني لا أستطيع منع نفسي يا عزيزتي، لا أستطيع حقاً».

وصرخت أولِف بنبرة مأساوية:

«يا عزيزتي لو... لا تكتمي أحزانك من أجلي. لقد حدث المقدر، ولا نستطيع فعل أي شيء!».

قطعت المرأتان الحزينتان المسافة الطويلة عائدتين إلى البيت، وجلست هيلينا في القطار المتأرجح تدور الفكرة ذاتها في رأسها مثل مقاطع الصلاة. كان من الصعب عليها أن تفكر في أي شيء آخر غير الجلوس ساكنة في القطار الذي يهمهم ويندفع قلقاً. بينما ينتظر المرء ساعة بعد أخرى الضربة التي تقترب من الوقوع كلما قلّت المسافة. وطوال الوقت، كان قلب هيلينا ووعيها مع سيغموند في لندن، لأنها اعتقدت أنه مريض وفي حاجة إليها.

لقد قالت له مرة:

«عدني... إذا مرضت ذات يوم واحتجْتك فإنك ستأتي إلي».

فأجابها سيغموند:

«سآتي إليك من جهنم».

وأضافت:

«وإذا مرضت أنت فإنك ستدعني آتي إليك».

فأجابها:

«أعدك بذلك».

أما الآن، فقد تأكدت هيلينا من أنه مريض، وربما مريض جداً، وربما تكون ذات فائدة إليه. وكانت أميال المسافات مثل قضبان حارة من الحديد على صدرها يصعب اجتيازها. وقد كان القطار يبذل جهده.

ولقد بقي ذلك النهار لطخة في تاريخ حياة هيلينا. فلم يكن فيه امتداد زمني ولا حروف تجربة، بل مجرد لطخة من القلق.

نزلت في الساعة السادسة تقريباً في محطة سوربيتن مقررة أن هذه أسرع طريقة للوصول إلى ومبلدن. قطعت الرصيف ببطء، كما لو أنها قررت التخلي عن المهمة. ولكن قلبها كان يصرخ بسبب التأخر الجائر. وصل القطار المحلي عندئذ. وكانت قد قررت أن تشتري جريدة محلية من ومبلدن، فإن لم تستطع معرفة أي شيء من ذلك المصدر فإنها ستذهب إلى بيته وتستعلم. لقد رتبت كل شيء من قبل وبالتفصيل الدقيق.

بعد أن تصفحت الجريدة عدة مرات وجدت ما كانت تبحث عنه:

«تمت في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم في مقبرة كنكستون مراسيم دفن... وكان المتوفي أستاذاً للموسيقى، وقد عاد لتوه من رحلة استجمام على الشاطئ الجنوبي...».

أخبرتها الفقرة في سطورها الاثني عشر البسيطة كل شيء.

«... ولقد عزا المحلفون الموت إلى انتحار أثناء حالة جنون مؤقت. التعازي لأرملته وأطفاله».

وقفت هيلينا ساكنة في المحطة بعض الوقت تحملق في الصحيفة، ثم أسقطتها وهامت في المدينة جاهلة لوجهتها.

قالت بعد فترات طويلة من الصمت تصف ما حدث:

«هذا كل ما حصلت عليه. وكان الأمر مثل الطابوقة. أجل مثل الطابوقة».

استمرت في التجول حتى وجدت نفسها في الممر المعشب الذي لا يفصله عن الحقول المنبسطة على الجانبين غير سياج من الأسلاك. وما وراء الحقول من الجهة اليسرى، كان بإمكانها رؤية بيت سيغموند وهو ينتصب مزخرفاً على الطريق، مستقبلاً ضوء الشمس الغربي، وعندما عرفت أين وصلت توقفت. وظلت لبعض الوقت تنظر إلى البيت. لا فائدة من الذهاب إلى أي مكان. كان العالم الواسع كله مفتوحاً أمامها، ولكن ليس فيه أي مكان تنشده، ولا أي اتجاه تسلكه، كما لو أنها ألقيت وحيدة في هذا العالم. وقفت يائسة تلقي عبر بيت سيغموند نظرة على الحقول والتلال. لقد ذهب سيغموند، فلماذا لم يأخذها معه؟

ابتدأ المساء يخيم، وكانت الساعة السابعة والنصف تقريباً عندما نظرت هيلينا إلى ساعتها، وتذكرت لويزا التي ستنتظر عودتها إلى كورنويل.

قالت هيلينا تخاطب نفسها:

«إما أن أذهب إليها أو أرسل برقية، ستصاب بحمى القلق».

وأسرعت مباشرة حتى تأخذ قطار العودة من المحطة. وعندما وصلت في الساعة الثامنة إلا ربعاً لم يكن ثمة قطار يذهب إلى تنتكال تلك الليلة. لذلك أرسلت إليها الأخبار:

«مات سيغموند وليس هناك قطار الليلة. أنا عائدة إلى البيت».

وعندما أنجزت ذلك أخذت بطاقتها وجلست تنتظر. كان كل شيء فعلته معقولاً بفعل إرادتها القوية، غير أن عقلها كان مشوشاً.

وكررت القول مرة أخرى، «لقد كان الأمر مثل الطابوقة». وكان ذلك التشبيه القاسي هو الشيء الوحيد الذي تستطيع تذكره حتى بعد عدة شهور عندما تصف حالتها. لقد أحست كما لو أن شيئاً ما قد طُحن في عقلها فشلّها وأدهشها.

وعندما طرقت باب بيتها كانت هادئة تماماً في الظاهر، وفتحت أمها الباب. وعندما رأتها هتفت السيدة فيردن.

«ماذا، هل أنت وحيدة؟».

وردت هيلينا:

«أجل، لويزا لم ترجع».

ثم اتجهت إلى غرفة الطعام. وكما لو أن الأمر بفعل الغريزة، فقد ألقت نظرة على رف الموقد لترى في ما إذا كانت هناك رسالة. وبدلاً من ذلك كانت هناك قصاصة من صحيفة. فتقدمت نحو الأمام لكي تتفحصها. كانت قصاصة من إحدى صحف لندن:

«أجري فحص على جثة...».

قرأت هيلينا الخبر مرة أخرى ثم طوت القصاصة ووضعتها في محفظتها، بينما وقفت أمها تراقبها مستنفدة بالكآبة والقلق، وسألتها:

«كيف عرفت؟».

فأجابت الابنة بصوتها الأبكم:

«ذهبت إلى ومبلدن واشتريت صحيفة محلية».

وسألت الأم بحدة:

«هل ذهبت إلى منزله؟».

فأجابت هيلينا:

«لا».

وقالت الأم مترددة:

«كنت أتساءل في ما إذا كان يجب علي أن أرسل لك تلك الجريدة».

ولم ترد عليها هيلينا، وتجولت في البيت بطريقة آلية، باحثة عن شيء ما. وتبعتها أمها محاولة أن تساعدها بلطف.

ولبعض الوقت، جلست هيلينا على المائدة في غرفة الطعام محملقة في الفراغ أمامها. وكان والداها يتحركان بقلق من حولها محاولين ألا يزعجاها بمراقبتهما، ويصليان كي تغير السكون في نظرتها. واعترفا بأنهما عديما الحيلة مثل الأطفال. أحسا بأنهما بائسان وضعيفان، وكانا هادئين جداً.

وسألها الأب في النهاية:

«ألا تذهبين إلى غرفتك لتستريحي يا نيللي؟».

كان رجلاً غريباً ينقصه الفضول، ذا عاطفة رقيقة جداً، ومزاجه الاعتيادي يقترب من التهكم الرقيق.

أعاد عليها الكلام مرة أخرى.

«ألا تذهبين لتستريحي يا نيللي؟».

فارتجفت هيلينا قليلاً، وتوسلتها أمها:

«هيا افعلي يا عزيزتي. دعيني آخذك إلى الفراش».

نهضت هيلينا، وكانت الأم خائفة حد الرعب من أن تهتاج أو تغضب، ولكنها ذهبت تلك الليلة بفتور إلى الطابق الأعلى، وتركت أمها تساعدها على خلع ملابسها. وعندما أصبحت في الفراش، وقفت أمها لبضع لحظات تنظر إليها، يملؤها توق إلى أن تتوسل

بابنتها كيما تصلي إلى الله، ولكنها لم تتجرأ على فعل ذلك. وتململت هيلينا بنفاد صبر متوحش تحت إلحاح حملقة أمها. وقالت السيدة فيردن:

«هل أترك لك الشمعة مضاءة؟».

فأجابت الابنة:

«لا، أطفئيها».

فعلت الأم ذلك، وغادرت الغرفة في الحال نازلة إلى الطابق الأسفل حيث كان زوجها، وحالما دخلت غرفة الطعام نظر إليها مخلوع الفؤاد. كانت امرأة طويلة منتصبة القامة ذات عينين بنيتين سريعتين وباحثتين في العادة ولكنهما في تلك اللحظة كانتا مغروقتين بالدموع التي لم تسقط. انحنى إلى الأسفل. غاطساً في كرسيه، وكانت يداه متشابكتين بقوة، سألها:

«هل ستكون على ما يرام إذا تركتها لوحدها؟».

أجابت الأم بحدة:

«يجب أن نصغي».

جلس الوالدان في مكانهما بصمت. ورفعت السيدة فيردن مائدة العشاء، كانسة معها بضع قطع من فتات الخبز من على الأرض، في المكان الذي كانت هيلينا قد جلست فيه، واضعة بعناية الكسر تحت الخبز كي تبقيها رطبة. ثم جلست مرة أخرى. وكان بإمكان المرء أن يلاحظ أنها متيقظة لكل صوت. بينما الأب يضع يده على رأسه فقد كان يفكر ويصلي.

نهضت السيدة فيردن فجأة، وتناولت علبة كبريت من رف الموقد، وأسرعت بخطوها الفخم الثقيل إلى الطابق الأعلى وتبعها زوجها مرعوباً، وهو يتجول قرب باب غرفة ابنته. أشعلت الأم

الشمعة، وهي ترتجف، إذ أوجعتها حالة هيلينا وأخافتها. فقد كان وجه الفتاة مقنّعاً كما لو أنها نائمة. ولكن يمر عليه في بعض الأحيان تعبير حي من الخوف أو الرعب. وأظهرت عيناها الواسعتان حالة جنون وبين لحظة وأخرى، كانت تردد مقاطع غريبة متقطعة.

أمسكت أمها بيدها وربتت عليها. ورغم أنها لم تكن على وعي تام بوجود أمها، غير أنها كانت في نوع من الغيبوبة. نزل الأب إلى الأسفل، وأطفأ النور ثم جلب لزوجته شالاً كبيراً وضعه على حافة السرير، وترك الغرفة بصمت وذهب فانحنى قرب سريره وابتدأ يصلي.

راقبت السيدة فيردن هذيان ابنتها. وطوال الوقت راحت تردد نوعاً من التراتيل في ذهنها طالبة مساعدة الرب. واستعادت الفتاة وعيها مرة أو مرتين، فكانت تسحب يدها عند تمييزها الموقف، مستديرة عن أمها التي تنتظر بفارغ الصبر أن تغيب عن الوعي، كي تداوي ابنتها مرة أخرى.

كانت هيلينا سعيدة بوجود أمها ولكنها لم تكن تطيق النظر إليها.

وباقتراب الصباح استغرقت الفتاة في نوم طبيعي. راقبتها الأم من قرب، ولمست بخفة جبينها بشفتيها وتركتها بعد أن أطفأت الشمعة. وجدت زوجها جاثياً بمنامته فوق السرير، وهو يهمهم ببضعة مقاطع، فحملق فيها عندما دخلت:

«هل هي نائمة؟».

وهمست المرأة بصوت أجش:

«إنها نائمة».

تردد الرجل قليلاً:

«أهو نوم طبيعي؟».

«نعم، أعتقد ذلك، أعتقد أنها ستكون على ما يرام».

همس الأب بصوت غير مسموع تقريباً:

«شكراً لله».

أمسك بيد زوجته عندما اضطجعت إلى جانبه، لقد كان هو المهدئ الآن. وأحست كما لو أنها هي التي يجب أن تصرخ الآن وتستريح وتنام. أما الرجل الهادئ الغامض فقد أمسك بيدها وتحمل المسؤولية.

الفصل الثلاثون

كانت بياترس حذرة في ألا تترك حادثة وفاة سيغموند تسقط بكامل ثقلها عليها. ولقد حاولت أن تتفاداها. وكانت خائفة أن تواجه اتهام سيغموند الميت من قِبَل محلفي الذكريات المقدسين. وعندما يجبرها الموقف أن تقف أمام منصة فهمها لروحها، كانت تهرب تاركة الحكم على نفسها مؤجلاً إلى الأبد.

وعندما هرع الجيران مفزوعين بصراخها، تركت نفسها تؤخذ بعيداً عن بيتها إلى بيت جيرانها، حيث أُحضر إليها أطفالها أيضاً. وهناك بكت وصرخت حول الأمر، كما لو أنها تحاول غريزياً أن تشوش عقلها. ورتب الجيران الطيبون الأمور في بيت سيغموند، فاستدعوا الشرطة، وساعدوا في ترتيب الرجل الميت. وقبل أن تعود فيرا وفرانك إلى البيت، وقبل أن تعود بياترس إلى بيتها، أغلق باب غرفة نوم سيغموند.

ولقد تجنبت بياترس رؤية جسد زوجها، واكتفت بإلقاء نظرة سريعة مشوشة بالقلق ولم تره مطلقاً بعد وفاته. وكانت حذرة على نحوٍ كاف في ألا تفكر فيه. وما إن تتجول أفكارها حول تصور أحاسيسه وحياته الداخلية خلال السنوات الست الماضية الأخيرة حتى يخالطها الرعب نفسه، فتسرع طلباً للحماية. وكانت تردد:

«يجب أن أعيش من أجل الأطفال وأن أفكر فيهم».

وهذا ما فعلت وبنجاح ساحق. وكان كل بكائها وتوحشها ينتجان من الرعب والهلع وليس من الحزن. فقد تمكنت من رد الحزن الذي كان من الممكن أن يحطمها. أما فيرا فقد كانت ذات عقل عملي، ولديها فكرة قاسية عما يجب أن يكون وألا يكون، حيثما تضع نفسها محل والدها وتحاول فهمه. كانت تحاول الحكم عليه بأسى وتوقير وذلك لأن هيلينا هي التي تتحمل وزر كل ما حدث. أما فرانك، الذي كان عاطفياً، فقد بكى بسبب الموقف وليس على الشخص. وكان الأطفال الصغار كئيبين بسبب تصرفات الكبار المزعجة، وكانوا يأملون في عودة الهدوء، وبموافقة جماعية لم يعد يُذكر أي شيء حول سيغموند إطلاقاً.

وبعد الدفن مباشرة انتقلت بياترس من جنوب لندن إلى هارو، وابتدأت ذكرى سيغموند تضمحل بسرعة.

كانت بياترس تحلم طوال حياتها بنوع أكثر صراحة وجهارة من الحياة وأوسع من حلقة الأسرة وحدها. وكانت تحب وجود الغرباء في بيتها، فقد كان ذلك يحفزها على نحو مرضٍ. لذلك وبعد تسعة شهور من وفاة زوجها، قررت أن تنفذ خطة قلبها، وأن تؤوي نزلاء في البيت.

تنحدر بياترس من أسرة موسرة، ولكنها كانت على خلاف معهم بسبب زواجها الرومانسي المبكر والمشين من شاب لم يكن لديه دخل أو مهنة. ولكن عند حدوث المأساة التي كانت حادثاً وضيعاً، عاد آل والتن مرة أخرى لمساعدة بياترس، جاؤوا مترددين، وظلوا مرتدين قفازاتهم متسائلين عما تنوي فعله، فتحدثت بفخر عن بيتها، نُزلها المستقبلي. فمنحوها مئتي باوند فرحين لأنهم أراحوا ضمائرهم بهذا الثمن البخس. أما والد سيغموند، وهو رجل عجوز متعب بقلب ذهبي شاب، فقد كان

مستعداً أن يوفر من دخله المتواضع من أجل أحفاده. وهكذا ابتدأت بياترس في بيت كبير في هاي كيت مجهز بخادمتين، ودعي الرجال لكي يأتوا ويسكنوا في نُزلها. كانت مغامرة هائلة أسعدت بياترس. أما فيرا فقد كانت مضطربة ومهتمة بالأمر، بينما كان فرانك مثاراً ولكنه شاك ومتذمر. وكان الأطفال مثارين ومنتشين ودهشين. كان العالم كبيراً بالآمال.

جاء ثلاثة رجال قبل انتهاء الشهر إلى مؤسسة بياترس. وهي تأمل في الحصول على رجل رابع أو خامس بعد فترة قصيرة. كانت خطتها أن تؤدي دور المضيفة، وبالتالي تُنعم على نزلائها ببركات الحياة العائلية التي لا تقدر بثمن.

قدم الإفطار الساعة الثامنة والنصف صباحاً بحضور الجميع. جلست فيرا مقابل بياترس بينما جلس فرانك إلى يمين أمه. وجلس السيد ماكورتير الذي كان مفضّلاً على الجهة اليسرى وإلى جانبه السيد البورت الذي جلس قبالته السيد هوليدي. كان الجميع شباناً تقل أعمارهم عن الثلاثين عاماً. وكان السيد ماكورتير طويلاً أشقر وبديناً، يتحدث بهدوء ومزاجه أنيس ومسرّ، ومع ذلك، فقد كان مثقفاً على نحو استثنائي. ولم يكن يمزح بأي شيء من الأشكال، مظهراً تحفظاً مطلقاً رغم لطفه. لذلك بذل فرانك كل جهوده حتى يكسب احترامه، بينما كانت بياترس تحترمه على نحو خاص، أما السيد البورت الذي كان طويلاً وعريضاً ولكنه نحيف نحافة باب، فقد كانت له ذقن صغيرة بشكل مثير للانتباه. وكان ساذجاً يميل إلى المعاناة عند البوادر الأولى للتحرر من الوهم. ومع ذلك، فقد كان مظهره يدل على أنه ذو روح مرحة، إلا أنه يبدو في بعض الأحيان حزيناً، ونكداً في أحيان أُخَر، ولكنه شهم دائماً. لذلك أحبته فيرا بينما عاملته بياترس معاملة الأم. أما السيد هوليدي فقد كان قصيراً وبديناً جداً ومتورد الوجه جداً وله شعر أسود وصوت كريه عامي في نبرته ولكنه مستعد للمساعدة بشكل

زائد عن اللزوم إذا طُلب منه ذلك. لذلك كرهه فرانك بينما أحبت فيرا مظهره الوسيم المليء بالحيوية غير أنها استاءت جداً من تصرفاته. وكانت بياترس فخورة بالطريقة الماهرة الرائعة التي توقفه بها عند حده، رادعة إياه من دون أن تؤذي أحاسيسه.

وفي إحدى أمسيات تموز، وبعد مرور أحد عشر شهراً على وفاة سيغموند، ذهبت بياترس إلى غرفة الطعام، فوجدت السيد البورت جالساً مسنداً مرفقه على حافة الشباك ينظر إلى الحديقة. كانت الساعة السابعة والنصف تقريباً. وأظهرت الفجوات الحمراء بين أوراق الأشجار أن الشمس على وشك الغروب. وتسرب عطر الغروب إلى الغرفة عبر الشباك المفتوح، وباتجاه الأفق الجنوبي كان القمر يبرعم خارجاً من الغسق.

هتفت بياترس التي عادت لتوها من تنويم الأطفال:

«ماذا؟ أنت هنا لوحدك؟ تصورتك قد خرجت».

أجاب السيد البورت وهو يستدير حتى يواجه سيدة المنزل:

«لا، ما الفائدة من الخروج؟ ليس ثمة مكان يمكنني الذهاب إليه».

«لا تقل هذا. هناك المروج والمدينة. كما أنك يجب أن تلتحق بنادي التنس. أعتقد أني وجدت ما يناسبك، النادي الذي تذهب إليه فيرا».

«نعم، إن المرء قد يذهب إلى المدينة، ولكن لا شيء هناك، ما أعنيه أن المرء يحتاج إلى رفيق، ولكن حتى حينئذ...» ثم تشدق بالكلمات مضيفاً: «إنه مجرد هروب من النفس، مجرد قتل للوقت».

هتفت بياترس:

«لا تقل ذلك، بل عليك أن تستمتع بالحياة».

ورد السيد البورت:

«هذا صحيح، هكذا إذن. ولكن مع ذلك فالمسألة على النحو التالي، إنك تنهضين غداً لتفعلي الشيء نفسه ما أعني قوله: ما الفائدة من كل شيء؟ إنك تعيشين لأنه يتوجب عليك ذلك».

«أعتقد أنك متشائم جداً بالنسبة لشاب في مثل سنك. أنا أنظر إلى الأمر بصورة مختلفة، رغم أن لدي أكثر من سبب للتذمر، فما المشكلة الآن؟».

«إنك لا تستطيعين وضع إصبعك على السبب بهذه الطريقة. ما أعني قوله لا يوجد هناك شيء محدد. ولكن بعد كل شيء ليس هناك أمر آخر غير القفز خارج الحياة بأسرع ما يمكن، هذه هي الطريقة المثلى».

خيم الحزن على بياترس على نحو مفاجئ.

«ألا تفكر في الآخرين يا سيد البورت وأنت تتحدث بهذه الطريقة؟».

فتشدق في الكلام:

«لا أعرف. وماذا يهم؟ ومن يهتم، أعني إلى أية فترة؟».

وردت بياترس بحزن:

«إن ذلك سهل جداً ولكنه تصرف جبان».

قال السيد البورت:

«ومع ذلك، فإنه تصرف سليم، أليس كذلك؟».

وردت بياترس ساحبة قناعاً من التحفظ على وجهها:

«لا، وكان المفروض أن أعرف...».

نظر السيد البورت إليها وانتظر، ثم استرخت بياترس في مواجهة الشاب المتشائم وقالت:

«نعم... إني أعتقد إنه لفعل جبان أن تتخلص من مشاكلك بهذه الطريقة، تخيل ما الذي تلحقه بالآخرين. أنتم الرجال أنانيون جميعاً، تتركون العبء على النساء دائماً».

ورد السيد البورت بنبرة ناعمة متعاطفة وهو ينظر إلى ثوب بياترس الأسود:

«نعم، ولكن ليس هناك شخص يعتمد علي».

«لا، ليس لديك، ولكن لك أم وأخت. إن على النساء أن يتحملن الأذى دائماً».

أجابها بحزن منتظراً متوقعاً:

«نعم... إنهن كذلك».

ابتدأت بياترس بالكلام وانتظر الشاب:

«كان زوجي من نوعك. لقد سعى وراء المشاكل، وعندما وجدها لم يستطع تحملها. فتركها لي».

نظر إليها السيد البورت بتعاطف شديد وهتف هامساً:

«أتعنين ذلك؟ بالتأكيد إنه لم ...؟».

هزت بياترس رأسها وأدارت وجهها بعيداً وأجابت:

«نعم وأعرف ماذا يعني تحمل هذا النوع من المشاكل، وهو ليس بالأمر الهين. أؤكد لك»، وكان هناك ما يشبه الدموع في صوتها.

سأل السيد البورت بتبجيل تقريباً:

«متى حدث ذلك؟».

وأجابت بياترس:

«السنة الماضية فقط».

أصدر السيد البورت صوتاً يدل على دهشته ورثائه. وأخبرته بياترس شيئاً فشيئاً أن زوجها قد وقع في غرام امرأة أخرى، ولقد تحملت الأمر لفترة طويلة، ولكنها أوصلت الأمر إلى أزمة معلنة. فما الذي يجب أن تفعله، وقد شنق نفسه وتركها مفلسة؟ ولقد قدم أهلها الأغنياء كل ما سمحت لهم أن يفعلوه وقامت هي وفرانك وفيرا بإكمال الباقي وأنها لا تهتم بنفسها بل بفرانك وفيرا اللذين يجب أن ينعما بشبابهما، وأن قلبها مهموم لهذا السبب. خيم الصمت لبعض الوقت. وتمتم السيد البورت بتعاطفه، وجلس وقد غلبه الاحترام لهذه المرأة الصغيرة التي لم تحطمها المأساة. ثم رن جرسٌ في المطبخ ودخلت فيرا:

«أوه، يا لها من رائحة لذيذة! إنك تجلسين في الظلام يا أمي؟».

«كنت أحاول رفع معنويات السيد البورت فقط. إنه كئيب جداً».

فقال السيد البورت وهو ينهض وينحني:

«صلي كي لا تغفلي عني!».

«أنا لم أرك، لقد كنت تستمتع بجلستك في الغسق وتثرثر مع أمي. لابد أنك كنت رجلاً ثقيل الظل عديم الضمير».

فرد السيد البورت:

«على النقيض من ذلك، لقد كانت السيدة ماكنير طيبة لتحملها حماقتي».

وسألت فيرا بحدة:

«بأية طريقة؟».

فقالت بياترس مازحة:

«إن السيد البورت مكتئب جداً. أعتقد إنه واقع في الحب».

وقال السيد البورت وهو ينحني قليلاً لفيرا:

«لست كذلك لسوء الحظ. أو على الأقل لست واعياً بذلك حتى الآن».

تقدمت فيرا ووقفت عند الشباك ومست تنورتها ركبتي الشاب. كانت جميلة وطويلة وهي تراقب القمر الأبيض في السماء الغامقة الوفيرة، ويداها متشابكتان إلى الخلف، فقال السيد البورت في سخرية كئيبة:

«لا تنظري إلى القمر آنسة ماكنير أن كل ذلك مجرد قشور. أحدهم نهش لحم القمر، ولم يترك لنا إلا القشور».

فأجابت فيرا:

«يبدو لي كقشرة بطيخ ـ شريحة واحدة».

وقال لها:

«لا تهتمي يا آنسة ماكنير. أياً كان ذلك الذي حصل على قطعة القمر، سيجدها غير ناضجة على ما أعتقد».

فردت قائلة:

«لا أعرف، ولكن ألا تعتقد أنها أمسية جميلة. سأخرج وأرى إن كان بإمكاني الإمساك بزهرة الربيع، وهي تتفتح».

هتف قائلاً:

«ماذا؟ زهرة الربيع».

«أجل، أزهار الربيع المسائية. هناك بعض منها».

أجابها بدهشة:

«أهنالك بعض منها؟».

ابتسمت فيرا لنفسها وقالت:

«نعم، تعال وانظر بنفسك».

نهض الشاب برشاقة، ودخل السيد هوليدي إلى الغرفة بينما كانا في الحديقة، وسمعاه يهتف:

«ألا يوجد أحد هنا؟».

فرد السيد البورت بازدراء:

«هنا يا هوليدي».

ولم تجب فيرا.

جاء السيد هوليدي إلى الشباك المفتوح منجذباً بالعطر، وصرخ بصوته الصادر من الأنف، والذي كان يزعج أذن فيرا المدربة. وتمنت لو أنها لم ترتد فستاناً أبيض يدل عليها.

«أوه، أنتم هنا، ماذا تفعلان؟».

أجاب السيد البورت:

«لا شيء معين».

فضحك السيد هوليدي وقال:

«أوه، إذن ليس هناك شيء مهم وخاص».

ثم قفز فوق إطار الشباك وذهب ليرافقهما.

وتذمر السيد البورت قائلاً:

«يا للأحمق!»، ثم أضاف بنعومة مخاطباً فيرا: «أرجو عفوك».

وسألت فيرا كما لو بطريقة حميمة جداً:

«هل لاحظت يا سيد هوليدي قسوة هذه الأزهار أنها لا تتفتح طالما تنعم النظر إليها». فضحك السيد هوليدي وقال:

«لا، أنا لا ألومها. فلماذا يجب أن تمنح نفسها أكثر مما تفعلين أنت. فأنت لا تتفتحين عندما يراقبك أحد».

ثم لكز بمرفقه السيد البورت مازحاً.

بعد العشاء، الذي كان متأخراً ورديئاً، بدا الرجال في مزاج سيء. فذهب السيد ماكورتير إلى غرفته كي يقرأ، وجلس السيد هوليدي ينبش أسنانه، وتوسل السيد البورت بفيرا كيما تعزف البيانو، فأجابت:

«البيانو ليس جهازي المفضل. الكمان هو ما أفضله، ولكني لا أعزف الآن».

توسل إليها السيد البورت:

«لكنك ستبدئين مرة أخرى».

فردت بحزم:

«لا، مطلقاً».

نظر إليها السيد البورت من قرب. إن لمأساة العائلة علاقة بذلك القرار. لقد كان متأكداً من ذلك، وراقبها بانتباه، وابتدأت الكلام:

«لقد اعتادت أمي أن تعزف...».

قاطعتها بياترس موبخة:

«فيرا».

اقترح السيد هوليدي:

«دعونا نغني أغنية».

فقالت فيرا وهي تتجه صوب جهاز الموسيقى:

«إن السيد هوليدي يود أن نغني يا أمي».

ورد السيد هوليدي:

«لا، لست أنا».

قالت فيرا وهي تسحب ورقة المعزوفة:

«أغنية حدّاد القرية».

تقدم السيد هوليدي إلى الأمام. وألقت فيرا نظرة على أمها، فاحتجت بياترس قائلة:

«أنا متأكدة أني لم أمس البيانو منذ عدة سنوات».

قالت فيرا:

«إنك تستطيعين العزف بشكل جميل».

صاحبت بياترس الأغنية، وغنى السيد هوليدي بصوت شنيع. حملق فيه السيد البورت بينما ظلت فيرا هادئة جداً.

وفي النهاية هُزمت بياترس بملمس البيانو فأهرعت خارجة من الغرفة.

ضحكت فيرا وقالت:

«تذكرت أمي أنها لم تُعد طعام الغد».

نظر إليها السيد البورت وكان حزيناً.

وعندما عادت بياترس إلى الغرفة، أصر هوليدي على أن تعزف مرة أخرى. ولقد وجدت صعوبة في أن ترفض أكثر مما تطيع.

أوت فيرا إلى غرفتها مبكرة، تبعها بعد ذلك السيد البورت مباشرة ثم السيد هوليدي. وفي الساعة العاشرة والنصف جاء السيد ماكورتير بكتابه العتيق، وكانت بياترس تقرأ في كتاب للطبخ.

وهتف السيد ماكورتير بأدب:

«إنك متأخرة أيضاً».

أجابته بياترس:

«إني أبحث عن وصفة حلويات للغد».

ابتسم الشاب بطريقة ساخرة وقال:

«إننا سنشعر بدين لك في ذمتنا لن نستطيع سداده، إذا واصلت الاهتمام بنا بهذه الطريقة».

فقالت بياترس:

«يجب أن أعتني بكم».

«إنك تفعلين ذلك على نحو رائع. أعتقد إننا مدينون لك بالامتنان».

كانت الوجبات متأخرة قليلاً بشكل مستمر. وكان دائماً ثمة شيء ليس على ما يرام. فابتسمت بياترس قلقة وقالت:

«ألأني أبحث في قائمة طويلة من وصفات الحلويات؟».

فانحنى لها وقال:

«الحلويات وكل الأشياء الطيبة الأخرى. عزفك على البيانو على سبيل المثال، إن ذلك رائع جداً».

«هل أزعجك عزفي؟ لكن الصوت لا يصل إلى غرفة المكتب».

فقال السيد ماكورتير وهو ينحني ثانية:

«لقد فتحت الباب».

فردت بياترس:

«ليس هذا عدلاً. أنا بطيئة الآن، ولكن كان بإمكاني العزف سابقاً».

وقال ماكورتير:

«ولكنك تعزفين بشكل رائع، فلماذا تعتذرين؟».

أجابته:

«إنك لطيف جداً. معلمي السابق العجوز كان سيخالفك الرأي...».

فقال السيد ماكورتير:

«نحن هواة متواضعون وأنت بالنسبة لنا، أكثر من رائعة».

«كان العجوز الطيب المسيو فانيير يوبخني كثيراً، ولقد قال مرة بأني لن أطور قدراتي من الحضينة. وكان يقتبس ذلك من العهد الجديد. ولقد اعتقدت دائماً بأن الكتاب المقدس مزيف باللغة الفرنسية ألا تعتقد ذلك؟».

«إن معرفتي باللغات الحديثة ليست عميقة. أنا متأسف لقول ذلك».

«لقد تربيت في مدرسة راهبات قرب الرون».

«أوه. هذا مثير للانتباه».

«أجل لقد بقيت هناك ست سنوات ولكن اهتمامي بالأمر بدأ يقل تدريجياً».

فقال السيد ماكورتير مبتسماً:

«وا أسفاه!»

وقالت بياترس:

«كانت تلك الأيام مختلفة عن أيامنا هذه!».

فقال السيد ماكورتير وهو يزداد خوفاً وتعاطفاً:

«أعتقد ذلك».

الفصل الحادي والثلاثون

في شهر تموز نفسه، ولم تكن قد مرت سنة على وفاة سيغموند. جلست هيلينا في عربة ترام مع سيسل بيرن. كانت ترتدي ثوباً من الكتان الأزرق لأن النهار كان قائظاً، وكان بيرن يمسك أمامها بنسخة مفتوحة ذات غلاف أصفر من كتاب ناس وحيدون بينما هي تدندن بالأغنية الشعبية الروسية المطبوعة على صفحته الأولى. كانت مقطبة، تهز رأسها وتحرك يدها كي تضبط إيقاع الأغنية. ثم استدارت على نحو مفاجئ صوبه، وهزت رأسها وقالت ضاحكة:

«لا فائدة لا أستطيع ضبط إيقاعها. أعتقد أن تأرجح العربة يمنعني من ضبط الإيقاع».

فرد عليها ضاحكاً:

«الأشياء الخارجية الصغيرة تقهرك دائماً».

فأجابت مبتسمة مسندة رأسها على الشباك:

«أهي كذلك حقاً؟»

كانت الساعة السادسة مساء. والسماء ملبدة بالغيوم بعد يوم دافئ معتم. وعربة الترام تقفز باتجاه الجنوب. ومن زاويتي عينيه، راقب بيرن خصل شعرها، وهي ترتجف على عنقها بتأثير الريح:

«أشعر وكأنها ستمطر».

فقال لها، بهدوء وقد التفت كي يراقب الناس على رصيف المحطة:

«كان المفروض ألا تخرجي إذن».

قالت:

«كان المفروض ألا أخرج لأني لست مهيأة لذلك تماماً».

ومع ذلك لم يكن لديها أدنى استعداد للعودة. نزلا من العربة عندئذ، وسلكا طريقاً يتفرع من الطريق العام ويتسلق التلال. وكانت الأشجار معلقة على أحد جانبي الطريق. بينما انتصبت على الجانب الآخر مجموعة من المساكن المحاطة بعشب عال. وعلى ذلك العشب اندفع كلبان ضخمان من كلاب الرعاة، وقفا على حافة المنحدر المعشوشب المطل على الطريق وهما ينبحان ويهمهمان بصخب. توقفت هيلينا وبيرن ساكنين يراقبانهما. كان أحد الكلبين رمادي اللون كما هي العادة، أما الآخر فقد كان بنياً شاحباً ولقد اهتاجا بسبب وجود هيلينا وبيرن، وضحكت هيلينا منهما وعلقت بطريقتها البطيئة:

«إنهما...».

فأكمل بيرن قائلاً: «إنهما كلبا رعاة يمثلان علينا دور ذئبين».

فردت هيلينا قائلة:

«لا. إنهما يذكرانني بفافنر وفاسولت(*)».

وقال بيرن:

«فاسولت. إنهما يشبهانه. إني أتساءل إذا كانا يكرهاننا حقاً».

(*) شخصيتان من أوبرا (الراين الذهبي) لفاغنر شبيهان بهابيل وقابيل.

فقالت له وهي ما تزال تضحك:

«هذا ما يبدو».

وقال لها:

«إن الكلاب تتعلق بي بشكل عام».

انفجرت هيلينا بالضحك على نحو مفاجئ، فنظر إليها مستفهماً، فقالت وهي ما تزال ضاحكة:

«أتذكر أنك في نوك هولد كنت تمشي في موكب برفقة حمل صغير وكلب...»، وأشارت بأصابعها إلى الطريقة التي كان يمشي بها الثلاثة.

فقال:

«لابد أني كنت أبدو مثل الحمار».

فضحكت وقالت:

«مثل عازف مزمار بملابس مرقطة».

ورد عليها:

«ومع ذلك فإن الكلاب كانت تتبعني».

فقالت له:

«لقد كانت تتبع سيغموند».

فهتف:

«آه!».

وأضافت:

«أتذكر أنه كان عندهم كلب صغير بني اللون لفترة طويلة من الزمن، وقد كان يتبعه إلى البيت».

وهتف مرة أخرى:

«آه!».

فأضافت:

«وأتذكر أيضاً أن قطة مرقطة تبعتني، ولكن أمي رفضت إدخالها البيت. ولقد وجدتها بعد بضعة أيام ميتة في الطريق، ولا أعتقد إني غفرت لأمي هذه الفعلة إطلاقاً».

وقال لها:

«الأسى على قطة واحدة هالكة أكثر مما على كل معاناة الرجال».

فنظرت إليه وضحكت وكان يبتسم بسخرية عندئذ:

«لست الملومة فيما يتعلق بالرجال كما ترى» قالت له.

وعندما اقتربا من قمة التل سقطت بضع قطرات من المطر، فقالت هيلينا:

«أتعرف... إذا ابتدأت تمطر الآن فإنها ستستمر طوال الليل». وأشارت إلى كتل السحب المظلمة الهائلة في الأفق.

«انظر هناك».

فقال لها:

«أليس من الأفضل أن نعود؟».

«لنذهب ونبحث عن شجرة كثيفة نستظل بها حتى نرى كيف تجري الأمور، إننا لسنا بعيدين عن السيارات هنا».

استمرا في المشي، وابتدأت قطرات المطر تزداد كثافة ثم ما لبثت أن قلت تدريجاً. فقالت بينما كانا ينعطفان حول التل المدور حيث تنتصب شجرة بلوط على الجهة اليسرى:

«لقد مرت سنة بأكملها».

وسألها:

«وأية مناسبة هذه؟».

«مرور سنة بالضبط على تجوالنا أنا وسيغموند هنا. كان اليوم خميساً، ولقد ذهبنا إلى غابة الصنوبر. هل اجتزت غابة الصنوبر من قبل؟».

«لا».

فقالت له:

«إذن، سنذهب إلى هناك».

فلمّح لها:

«التاريخ يعيد نفسه».

سألته بهدوء، بينما كان يقطع رؤوس عشب رجل الديك، وهو يمشي:

«كيف؟ أنا لا أرى أية إعادة».

وهتف بمرارة:

«لا. أنت على صواب».

استمرا في المشي صامتين. وعندما اقتربا من حقل، رأيا رجالاً يفرغون العربة الأخيرة من القش في أكداس بنية اللون. استنشق الهواء. ورغم أنه كان غاضباً غير أنه قال لها:

«أعتقد أن القش رطب بعض الشيء. ألا تستطيعين استنشاقه؟ إنه مثل التبغ الحار وخشب الصندل».

فسألته:

«ماذا؟ أهي رائحة هذا الكدس؟».

«أجل إن الأمر هكذا دائماً عندما يحصدونه رطباً».

ابتدأت المحادثة مرة أخرى غير أنها لم تتطور. وعندما استدارا إلى الممر الضيق على جانب الحقل سبقها إلى الأمام، وانحنى فوق السياج، ثم قطع ثلاثة براعم من ورد «صريمة الجدي» التي كانت صفراء بلون الزبدة، وممتلئة بالعطر، وانتظرها حتى تلحق به. كانت ترفع رأسها وتتأمل سياج الأشجار. قدم لها الورود دون أن يتكلم، فانحنت إلى الأمام واستنشقت العطر الغني ثم نظرت إليه من فوق البراعم بعينيها الزرقاوين المتوسلتين الجميلتين، فابتسم لها وقال:

«أليست رائعة، أليست وروداً جميلة؟».

أخذتها من دون أن تجيب، وعلقت واحدة منها بعناية في عروة ثوبها. كان ذلك تصرفاً يتعارض مع مبادئها، واتخذ بيرن مكانه إلى جانبها. وقال لها:

«أحب دائماً اللون الذهبي الأخضر الذي يميز الحقول المحصودة. أعتقد أنها تعكس شروق الشمس حتى إذا كان لون السماء رمادياً أشد من لون القط العتابي».

ضحكت وبالغريزة مدت يدها باتجاه الحقل المتوهج الممتد إلى يمينها.

دخلا غابة الصنوبر حيث تتحول الريح الباردة إلى صفير. ومثل حشرة مضطربة حام حولها ومثل فراشة تهتز لوامسها وترتعش بحساسية وهي تجمع المعلومات، وتمس الهالة كما لو أنها لأنثى، كان رقيقاً على نحو مدهش في معاملتها.

كان الممر قد قُطع لولبياً خلال الأشجار المكتظة المتقاربة المظلمة الرائعة التي كانت تهتز مثل الأوتار تحت قوس الريح الهش، ومرة بعد أخرى، كان يحملق في الممرات بين الأشجار، ممرات ضيقة ذات أعمدة معتمة كما لو أنها قد نسجت من الضباب، ومن حولهما كان الغسق كثيفاً سميكاً تتخلله جذوع صامتة رشيقة.

وقفت هيلينا صامتة تحملق بقمم الأشجار حيث يُسحب قوس الريح مُصدراً ارتجافاً محسوساً ضئيلاً، واستمر بيرن ماشياً من دونها. وعند المنعطف توقف ووضع يده على جذع شجرة صنوبر مدور، واستدار ناظراً إليها في الخلف. ومثل شرارة زرقاء وسط الأشجار الكثيفة بنية اللون، كانت تتحرك ببطء شديد على امتداد الطريق.

وحدث نفسه بمرارة:

«قد لا أكون موجوداً بالنسبة لها، لأنها لا تهتم بوجودي».

ومع ذلك، وعندما اقتربت منه، سألها بحيوية:

«هل لاحظت كيف تخلق آلاف البراعم الجافة بين الجذوع نوعاً من الضباب البني؟». نظرت إليه على نحو مفاجئ، كما لو أنه قد قطع عليها سلسلة أفكارها:

«هم؟ نعم... أعرف ماذا تقصد».

ثم ابتسمت له بسبب نبرته الطفولية المتألقة وتصرفاته. فضحك قائلاً لها:

«أهو ضباب الصنوبر؟».

فأجابته:

«أجل. أنت تراه في الصور ولكني لم ألاحظه من قبل».

هز الشجرة التي كانت تستند عليها، وقال لها وهو يعبث بكل شيء يمسكه:

«إنها تضحك عبر أسنانها».

وعندما استمرا في المشي، أمسكت قبعتها برشاقة، ثم انحنت لتلتقط دبوس قبعتها الفضي وضحكت لنفسها كما لو أنها مسرورة بما حدث، وقالت له:

«السنة الماضية... سرقت أصابع الصنوبر كلاً من دبوسي شعري، أنهما الدبوسان نفسهما».

نظر إليها متسائلاً عن مقدار الدفء الذي يملأ به مكان الشبح. فكر بسيغموند وتخيله هو يتمايل هابطاً الضفة الحادة خارجاً من الغابة مثلما يفعل هو بالضبط في هذه اللحظة وهيلينا تخطو خلفه بحذر. كان يشعر دائماً برابطة وعاطفة عميقة مع سيغموند، وفي بعض الأحيان تصور أنه يمقت هيلينا.

وصلا نهاية واد ضحل، كان واحداً من تلك التجاويف العريضة بين التلال الشمالية الذي يبدو مثل نسيج طويل مزدان بالصور يمسك به أربعة أشخاص. كانت الدنيا تمطر، ونظر بيرن إلى النقاط الزرق الغامقة التي بدأت تظهر على أكمام ثوب هيلينا. استمرا بالمشي بعض الوقت، وازداد المطر، وبحثت هيلينا عن ملجأ. وقال بيرن:

«هنا، هذه خيمتنا، ولقد تم حجزها مسبقاً».

انحنيا تحت الأغصان الواطئة لشجرة طقسوس كبيرة جداً تنتصب خلف الممر تماماً. زحفت خلفه، وكانت الشجرة ملجأ رائعاً حقاً. جلس بيرن على حافة الجذر وإلى جانبه هيلينا وهي تنظر من تحت الأغصان السود إلى الوادي حيث كان المطر يهطل مدراراً. كان التجويف المظلم تحت الشجرة يتغلف بصوته الرتيب. وفي الفضاء الرحب، حيث نباتات الذرة الغضة اليانعة تتألق باخضرارها

الرطب، كانت هناك مجموعة من الأغنام تتحرك تحت المطر على سفح التل بقلق وبين فترة وأخرى، يصلهم رنين أجراس الأغنام. في البداية تجمعت المخلوقات الرمادية في الزاوية العليا، وبعد ذلك هبطت واحدة منها واحتمت بالذرة النامية حيث تبعتها البقية الباقية، وهي تثغو ويدفع بعضها بعضاً بفوضى حتى تصل إلى المكان المنشود والذي لم يكن أفضل من سابقه.

قال بيرن بنبرة غريبة:

«هذه مثلنا... إننا نجوس جميعاً في مساء رطب، ولكننا نعتقد أننا لو وصلنا إلى مكان فيه شخص ما فإن المكان سيكون دافئاً لذيذاً».

ضحكت هيلينا بنعومة مثلما تفعل دائماً عندما تصبح نكدة ومشاكسة. جلس ورأسه منحن إلى الأسفل، يبتسم بشفتيه ولكن عينيه كانتا كئيبتين. مدت يدها إليه فأخذها دون أن يلاحظ ذلك. طوى يده عليها وزاد الضغط عليها دون أن يشعر.

قال لها:

«أنت باردة».

فأجابت بهدوء:

«يداي فقط، وهما كذلك عادة».

«يداي دافئتان عادة».

قالت له:

«أعرف ذلك، إنهما الدفء الوحيد الذي أحصل عليه تقريباً. يداك دافئتان على نحو رائع ولهما لمسة حميمة».

فقال لها:

«إنهما ممتازتان مثل البطاطا المشوية».

فضغطت يده موبخة إياه لتهكمه.

وسألها:

«المزيد من السعرات الحرارية كل أسبوع، أليست هذه هي الطريقة التي نتدبر بها الأمر. على الحساب». وضعت يدها الأخرى على يده، كما لو أنها تتوسل إليه أن يتخلى عن تهكمه الذي يؤذيها، وجلسا صامتين بعض الوقت، وتفرقت الأغنام، وبدأت تصعد إلى الجانب الآخر من التل، واستمرت أجراسها البائسة ترن (تونك، تونك، تونك)، وازداد هطول المطر.

كان بيرن يفكر في الأسبوع الماضي، فقد ذهب إلى بيت هيلينا ليدرس معها اللغة الألمانية كما هو المعتاد، إذ أرادت أن تفهم فاغنر بلغته الأم. وعلى كرسيين متجاورين كانت هناك حقيبة كمان امتدت على مسنديهما. جلس على حافة أحد المقاعد أمام الكمان المقدس. وجاءت هيلينا بسرعة وازاحته. فقال لها محتجاً:

«لن أسقطه، إنه بخير».

كان ذلك كمان سيغموند الذي استطاعت هيلينا شراءه، وكان بيرن مستعداً أن يعترف بأفضليته عليه، وأكد لها مرة أخرى:

«إنه بخير».

أجابته بهدوء:

«ولكنك لست كذلك».

عندئذ نبض قلبه بسرعة وإثارة. أما الآن فإنه يجلس وسط عاصفة صغيرة من القلق لم يكن هناك ما يدل عليها في مظهره ولكن بعضاً منها قد تم إيصاله إلى هيلينا عبر الضغط المتزايد ليده التي راحت تضغط أقوى فأقوى فوق أصابعها وراحتها. وفجأة أدرك أن يدها لم تعد مرتاحة فأرخى الضغط قليلاً، تنهدت كما لو

أنها كانت مضطربة ومنزعجة، وتساءلت عما يفكر فيه، فابتسم لها بهدوء، وقال مازحاً:

«الأطفال في الغابة».

ضحكت هيلينا بصمت مختنق بالدموع، وفوقهما على الأشجار، ابتدأ طير بالغناء، رغم المطر، بأغنية مسائية مهشمة.

«ذلك الطير المتسول الصغير، إنه يدرك أن حالتنا ميؤوس منها، لذلك فإنه يذكرنا بالجنة ولكنه إذا كان سيغطينا بأوراق الطقسوس فقد وجد لنفسه مهنة».

ضحكت هيلينا مرة أخرى وارتجفت، فوضع ذراعه حولها وسحبها إلى دفئه. وبعد هذه الحركة الجديدة والجريئة لم ينبس أي منهما ببنت شفة لبعض الوقت.

قال لها:

«المطر مستمر».

أضافت ضاحكة بعد حين:

«وسوف يستمر».

فقال لها:

«أنا راض بذلك».

وزقزق الطير فوقهما بصوت عال مرة أخرى.

فقال بيرن:

«إنه ينثر الورد فوق رأسينا»، ثم أضاف ساخراً حزيناً: «ولكن ولا غصن طقسوس واحد».

أصدرت هيلينا صوتاً دالاً على مزيج من الرقة والاسترخاء

تجاهه، والتعب لنفسها، وتركت نفسها تغطس قريباً منه، فهمهم قائلاً:

«أيكون الأمر كذلك دائماً، لا طقسوس!».

وضع يده التي كان يكسر بها براعم الصنوبر على رسغها البارد. وبعد أن لاحظ أن أصابعه كانت متسخة سحبها قائلاً:

«سأترك آثاراً عليك».

فأجابته:

«ستختفي!».

«نعم، إننا نخرج نظيفين بعد كل شيء، فالزمن بلسم يشفي كل أنواع الجروح».

فقالت له مبتسمة:

«بعض الآثار لا يبدو أنها ستختفي».

ومدت ذراعها الأخرى التي كانت تضغطها بدفء على جنبه، فرأى فوق الرسغ حرق الشمس الذي حدث السنة الماضية، فنظر إليها بيرن بحزن وقال لها بأسى:

«ولكن هذا سيختفي أيضاً».

وضعت هيلينا ذراعها حوله تحت سترته وكانت باردة فشعر بموجة حارة من المتعة تنتشر في جسده. وفي الحال تركته وارتدت قبعتها، فقال لها:

«هكذا أفضل».

فقالت له:

«لقد كنت خائفة من الدبابيس».

فرد ضاحكاً:

«كنت أتفاداها طوال الساعات الماضية».

وضعت ذراعيها مرة أخرى تحت سترته طلباً للدفء. وضحكت وأصدرت صوت مواء واهن، كما لو أنها تعبة وعديمة الحيلة. وأسندت رأسها على صدره، ووضع خده على خدها.

قالت له بنبرة كليلة:

«أنا احتاج إلى الراحة والدفء».

فهمهم موافقاً:

«حسن».



الخاطئ

تعد رواية «الخاطئ» التي صدرت في العام 1912 أقصر روايات د. هـ. لورانس، والكثير من أحداث الرواية مستلهم من قصة حب قصيرة جرت بين اثنين من زملائه. وقد صرف النقاد الكثير من الجهد على تحليل عناصر السيرة في الكتاب دون أن يدركوا أن لورانس كان يكتب عملاً من تجربة متخيلة يتجذر أصلها في الواقع.

إن هذه الرواية هي إحدى الارتدادات التي اعتصرها لورانس من ذاته في وجه الخطايا القاتلة المميتة التي يقترفها الإنسان في أوكار الضعف الإنساني، إزاء عصر الانحطاط، عصر اللاتوازن بين الجسد والروح.

ورواية «الخاطئ» التي اختلف النقاد كثيراً في تقويمها وفي مكانتها بين آثار لورانس الكبرى تظل إحدى لوحاته الخلابة، فهو قبل كل شيء، وبعد كل شيء فنانٌ من فرع رأسه إلى أخمص قدميه، فنان يهبنا الكثير بسخاء، ويشدنا إليه ويصور لنا العفة المبتورة. فمع كل هذا الإطار الذي يؤطر رواية «الخاطئ» لا تستطيع أن تبتسم، بل البسمة تستحيل إلى إشفاق، إلى تطلع مجنون داخل الذات.

ذلك هو د. هـ. لورانس الذي آلمته جميع الآلهة المزيفة داخل الإنسان وخارجه، فاستخدم في وجهها كل الأسلحة... كل الأسلحة حتى البذيئة منها، ذلك أن الآلهة المزيفة لم تعد، كما كانت في عصور النور تسكن القمم، بل تعوي مصابة بالكراهية والبغض وتعيش في الحضيض.

تهدف الرواية إلى القول أن انعدام التوازن في العلاقة بين الرجل والمرأة يضعف الشريكين معاً. وفرض الرغبات من أحد الطرفين لابد أن يؤدي في النهاية إلى انتصار أحد الشريكين.

الناشر